مقدمـــــــــــــــة:

ظل النشاط الاقتصادي خلال القرن الرابـــع الهجـــري (العاشـــر الميلادي) قائما صامدا رغم الفتور السياسي الذي كان يمر به العالم الإسلامي و خاصة الجانب الشرقي منه نتيجة صراع الأجنحة حول السلطة، و الـــذي تمخض عنه استيلاء البويهيين على بغداد و خلع المستكفي، سنة 334 هجرية (945 م) مما أدى إلى ارتفاع المكوس و الضرائب التي أثقلت كاهل أصـــحاب المهـــن و الزراعات و التجار.

فَمِنْ بين الأنشطة الاقتصادية التي صمدت أمام هذه الظروف السياسية الاستثنائية، النشاط التجاري حيث كان في أوج عطائه خلال القرن الرابع الهجري (العـــاشر الميلادي)، نتيجة الازدهـــار الاقتصادي المحلـــي و التطور الفكري الحاصل في عدة مجالات، و الذي أرسى دعائمه الخلفاء العباسيون السالفون، فكان له الأثر القوي على صلة العرب في عهد الخلافة العباسية بالأمم الأخرى، و تبادل الوفود الدبلوماسية و التجارية بين المسلمين و بلاد الصين و الهند، و صادف ذلك تطور علم الجغرافيا عند المسلمين و انتشار معارفها و استعدادات المسلمين لخوض غمار المجهول، فظهرت الرحلات الجغرافية البرية و البحرية التي أنجزت من خلالها عملية مسح كبيرة لجل الأراضي و البحار من طرف الرحالة و الجغرافيين المسلمين و الذين ساهموا هم أيضا في التأريخ للتجارة الإسلامية و ذلك من خلال تدوينهم لأخبار رحلاتهم و أسفارهم الشاقة فكانت رحلاتهم إلى الهند و الصين مجالا خصبا لذلك حيث ذكروا المدن التي نزلوها و المسافات التي قطعوها و الصعوبات التي تغلبوا عليها، فوصفوا البلدان و زرعها و صناعاتها و تجاراتها.

و الواقع أن صلة العرب بالصين و الهند تجاريًا كانت أقدم من الإسلام و كانت مادتها الأولى آنذاك التجار الهنود و الصينيين، غير أن ظهور الإسلام و انتشاره، و تأسيس الدولة الإسلامية و ازدهارها و استقرار الأوضاع السياسية بها في العصرين الأموي و العباسي ساهم مساهمة كبيرة في عقد الصلة التجارية بين البلاد الإسلامية و بلاد الهند و الصين و تكثيف التبادل التجاري و تعميقه بين المنطقتين، فنشطت المبادلات التجارية بينهما إلى أن بلغت ذروتها خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). فمن مرفأ سيراف على ساحل إيران، و من الأبلة و البصرة في العراق، كانت تنطلق السفن الإسلامية المحملة ببضائع التجار المسلمين باتجاه سواحل الهند الغربية و في طريقهم إلى سيلان يلتقون بنظرائهم الصينيين ليتاجروا معهم، بينما كان آخرون يواصلون سفرهم إلى الصين للمتاجرة هناك برغم المخاطر التي كانت تترصدهم عبر هذه الطريق الشاقة و الطويلة، حتى بل مدينة "كانتون". و في مقابل ذلك، كانت مراكب التجار الصينيين المثقلة بالبضائع النفيسة تصل إلى سيراف التي كانت حينذاك بمثابة المستودع الكبير للخليج الفارسي.

كذلك بالنسبة لطريق الحرير البرية، التي اكتسبت سمعة طيبة و شهرة لا مثيل لها، نتيجة نوعية البضاعة التي اشتهرت بها و سميت باسمها، و التي لم تشد انتباه و اهتمام التجار و الرحالة فحسب بل كانت محط اهتمام الملوك و الممالك التي كانت تمر عبرها قوافل التجار متعددي الجنسيات، إِذْ لم تكن مجرّد مسلك لتجار الحرير فقط، بل كانت أيضا بمثابة قناة ربط و تزاوج بين ثقفات متعددة و متنوّعة و تواصل و تلاقح بين حضارات عريقة.

غير أنّ الفتح الإسلامي لبلاد الشرق و امتداده إلى ما بعد نهري جيحون و سيحون دعّم أكثر و قوّى روح التواصل الاقتصادي و التجاري بينها و بين بلاد الإسلام.

لذلك، فقد أدّى هذا النشاط التجاري المكثف بين أولئك التجار إلى نشوء ترابط وثيق بين الشعوب و البلدان التي ينتمون إليها سواء، على امتداد المحيط الهندي أو طريق الحرير البرية، فكان من ثماره ازدهار الجاليات الإسلامية في العديد من المدن الهندية و الصينية التي ساهمت بشكل فعّال في رفع لواء الدعوة إلى الإسلام بها.

و بسبب تنامي الرواج بين الصين و بين العرب و الفرس، اتخذت أسرة "سونغ" عدّة إجراءات لتوسيع التجارة الخارجية، فأنشأت دائرة للتجارة و الملاحة في كانتون(خانقو) و تسي تون (زيتون) و التي تدعى الآن "تشيوا نتشو"، إضافةً إلى عدد آخر من المدن التجارية الساحلية و الحدودية.

كما ساهم أيضًا في تقدّم و ازدهار التجارة الإسلامية خلال القــرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، الاهتمام البالغ و الرعاية الفائقــة اللــذان حظيت بهما من قبل السلطة الإسلامية، فقد أولاها الخلفاء العباسيون كأسلافهم الأمويين اهتمامًا كبيرًا ، خصوصًا بعد تأسيس مدينة بغداد، فشقوا الطرق لها و حفروا الآبار و بنــوا الأســواق للتجار و الحرفيين و شيّدوا الخـــــانات و الفنادق للتجار الأجانب و شجعوا التجارة. كما عملت الإمارات الإســلامية التابعة للدولة العباسية في بلاد فارس و شرقها كالــسّمانيين (389/261هــــ)-(902/874م) و البويهيين (447/334هــ)-(1060/945م) و الغزنويين (351-582هــ)-(1195/954م) على تأمين طرق التجارة و توفير سبل ازدهارها، حتى أصبحت سمرقند و غيرها من المدن الإيرانية كبخارى و أصفهان من أعظم المراكــز

التجارية و معبرًا للتجارة الشرقية و الغربية ومن المحطات التجارية الرئيسية التي لعبت دور الوسيط بين تجارة الصين و الهند و التجارة الإسلامية عموما، حيث كانت سمرقند ترتبط بشبكة من الطرق التجارية البرية تمتد عبرها من حدود بلاد الصين و كشمير و منغوليا لتصل منها إلى مدن العرب و المسلمين في بغداد و حلب و دمشق و منها إلى مصر و الإسكندرية.

بينما يمتد الطريق البحري جنوبا من موانئ الصين و الهند إلى الموانئ الجنوبية الإسلامية في الخليج العربي، كميناء سيراف، أو موانئ اليمن كميناء عدن و موانئ البحر الأحمر، و من هذه الموانئ يتم توزيع السلع و مواد التجارة، برا إلى الحواضر الكبرى في بغداد و الشام و مصر و بلاد فارس، لدرجة أن احتلت تجارة المسلمين في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) المكانة الأولى في التجارة العالمية آنذاك مما أدى إلى رواج كبير لها ساهم في ذلك التجار المسلمون من أقوام عديدة، فضلا عن اليهود و النصارى بمختلف طوائفهم، من الشرق إلى الغرب.

كما تنوع التبادل التجاري بين المسلمين و بلاد الهند و الصين من حيث العناصر المساهمة فيها، فقد تنوعت السلع و مواد التجارة تنوعا كبيرا استطاعت أن تفي بحاجيات هذا العدد الهائل من سكان هذه المناطق العديدة، بحيث أصبح تبادل المواد الصناعية و الفنية أمرا مألوفا كالمنسوجات و الحرير و التوابل و الخزفيات و الأحجار الكريمة و المعادن و الجلود و الفرو و المسك و الكافور.

كما كان للتجارة الإسلامية الأثر البالغ في نشأة الأسواق و المــدن و تطورها، بحيث أصبحت الملامح الرئيسية للمدن ذات الطــابع التجــاري، فانعكس التطور العمراني للمدن الإسلامية على نمطية أسواقها، بحيث عرفت نوعا من الانفصال عن التجمعات السكانية.

كانت هذه المعاني المختلفة تُشْغِلُنِي وأنا أَتَطَلَّعُ لاختيــار موضــوع البحث، وكلما ابْتَعَدْتُ عنه لِمَوْضُوعٍ غَيْرِهِ رَجَعْــتُ إليــه أَتَحَــسَّسُ خبايــاه وَأَسْرَارَهُ بَاحِثًا عن سبب انشغالي به، وخلال ذلك أدركتُ أنه بالرغم مما كُتِبَ عن العصر العباسي وعن الدولة العباسية من مئات الكتب ومئات الأبحــاث والدراسات في شتى الجوانب فإن الجانب الاقتصادي والتجاري ظَلَّتِ الكتابةُ عنه في حُكْمِ الغِيَابِ لِقِلَّتِهَا ، وما هو مَوْجُودٌ منها فهو امتدادٌ لبعض الكتابات الغربية من المستشرقين والدارسين الأوروبيين ، وهي بدورها قليلة إذا مــا قورنت بعظمة هذه الدولة وطول أمدها وقوة إسهاماتها فــي إعــلاء عظمــة العرب الحضارية والعلمية.

فعلى هذا الأساس استقر اختياري على موضوع تجارة المسلمين مع الهند و الصين خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) نظرا لأهميته التي ارتأيتها فيه مما حفزني إلى المضي في ذلك بالشروع فــي جمــع مــا استطعت من كتابات حوله سواء"ا حديثا أو قديما لأشكل منه هذا البحث الذي هو بين أيديكم.

غير أنّني، و من خلال عرض الموضوع من حيث التعريــف بــه و أهميته يتبادر إلى الذهن مجموعة من المعطيــات و المعــايير التاريخيــة و المعرفية تشكل تصورا عاما للبحث يمكن صياغتها على شــكل تــساؤلات يرتكز البحث حولها للإجابة عليها و هي:

إلى أي مدى بلغ الرواج التجاري بين المسلمين و بلاد الصين؟

ما هي الوسائط التجارية التي تعامل المسلمون في نشاطاتهم مع غيرهم من شعوب الشرق، و ما هي المراكز و الطرق التي سلكوها في رحلاتهم التجارية ببلاد الصين و الهند في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بصفة خاصة؟

من هي الطوائف التي كانت لها الريادة في التجارة مع الشرق الأقصى (الصين و الهند) و كيف كانت تتعامل فيما بينها؟ و كيف كانت علاقاتها ببعضها من حيث المعاملات التجارية: سببها، وسائلها، موادها و تنظيماتها؟

تشكل هذه التساؤلات محاور للبحث و الدراسة.

أما فيما يخص الدراسات السابقة في هذا الموضوع، نستطيع القول بأن ما كتب من دراسات حوله من طرف المتأخرين من المؤرخين و الباحثين سواء"ا كانوا عربا أو مسلمين أو غربيين و مستشرقين إنما مرجعه الأصلي هو ما كتبه الرحالة العرب و المسلمون الذين عاصروا تلك الحقبة المشرقة من تاريخ التجارة الإسلامية، حيث أن جل أولئك الرحالة جغرافيون، بل منهم من كان يمتهن التجارة أو الملاحة.

فكون القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) كما أسلفنا قد بلغت الجغرافيا فيه مرحلة متقدمة من النضج، فإن جل كتاباتهم المتمثلة في الأسفار التي تركوها لنا لا تعدو أن تكون إلا وصفا أو مسحا جغرافيا لتلك البلدان التي زاروها، فكان تركيزهم جليا حول هذا الجانب بالرغم من الجهود التي بذلوها في التأليف حول جوانبَ أخرى لا تقل أهميةً عنها، و المتعلقة

بموضوعنا المتمثل خاصة من الناحية التجارية، إلا أنها لم تكن بالقدر الكافي الذي يروي غليل الباحثين في هذا المجال,

فقد عُرِفَ عن هذا الجيل الأول من الرحالة الجغــرافيين العــرب و المسلمين تأَثُرَهُ بالمدرسة اليونانية الرومانية التي يتزعمها بطليموس، فمن بين أولئك الرحالة الجغرافيين: ابن خرداذبة (207-300هـ/ 913/822م) صاحب المسالك والممالك (232هـ/876م)، اليعقــوبي (المتــوفى ســنة 284هــــ/897م مؤلف كتاب البلدان، و ابن رستة المتوفى سنة 290هـ/903 م واضع الأعلاق النفيسة، و غيرهم من الذين كان لهم الفضل من هذا الجيل في ترسيخ تقاليــد الرحلة العلمية، حيث أصبحت كتبهم التي ألفوها في هذا الميدان مصادر إلهام لأجيال أخرى من الرحالة و الجغرافيين.

و الآن سوف نعطي لمحة مختصرة عن هذه المؤلفات:

1- كتاب المسالك و الممالك لابن خرداذبة: هو كتاب قد تناول فيه الكاتــب وصف الطرق و المسالك التي كانت تــربط مــا بــين الأقــاليم و الممالــك و خاصة تلك التي تربط آسيا بأوربا في عهده (القرن الثالث الهــجري/الثامن الميلادي)، كما تناول أيضا المحطات البرية و البحرية محددا المسافات التي تفصل بين البلدان أو بين تلك المحطات و مدققا في مبلــغ خــراج الأقــاليم و إحصاء جبايتها، واصفا مختلف الممالك في خصائصها و غرائبها فقد سمح له محيطه الأسري الذي ترعرع فيه باعتبار أن والده كان حاكما على ولاية طبرستان و وظيفته التي كان يتمتع بها كصاحب البريد و الشرطة في عهــد الخليفة المعتمد (297/256هـ)-(870/869م) بمعرفة المسالك و الدروب و توسيع مداركه العلمية و من ثمة قَسَّمَهُ إلى سبعة أقسام، حيث خص القــسم الثالــث و الرابع و الخامس و السادس بذكر مسالك الممالك في الشرق كبلاد فارس

و الهند و الصين، و الغرب كبلاد الشام و مصر و المغرب و بلاد الـــروم و لم يهمل الشمال كبلاد أرمينية و الخزر و بحر قـــزوين و انتهـــى بـــبلاد العرب.

إلا أن الملاحظ في كتابه عمومًا الشمول و الاختصار، و مـــوازاةً مع ذلك يبدي اهتمامًا في الخوض في ذكر بعض التفاصيل الثانوية و أحيانا المتشعبة، حيث نجد أن الكتاب في مجمله أقرب إلى البيانات الإدارية منه إلى التأليف الأدبي، الشيء الذي يثير نوعا من الفتور لدى البعض ممن ليسوا من أهل الاختصاص، إلا أننا نثمن عمله الكبير هذا، حيث يعتبر كتابه هـــذا مرجعا أساسيا للرحالة و أصحاب البـــريد، و محـــط إعجـــاب الغربييـــــن و المستشرقين، و لقد تم تأليفه سنـــة (232 هـ/876 م).

لذلك فإن أول من قام بنشر الكتـــاب و طبعـــه باربيـــه دومينـــار « BARBIER DE MEYNARD » مع ترجمة فرنسية في المجلة الآسيوية بباريس سنة 1865 م، ثم أدخله "دي خويـــه" « DEGOEGE » فـــي مكتبتـــه (مكتبتـــه الجغرافية)، فنشره في المجلد السادس منها سنة: 1989 م في ليدن، مستندا إلى مخطوطات أكثر دقة و ضبطا بالإضافة إلى ترجمة فرنسية و مقدمة إضافية بالفرنسية كذلك.

2- كتاب "البلدان" لليعقوبي: يعد أيضا من أمهات الكتب فـــي الجغرافيـــا إذْ يعتبر مؤلف هذا الكتاب الذي ينتسب إلى العباسيين من الأوائل الذين اهتمـــوا بالجغرافيا البشرية كما كان حريصا على تدوين ملاحظات عـــن الجغرافيـــا الطبيعية و عن المجتمعات التي تعرف إليها، و لقد قضى جل شبابه في التنقل بين البلدان و خاصة في ديار الإسلام، و فيه يقول: "إني عنيت في عنفـــوان شبابي بعلم أخبار و مسافة بين كـــل بلـــد لأنـــي ســـافرت حـــديث الـــسن

و اتصلت أسفاري و دام تغربي، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه و مصره" ثم عاد إلى بغداد أين عاش بقية حياته و توفي هناك سنة 284 هـ/ 897 م فقد كان هذا الكتاب ثمرة تلك المجهودات الجليلة التي قام بها خلال السنوات الطوال التي قضاها في الترحال، و الملاحظ في هذا الكتاب، هو عدم تقسيمه إلى أقاليم كما يفعل جل الرحالة و الجغرافيين، بل اكتفى بذكر البلدان التي زارها و وصفها، مع ذكر خصائص كل بلد بأسلوب أدبي جميل.

3- كتاب الأعلاق النفيسة "لابن رستة": يعتبر هذا الكتاب موسوعة نادرة خص المؤلف الجغرافيا بجزء منها (و هو الجزء السابع) و كان ذلك في أواخر القرن الثالث الهجري حوالي 900 م فقد أعطى الشؤون الفلكية قسطا وافرا من اهتمامه حيث نجد فيه أثر بطليموس واضحا جليا من خلالها.

كما تناول أيضا وصفا تفصيليا للمدن و الممالك التي مر بها أو نزل فيها، جامعا كل ما استجد من أخبار حولها، و هو في ذلك كبعض الجغرافيين يجمع بين الحقائق و الأساطير، لكن كانت معرفته أغزر من غيره و كثير منها كان مبنيا على المشاهدة.

إلا أنه و بالرغم من أهمية هذا الكتاب الثمين، فقد ضاعت أغلب صفحاته، فلم يصلنا منه إلا عددا من الأبواب، حيث قام دو خويه (De goege) بنشرها و طبعها سنة 1891 م.

أما خلال الرابع الهجري(العاشر الميلادي)، فقد اشتُهِرَ فيه ثلّة من الرحالة و الجغرافيين المبدعين على اختلاف مناهجهم و مذاهبهم العلمية، حيث عُرِفَ الصنف الأوّل بما يسمّى «الجغرافيون الرحالة» أشهرهم: "المسعودي"، وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، و هو من أصل

مغربي، ولد ببغداد سنة 287هـ(897م)، أمضى معظم حياته في الترحال، حيث بدأ رحلته سنة 305هـ(915م) متوجّهًا إلى "إصطخر"، ثم أكمل رحلته باتجاه كل من "السند" و"الهند" و "الصين" ثم عاد إلى "زنجبار"، ثم قفل راجعًا إلى "عمان"، و منها إلى بغداد. بينما قادته رحلته الثانية إلى شواطئ بحر قزوين و أرمينيا و الشام و فلسطين ثم مصر التي أدركته فيها المنية سنة 345هـ(955م).

فقد سمحت له هذه الرحلة الطويلة باكتشاف عوالم أخرى و التعرف على العديد من الأجناس و المجتمعات وعاداتها المتنوعة و أديانها المختلفة، الشيء الذي مكّنه عن طريق هذا الكم الهائل من المعلومات الهامة التي جمعها، في ضوء تجربته الطويلة و خبرته الكبيرة التي اكتسبها من خلال مشاهداته الشخصية و معايشته للأحداث عن طريق تنقلاته و أسفاره العديدة عبر تلك الأمم و الدول، من تصنيف عدّة مصنفات علمية في غاية الأهمية ، حتّى أنّ هذه الرحلة لم تُـثْـنِـهِ كذلك عن الكتابة في مجال الأدب و الشعر و الفلسفة ناهيك عن التاريخ و الجغرافيا، والتي لم يصل إلينا معظمها. و قد عني المسعودي عناية كبيرة بالأسلوب و الصنعة اللفظية، بل و كثيرًا ما يلجأ إلى السجع و المحسنات البديعية.

ألف المسعودي كتابه الأوّل "أخبار الزمان" سنة 332هـ(943م)، و الذي يحتوي حسب ما جاء في بعض الأبحاث نحو ثلاثين جزءًا ضاعت كلها و لم يصل إلينا منها شيء، ثم قام بتأليف كتاب آخر مهم لكن بحجم أصغر بكثير من الأوّل و المتكوّن من جزأين فقط، و هو المعروف باسم "مروج الذهب و معادن الجوهر". و في آخر حياته ألّف كتابًا سماه:""التنبيه والإشراف"، و في هذا الكتاب صحح المسعودي بعض الآراء التي كان قد عرضها في مؤلّفاته السابقة في ضوء معلوماته الحديثة.

غير أنّه ما يؤاخذ عليه الكاتب، بنـاءً علـى قراءتنـا النقديـة لمصنفاته العلمية على وجه الخصوص، هو توظيفه للحس العـاطفي أثنـاء تفسيره لبعض الأحداث أو الروايات و عدم التمحيص و التدقيق فيها، حتى أنه في بعض الأحيان لا يكاد يفرق بين الروايات الأسـطورية و الحقـائق التاريخية.

كما اشتهر أيضًا رحالة آخر يدعى "أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد" (الذي اشتهر في أوائل هذا القرن) و الذي أرسـله الخليفـة العباسي المقتدر بالله سنة 309هـ / 921م إلى ملك البلغـار ليعرفـه بـشعائر الإسلام، فدوّن كل ما رآه خلال رحلته الشاقة و المشوّقة في نفس الوقت، في مذكرة سفره، واصِفًا فيها بلاد الخزر.

و هناك أيضًا أبو دلف مسعّر بن المهلهل الخزرجي الينبوعي (الذي اشتهر في النصف الثاني من الرابع الهجري(العاشر الميلادي) أي حـوالي 390هـ/ 1000م، حيث أمضى وقتًا طويلاً في بلاط نـصر الثـاني الـسماني و عند الصفاريّين في سجستان، و الصاحب بن عبّاد البويهي بالـري. سافر برًّا إلى الصين ثم عرّج إلى الهند و سجـستان فكتـب عـن أهـم مـا رآه و اللحظات الهامة التي عاشها خلال رحلته الطويلة في البلدان التي زارها، ضمن رسالتين، حيث درس الرسالة الأولى " فلستنلفد " سنة 1842 و طبعهـا " شلوزر " سنة 1845. و طبع " مينورسكي " الرسالة الثانية سنة 1955 ثـمّ " بلغاكوف " و " خالدوف " سنة 1960.

إلاّ أنّه برز بعد ذلك جيل آخر خلال نفس القرن ، حيـث أظهـر نوعا من الاستقلالية عن الجيل الأول، و بالتـالي التحـرر مـن المدرسـة

الإغريقية، فوضعوا لأنفسهم طريقة و منهاجا خاصا بهم، فهؤلاء هم أصحاب المدرسة العربية الإسلامية أو كما سماهم كراتشوفسكي «جغرافيو المدرسة الكلاسيكية في القرن العاشر»، فكان من أبرزهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (235هـ/849م - 322هـ/934 م) الذي سمىّ مصنّفه " صور الأقاليم " أو " تقويم البلدان" و هو أول من استقل عن بطليموس من حيث الطرح و رسم الخرائط و شرحها.

ثم يأتي من بعده "أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري" الفارسي المعروف بالكرخي صاحب كتاب "المسالك و الممالك" الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عاصر ابن حوقل و اتصل به سنة 340 هـ. حيث اغتنم فرصة ابتعاده عن بلده "إصطخر" نتيجة الظروف السياسية للتفرغ للترحال و الكتابة و الاحتكاك بالرحالة و الجغرافيين الذين سبقوه إلى هذا الميدان.

ألف الاصطخري كتابه السالف الذكر معتمدا في ذلك على ما كتبه البلخي، و يبدو أنه كان متأثرا به كما سنرى حين نتعرض لكتابه.

و يلي الإصطخري رفيقه في الرحلة " أبو القاسم محمد" المعروف بـ: "ابن حوقل" (توفي 367هـ / 981م) و مؤلف كتاب المسالك و الممالك المعروف باسم (صورة الأرض)، و الذي كان لقيه و تعرف إليه خلال الرحلة التي قادتهما إلى الهند سنة (340هـ/951م) حيث أخذ عنه بدوره و اشتهر من بعده في ميدان الجغرافيا.

4- كتاب المسالك و الممالك للإصطخري: و لقد أتم تأليف كتابه في نفس السنة التي توفي فيها البلخي (322هـ/934 م)، ، فقبل قيامه برحلة من الخليج العربي إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ثم بحر قزوين، كان قد

كتب كتابه هذا الذي بين أيدينا، حيث اعتبره بعض النقاد و المستشرقين أمثال: "دوخويه Degoege" في مقدمة طبعته التي قام بتحقيقها (سنة 1871) بأنه لم يكن في الحقيقة سوى ملخصا لكتاب "المسالك و الممالك الذي ألفه البلخي.

تعرض الإصطخري في هذا الكتاب لوصف البلدان، و خاصة منها الولايات الإسلامية، و بعض المدن الهندية و البحار و الطرق. و خلال رحلته إلى الهند التقى بالرحالة الشاب "بن حوقل"، الذي كان يحمل نسخة من كتابه و التي كان قد سجل حوله ملاحظات هامة فكلفه الإصطخري بتنقيحه.

و الملاحظ على الاصطخري أنّه تطرق بالتفصيل إلى بلاد فارس لمعرفته بها، باعتباره إبن المنطقة، بينما يوجز كل الإيجاز حين يتطرق إلى المغرب مثلاً،كما نسجّل أيضًا اهتمامه الكثير برسم الخرائط عن الأقاليم التي زارها.

5- كتاب المسالك و الممالك (صورة الأرض) لابن حوقل: هذا الكتاب ليس سوى تهذيبا لكتاب "المسالك و الممالك" الذي ألفه رفيقه في السفر "الإصطخري" حيث كلفه هذا الأخير كما أسلفنا بتنقيحه، فقرر "ابن حوقل" كتابته من جديد محتفظا بعنوانه:"المسالك و الممالك"، متمما إياه بمعلومات أدق و أحدث التي استقاها من رحلته.

و يظهر من خلال هذا الكتاب أنه بالرغم من محاولة "ابن حوقل" في الحفاظ على الشكل و التبويب ألأصلي للكتاب، فقد أدخل عليه تحسينات في غاية الأهمية، حيث تناول بصفة خاصة الفصول التي خصصها الإصطخري لمصر و المغرب و الأندلس و صقلية و العراق و بلاد ما بين النهرين، أما الفصل الذي يصف فيه بلاد فارس، فإن النص الأصلي للكتاب

أفضل من الذي نقحه ابن حوقل، و يبدو أنه أتم كتابه هذا بعد الرحلة التي قام بها إلى صقلية و المغرب و الأندلس، أي في حدود 367 هــ/977 م.

لكن بالرغم من التحسينات التي أدخلها ابن حوقل على هذا الكتاب إلا أنّنا نلاحظ حين نقارن بين الكتابين فضل الإصطخري على ابن حوقــل، حيث نجد أن هذا الأخير اتخذ عنوان الكتاب نفسه، و تبنى نفس الخطة فــي التصميم و التأليف، و نقل عنه الكثير من الفصول، ثم يضيف عليها بعــض الإضافات و الملاحظات القيمة.

و قد استفاد من كتابه هذا الجغرافيون و المؤرخون الذين جــاؤوا من بعده و خاصة ياقوت الحموي (575-625 هــ/ 1179-1229 م) في معجم البلدان، إلا أن ابن حوقل تعرض للنقد من طرف المختصين نظرا لعدم تدقيقه في بعض المرويات، و كذلك سرعة إصداره لبعض الأحكام.

و لكن مجهوداته في مجال الجغرافيا لا يستهان بها، و كل تعاليقــه و إضافاته، تعتبر مبادرات لإرساء علم الجغرافيا لدى المسلمين.في مــشارق الأرض ومغاربها، وممن استفاد من هذه الكتابات والمناهج رحالة مغاربة، لا يقل شأنهم في هذا الميدان عن معاصريهم المشارقة في سعة الإطلاع وقــوة الملاحظة ودقة التسجيل.

لكن، في غضون القرن الرابع الهجري (العاشر للمــيلاد) أيــضًا، ظهر نمط جغرافي آخر، اقتصر فيه المصنّفون على دراسة قطر واحد داخل دار الإسلام أو خارجها و سمّي هذا المنهج «بالمنهج الإقليمي»، إشتهر بــه " شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدســي البشاري (335هــ/946م-390هــ/1000م)، فقد سمحت له رحلته و تجواله فــي أقاليم دار الإسلام من عام 356هــ/966م حتّى وفاته، و التي اســتطاع فيهــا

التوفيق بين غاياته الثلاث: العلمية و التجارية و الدينية، في مباشرة أبحاثه العلمية، فعكف على دراسة العالم الإسلامي إقليمًا إقليمًا ثمّ تطرق بالتفصيل إلى المدن والحواضر التابعة لها و شعوبها، مع ذكر خصائص كل منها، حيث توصّل إلى أن يصنع من خلال الكم الهائل من المعلومات الهامة التي جمعها حول هذه الأقاليم، مادّةً علميّةً غزيرة جاهزة، لينهل منها الذين جاؤوا من بعده، و هذا يتضح من خلال قوله :« و ما تمّ لي جمعه إلاّ بعد جولاني في البلدان، و دخولي بلاد الإسلام»،ما يدلّ دِلالةً واضحة على أنّ عمله هذا يُعَدُّ فعلاً إنجازًا عظيمًا كان محلّ إعجاب وثناء المستشرقين الذين صنفوه كأعظم جغرافي الاتجاه الإسلامي و أعظم جغرافي العالم في عصره، فكانت ثمرة جهده مصنّفه المعروف بكتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم".

6- كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي: يعتبر هذا الكتاب من أحسن ما ألف في الجغرافيا، حيث تناول فيه الكاتب وصف الأقاليم الأربعة عشرة، وصفًا طبيعيًّا و بشريًا و اقتصاديًا بشكل تفصيلي.

بالنسبة لأسلوبه، فقد تميز بالسرد أحيانا، و بالتحليل تارة و بالنقد والتمحيص تارة أخرى. فقد قام مثلا بانتقاد ابن خرداذبة و الجيحاني لإفراطهما في الإيجاز، و ابن الفقيه لكثرة استطراداته.

إلا أن الملاحظات التي سجلت حول هذا الكتاب هو أن المؤلف لا يرى فائدة في التطرق إلى بلاد الكفار، حيث أنه ركز دراسته على البحار و المحيطات و الأنهار و عدد من الجزر و خاصة في المحيط الهندي كما وصف العواصم و البلدان المشهورة و ذكر خيراتها، و كذلك إعجابه

و افتخاره بما كتب، الذي يرجعه إلى معرفته الواسعة للنظريـــات و اللغـــات و مخالطة العلماء و التجار.

و هناك أيضًا، ضمن نفس النمط و الاتجاه، "الهمذاني"، و هو أبـــو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف المعروف بابن الحائك أو بـــابن الدمينة، الذي ظهر في النصف الأوّل من القرن الرابـــع الهجـــري (العاشـــر للميلاد) (334هــ/945م)، صاحب كتاب "صفة جزيرة العرب" الذي يعتبـــره "سبرنجر" أروع ماكتبه العرب في الجغرافيا هو و كتاب "أحسن التقاسيم فـــي معرفة الأقاليم" للمقدسي.

لذلك، فقد أصبحت هذه الكتب التي ألفها أولئك الرحالـــة العـــرب و التي تعتبر عصارة جهودهم و تجاربهم في ميدان الرحلـــة و الاستكـــشاف منهلا للذين جاؤوا من بعدهم من الرحالة و الجغرافيين و مرجعا أساسيا لهم.

أما المتأخرين من الرحالة و الجغرافيين الذين جاؤوا بعـــد هـــذين الجيلين، و الذين جابت شهرتهم الآفاق، نستطيع أن نقول بأنهم هم أيضا قـــد بذلوا جهودا معتبرة فيما خاض فيه أسلافهم الذين سبقوهم إلى هـــذا الميـــدان ثمّ أبدعوا فيه ، بل إنّ أحدهم كانت له اليد الطولى في إرساء علم الجغرافيا و الإبداع فيه و الذي مهـــد لعـــصر الرحلـــة و الاستكـــشـــاف بالنـــسبـــة للأوربييـــن ألا و هو الإدريسي (ولد سنة 463 هــ/1100 م)، ثم جاء من بعـــده ثلة من الرحالة منهم ابن جبير (ت 614 هــ/1217 م)،و ابـــن ســـعيد المغربـــي (610-640 هــ/1214-1243 م)، و ابن بطوطـــة (703-779 هـــ/1304-1377 م) و غيرهم كثير في هذا الميدان، أما بالنسبة للمؤرخين و الباحثين في العصر الحديث، و خاصة منهم المستشرقين، فقد بذل ثلة منهم جهدا لا يستهان به في البحث و التنقيب في هذا المجال الحيوي، و لكن لم تخرج عن دائرة مؤلفات

الرحالة و الجغرافيين السابقين، إلا أنهم استعانوا في بعض بحوثهم بالتخصصات العلمية الحديثة كعلم الآثار و الحفريات و ذلك لإضفاء نوع من المصداقية عليها و تعزيز أرائهم و اجتهاداتهم.

إلاّ أنه ينبغي نشير إلى نقطة مهمة و التي ربما قد تثير تساؤلاً، و هو أنّه جاء ذكر بعض المصادر في المقدمة دون الاعتماد عليها في النص، و الجواب على ذلك، أنّ ذكرنا إيّاها خلال تقديمنا لهذا البحث، إما أن يكون لأهميتها فقط وليست لها علاقة به، إذ ليس هناك ما يدعو للاعتماد عليها باعتبارها متخصصة في الأقاليم التي ليست لها علاقة بموضوعنا، أو تطبيقًا لنظام الأولوية في اختيار المصادر، و بالتالي تفاديًا للتكرار.

أما بالنسبة لمنهجية البحث، نقول بأن البحث العلمي يعتمد على أكثر من منهج، و بعبارة أخرى يعتمد الباحث في التاريخ على منهج عام مركب يمكنه من تحقيق الغرض من البحث و الوصول إلى نتائج يتوخاها الباحث في إشكاليته، و يعتمد في الأساس على تشخيص الأحداث ووصفها اعتمادا على النصوص التاريخية الأصلية من المصادر العامة و المتخصصة، و هو منهج وصفي.

و لكن ذلك لا يحقق النتائج دون الاعتماد على منهج آخر هو المنهج التحليلي المقارن الذي يعتمد على فهم النصوص و تحليل مضامينها و مقارنتها و جعلها تتحاور فيما بينها لاستخلاص النتائج و استنباط المعطيات للوصول إلى المقاربة من حقيقة الأحداث و الواقع.

أما بالنسبة للخطة التي رسمتها لبحثي فتتمثل في: مقدمة و أربعة فصول ثم الخاتمة، ففي **المقدمة** تطرقت إلى التعريف بالموضوع ودواعي

اختياره ثم عرضت بإيجاز الإشكالية وقمت بتحليل لأهـم المـصادر التـي اعتمدت عليها.

1. و في **الفصل الأول** الذي يعد كمدخل تمهيدي تكلمت فيه عن **التجارة في الإسلام بين الأثر الديني و البعد الجغرافي و خصائص القرن الرابع الهجـري(العـاشر للميـلاد)**، فعرّفت من خلاله بالتجارة من الناحية العلميـة و اللغوية و الاصطلاحية ثمّ أعقبته بذكر أهمية التجارة عند العرب و المسلمين، و في الشطر الثاني من المدخل تطرقت إلى أهم العوامل التي ساهمت في تنشيط الحركة التجارية للمسلمين مع الهند و الصين ركزت من من خلالها على أثر الإسلام في انتشار التجارة الإسلامية والبعد الجغرافي و التـاريخي للعلاقات التجارية بين المسلمين و الهنـد و الصيـن و كذا خصائص القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد).

تعرضت في **الفصل الثاني** إلى **تصنيف التجار و الـشركات التجاريـة**، حيث قسمته إلى مبحثين: ففي المبحث الأول ذكرت فيه أصناف التجار حسب أدوارهم ثم حسب عرقياتهم و أديانهم، ثم تطرقت في المبحث الثـاني إلـى تصنيف الشركات التجارية ثم مشروعيتها، أما **الفصل الثالث** فقد كتبت فيه عن **تنظيم التجارة** بحيث قسمته إلى ثلاث مباحـث، فـي المبحـث الأول تطرقت إلى تنظيم المعاملات المالية بين التجار ساردا لـبعض الوسـائل و الطرق في ذلك. و في المبحث الثاني عرجت إلى ذكر طرق و أسـاليب التعامل التجاري، في المبحث الثالث ذكرت فيه تنظيم الأسواق و مراقبتها مع ذكر أشهرها.

بالنسبة **للفصل الرابع** الذي تناولت فيه **النقل التجـاري**، ففيـه مبحثان ذكرت في الأول النقل البحري و محطاته ومسالكه، و في المبحـث

الثاني ذكرت فيه النقل البري و محطاته البرية و مسالكه، و أخيرا تطرقت إلى السلع المنقولة و المتبادلة بين بلاد الإسلام و الهند و الصين، و المتمثلة في الصادرات و الواردات.

فيما يخصّ الخاتمة، فقد أفرزت من خلالها زبدة البحث، مجيبا على كل التساؤلات التي كنت قد طرحتها في المقدمة.

أما **الصعوبات** التي واجهتها أثناء إنجازي لهذا البحث و التي يواجهها أغلب الباحثين المبتدئين و خاصة الجزائريين هي صعوبة جمع المادة العلمية الموازية لنقص المعلومات الناجم عن فقر مكتبتنا إلى المصادر و المراجع المتخصصة، في مثل هذه المواضع الهامة، و التي أرى أنها ضرورية، ككتاب مشهور و الذي يعتبر من أروع الكتب و أنذرها التي ألفت حول الرحلات التجارية الذي ألفه سليمان التاجر إذ يعتبر أول من ألف حول هذا الموضوع.

و هناك مشكل آخر و المتمثل في قلة الوقت و الإمكانيات بحيث أن ظروف عملي كباحث بعيد عن مجال العلم والثقافة، فعدم توفر الوقت الكافي و اللازم لإنجاز مثل هذا العمل و كذا إمكانياتي المحدودة لا تسمحان لي بالتنقل و التحرك بصفة حرة و الاتصال بالجهات التي التمست فيها روح المساعدة أو السفر لمعاينة بعض الجوانب المتصلة بالموضوع ، كل ذلك شكل عوائق كثيرة في وجه إنجاز البحث على الصورة التي كنت أطمح إليها بالرغم من الجهد والطاقة التي أفرغتها فيه.

و في الأخير أقول إن بحثي هذا قد تم بعون الله و رعايته تم بمساعدة و إشراف الأستاذ الدكتور عبد العزيز لعرج، الذي وقف بجانبي في السراء و الضراء، و سهر من أجل إنجاح بحثي، و ذلك بالتصحيح تارة

و بالاقتراحات تارة أخرى، و عدم بخله علي بنصائحه القيمـــة و توجيهاتـــه السديدة و الحكيمة و ملاحظاته الهامة التي أثرت موضوعي فأشكره جزيـــل الشكر على ذلك.

كما لا ننسى بعض الأساتذة الأفاضـــل الـــذين نفعـــوني بـــآرائهم و نصائحهم الهامة، فلهم جزيل الشكر، و كذا جميع من وقف بجانبي و مد لي يد العون من الزملاء و الأصدقاء.

فصـــــل أوّل: مدخـــل تمهيـــــدي

التجارة في الإسلام بين الأثر الديني و البعد الجغرافي و خصائص القرن الرابع الهجري(العاشر للميلاد)

2. تعريــف التجــارة
3. مكانة التجارة في الإسلام و أهمّيتها عند العرب و المسلمين
4. أثر الإسلام في انتشار التجارة الإسلامية
5. البعد الجغرافي و التـــاريخي للعلاقات التجارية بين المسلمين و الهنــــد و الصيــن
6. مستجــــدات القــرن الــرابع الهجــري (العــاشر للميلاد)

عرفت التجارة منذ عصور موغلة في القدم كوسيلة لتبادل المصالح و المنافع بين الناس، فكانت صلة الوصل بين الشعوب في الحرب والسلم. لذا، فقد نظر الإسلام إلى التجارة نظرة تشريف لأهميتها في تلاقي الأمم و تواصلها و تبادل المنافع فيما بينها، فكيف كانت حالة التجارة و أوضاعها في ظل الإسلام؟.

1. تعريف التجارة:

تعتبر التجارة وسيلة من الوسائل التي تتخذها بعض الفئات من الناس لتسهيل تبادل المنافع و المصالح فيما بينها أو بينها و بين مجتمعاتها و للحصول على أرباح من ورائها، وذلك عن طريق المقايضة بالسلع أو البيع و الشراء بالأموال. و لذلك يقول القرطبي في تعريفه للتجارة عند تفسيره الآية الكريمة: " إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ":[1] «والتجارة هي البيع والشراء»، [2] مصداقا لقوله تعالى، ويعرفها بن خلدون بقوله:« إعلم أنّ التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء»[3].

---

1 سورة النساء، الآية 29.

2 أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار التراث العربي، بيروت 1965، ج 5، ص151.

3 عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة من كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط و وضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر، بيروت1421هـ- 2001م، مج 1، ص 346..

2. مكانة التجارة في الإسلام و أهمّيتها عند العرب و المسلمين:

لو تفحصنا القرآن الكريم لوجدنا بأنّ التجارة ذكرت فــي مــواطن عديدة منه نظرا لمكانتها الرفيعة عند الله، كقوله تعالى: «إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ»،[1] بل وأكثر من ذلك ذكرت في مواضع أخرى منــه على سبيل المجاز لحث المسلمين على العمل الصالح كقوله تعالى «يا أيهــا الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب ألــــيم تؤمنون بالله و رسوله وتجاهـــدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنــتم تعلمون».[2]

و لكن بالرغم من ذلك بقيت كلمة البيع هــي الــسائدة فــي فقــه المعاملات الإسلامية القديمة، بل حتى الحديثة، نظرا لمدلولها الفقهي الواضح في التشريع الإسلامي انطلاقاً من قول الله تعالى: « وَ أَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَ حَــرَّمَ الرِبَا».[3]

و أما إذا تكلمنا عن أهميــة التجــارة و مكانتهــا عنــد العــرب والمسلمين، فقد كانت التجارة بالنسبة إليهم هي أحب الأعمال وأفضل الكسب عندهم.

فقبل مجيء الإسلام كان العرب في غالب الأحيان يعتمدون علــى التجارة كمصدر رئيسي للرزق وللكــسب الــشريف، ولــذلك يقـــــول الألوسي: «وهي ــ أي التجارة ــ أشرف الأسباب وأعلاها قدرا، ولهذا في الحديث (التَاجِرُ الصَدُوقُ مَعَ الكِرَامِ البَرَرَةِ) لاسيما سكنة الحجاز ونجد وما

---

1 سورة البقرة، الآية 282

2 سورة الصف، الآية 11

3 سورة البقرة، الآية 275

شابهها من الأقطار المقحطة).[1]

و بما أن معظم أراضيهم جدبة، كان من البديهي أن يختاروا التجارة كمصدر يدر عليهم أرباحا وافرة تعوض عنهم ما شحت عليهم أراضيهم وخاصة أن طرق التجارة العالمية حينذاك تمر عبر بلادهم.

و نظرا لشغف العرب بالتجارة وتعلُّقِهم بها، أخذت بألبابهم في جل جوانب حياتهم، وإذا ما قارناها بالحِرَف والمهن الأخرى، نجد التجارة عندهم أسمى هذه المهن وأشرف الكسب حتى أن مصيرهم كان معلقا بالآلهة التي كانوا يعبدونها لأنهم في زعمهم أن هذه الآلهة كانت تحفظ لهم تجارتهم من عواقب وتقلبات الدهر وغصصه.

و لذلك جاء في تفسير سورة قريش عند قوله تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْت الَذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»،[2] أي اعبدوا رب هذا البيت ــ مخاطبا القرشيين ــ الذي أطعمكم بالتجارة من الجوع وأمنكم بواسطة هذا البيت الآمن من الخوف، وليس بعبادتكم لتلك الأوثان التي لا تضر ولا تنفع.

فالعرب إذًا، لم يكن لهم خيار ولا حيلة سوى ممارسة التجارة، ولقد قيل: «العرب قوم تجارة وبيع وشراء».[3]

فلا بد إذًا أن تكون التجارة أول أسباب المعاش عندهم، فعكف

---

1 محمد شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب، عني بشرحه محمد بهجت الأثري، الكتب العلمية، بيروت(بدون تاريخ)، ج 3،ص 85.

2 سورة قريش، الآيتين 3.4.

3 سعيد الأفغاني: أسواق العرب، ط2، دار الفكر، دمشق، ، 1379 هجرية ــ 1960 ميلادية، ص18.

أكثرهم عليها وتمادحوا في كسب المال، وأخذوا يمشون في مناكــب الأرض يبتغون الرزق من هذه المهنة، حتى أصبحت لديهم المكانـــة المــشرفة فـــي التجارة العالمية. [1]

و لعلّ المطلع على سورة قريش يجد بأن قبيلة قريش والتي تنتمي إلى عرب الحجاز لم يكن ليصبح لها ذلك الــشأن الكبيــر لــولا الرحلتـــان التجاريتان اللتان مَــنَّ بهما الله على أهلها، لتــضرر معظمهــم مــن الفقــر والجوع.[2]

فهذا الحرص والاهتمام لم يكن ميــزة القرشــيين وحــدهم، بــل ويقاسمهم في ذلك بقية العرب، ومن سور ذلك عادة أهل المدينة، المتمثلة في طريقة ترحيبهم بقدوم القوافل التجارية، تعبيرا عن فرحتهم وســعادتهم، بهــا وذلك بضرب الدف والغناء، ولقد جاء ذلك في شــروح المفــسرين،[3] لقولــه تعالى: « وَ إِذَا رَأَوا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا.. الآية».[4]

إضافة إلى ذلك، فقد اِشْتُهِرَ عن عرب الحيــرة و البــصرة كثــرة الترحال في شتى بقاع المعمورة سعياً وراء الكسب و الثروة.[5]

ولهذا، فقد امتاز العرب عن غيرهم من الأمم بالحرص الكبير على

---

[1] سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص24. 25.

2 ذلك بأن قريشا إذا أصاب واحدا منهم مخمصة، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم الخباء فماتوا))، (أنظر أبو عبد الله القرطبي: المصدر السابق، ج20، ص 204).

3 أنظر: (أحمد المراغي،تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ج 28، ص101).

4 سورة الجمعة، الآية 11.

[5] أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبع بريل ، طبع بمدينة ليدن المحروسة1302هـــ_1885م، نشر دار الكتاب اللبناني، ص191.

التجارة، وتشجيع كبرائهم وسادتهم لها، وبالرغم من احتكار غيرهم من الأمم للتجارة، وخاصة اليهود، إذ يقول في ذلك ديورانت: « هذا إلا أن العرب لـــم يكونوا كأشراف الأوروبيين يسخرون من التجار ويزدرونهم، ولهذا لم يلبثوا أن انضـــموا إلى المسيحيين واليهود والفرس في نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما».[1]

في مقابل ذلك، نجد أنّ الأمم الشرقية خاصة الــصينيّة منهـــا[2]، كغيرها من الأمم المتحضرة العريقة على الرغم من الغنى الذي كانت تتمتع به أراضي بلادهم، كان ولعهم شديدًا بالتجارة،[3] فقد عرفت التجـــارة عنـــدهم كغيرها من المهن و الحرف كالزراعة و الحرف اليدوية و خاصّةً فـــي عهد الأسرة الصينية هان (25م – 220م)[4] تطوّراً ملموسًا نجم عنـــه شـــق الطريق التجارية البرية المعروفة بطريق الحرير، ثم ازدهرت و تطـــوّرت

---

1 ويل ديورنت: قصة الحضارة، ترجمة أحمد بدران، ط 1 دار الجيل بيروت، 1992، ج 13ـــ14، ص109.

[2] يتصل نسب الصينيين إلى عامور بن تنويل بن يافث بن نوح عليه السلام، فأول من ملك عليهم منهم هو نسطر صاس بن فاغور، و كان دار ملكه مدينة "أنموا"، و كانت مدّة ملكه ثلاثمائة سنة وفرّق أهله في تلك الديار و شق الأنهار و غرس الأشجار و استطاع أن يوفر الأمن الغذائي لشعبه (أنظر: أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول و آثار الأول في التاريخ، دراسة و تحقيق أحمد حطيط و فهمي سعد، ط1، عالـــــم الكتب 1416هـ_1992م، بيروت، مج3، ص166).

[3] بزرك بن شهريار الناخذة الرامهرمزي: عجائب الهند برها وبحرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي إصدارات المجمع الثقافي، 1421هـــ- 2000م أبو ظبي، ص110 .

[4] أسرة هان سلسلة من الأباطرة حكمت الصين مدة تزيد عن أربعمائة (400) سنة و قد أنشأ ليوبانج هذه الأسرة عام 202 ق.م و ذلك بعد سقوط أسرة شن، (أنظر الموسوعة العربية العالمية: ترجمة بتصرف عن دائرة المعارف العالمية Woorld Book Encyclopedia، مدير الترجمة و التحرير صلاح الدين الزين الطيب، النسخة الدولية1994،مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر و التوزيع ، الرياض، ، ج22، ص41).

بشكل كبير في عهد الأسـرة تـانج (617م-907م)[1] رافـق ذلـك تطـوّر المواصلات البرية و البحرية، التي تمّ بفضلها إقامة علاقـات اقتـصادية و ثقافية واسعة مع كثير من البلدان مثل اليابان و كوريا و الهند و بلاد فارس و البلاد العربية.[2] فكانت سفنهم تجوب المحيطات والبحار لِتُـزَاحِمَ سفن الإمبراطوريات العظمى فيها. كما كانت موانِئُها الزاخرة فـي القـديم مقصد و محطّ التجار الأجانب من مختلف الجنـسيات الـذين جـذبهم جـو الاستقبال الحسن و المعاملة اللائقة و العادلة الذي وفرتـه لهـم الـسلطات الصينية.[3]

لذلك، فقد أشارت العديد من القصص إلى أولئك التجار الأجانـب الذين أوغلوا في الصين، ولكن للأسف لم تذكر هذه الـسجلات شـيئًا عـن جنسيات أولئك التجار، كما اكتشفـت بعض التماثيـل الخزفية و اللوحـات الزيتية في قبور أباطرة أسرة تانج.[4]

كما أن للاتصالات الواسعة القديمة بين الأمم المنتشرة عبر الامتداد الشرقي للمحيط الهندي و المطلة عليه ميزاتها و تقاليدها الخاصة، فهي قديمة قدم التجارة المعتمدة على الرياح الموسمية، فمنذ أكثر من ألفي عـام كانـت

---

[1] أسرة تانج أو تانغ سلسلة من الحكام الذين حكموا الصين من سنة 618 إلى 907 م، و يعتبر الكثير من المؤرخين الفترة التي حكمت فيها هذه الأسرة بالعصر الذهبي في الحضارة الصينية، إذ كانت عاصمتها آنذك شنغان (زيان حاليا) أحد المراكز الثقافية العظمى في العالم. وحّد حكام تانغ الصين، و أسّسوا فيها حكومة عسكرية مركزية قوية. (أنظر الموسوعة العربية العالمية السابقة، ج6، ص38).

[2] تشين شي: الصين، ط1، دار النجم الجديد، بكين 1993، ص29.

[3] Dominique Sourdel et Janine Sourdel :La civilisation de l'islam classique, collection des grandes civilisation, Arthaud, Paris 1968. P.319

[4] ذانج هو: دراسة حول المعاملات بين الصين و العرب في العصر الوسيط، ندوة الدراسات العمانية "حصاد" ذو الحجة 1400هـ/ نوفمبر 1980م، وزارة التراث القومي و الثقافة، ج6، ص16.

السفن تحمل البضائع من جنوبي الهند إلى سومطرة[1] و جاوة[2] و بالي[3] و الصين، و كانت سفن أخرى قبل ألف و سبعمائة سنة تتتجه من سومطرة نحو إحدى الموانئ الهندية.[4]

إذًا، فقد عرفت التجارة الصينية نجاحاً لا مثيل له نظراً لجودة بضائعها التي اشتهرت بها. لكن، فلسفة التجارة خلال تلك الفترة الذهبية اقتضت أن تكون نوعية البضائع هي التي تتحكم في أسعارها و تحدّد سقف الطلب، فنرى مثلا أنّه برغم الرواج الكبير الذي حظيت به التجارة الصينية، و نظرًا لحاجة بلادهم الماسّة هي أيضا لبعض المواد و المنتوجات الضرورية، كان التجار الصينيون يحرصون كل الحرص على جلبها مهما كان ثمنها، الشيء الذي جعل بعض التجار الصينيين من كانتون[5] يدفعون مبالغ باهظة مقابل الحصول على بعض الأخشاب الثمينة ،

[1] سومطرة: تقع غربي جزيرة جاوة الأندزنيسية و هي أكبر جزيرة في أرخبيل الملايو وخامس الجزر الكبرى في العالم تقدر مساحتها بـــ 440 كيلومتر، و يمر خط لاستواء بمنتصفها تمامًا، (أنظر دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها بالعربية: أحمد الشنتاوي و إبراهيم زكي خورشيد و عبد الحميد يونس، مج12، ص390).

[2] جاوة: أهم جزر أرخبيل الملايو الأندونيسية، و تبلغ مساحتها 2390 ميلاً مربعًا و تقع شرقي سومطرة (أنظر دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، مج6، ص249،250).

[3] بالي: أشهر الجزر الأندونيسية، تقع غربي جاوة عبر مضيق ضيق يبلغ عرضه حوالي كيلومترين و نصف (أنظر: الموسوعة العربية العالمية: المرجع السابق، ج4، ص131.

[4] ريتشارد هول: إمبراطوريات الرياح الموسمية، ط1، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، أبو ظبي1999، ص49.

[5] كانتون و تسمى أيضا قوانق زهو أو قوانق تشاو، أكبر ميناء بالصين يقع على رأس قوانق دونغ عند مصب نهر كزي جيانغ، كانت مركزا تجاريا قديما كحلقة وصل مع كل من الهند والعالم الإسلامي (أنظر: A-Kondo et Kondratiev : Nouveau Larousse Encyclopédie, Larousse, Paris Cedex 06 - 2003, Vol 1, P261) .

فـــي الـــقرن الثـــامن الميـــلادي.[1]

بينما كان التجار الهنود إلى جانب التجـــار الـــروم و الفارســـيين و العراقيين و اليهود هم أنشط التجار شرقي المملكة الإســـلامية.[2] غيـــر أنّ الملاحظ بالنسبة لتجارة الهند الخارجية لم ترقى إلى مستوى نظيرتها الصينية لاعتبارات عديدة، منها كما ذكرنا آنفـــا، اهتمام الأسر الـــصينية الحاكمـــة بالتنظيم التجاري و تشجيعهم للتجارة الخارجية، و كذا امتلاكهم لأســـاطيل بحرية كبيرة و متطوّرة، و رسوخ قَدَمِ التجار الصينيين في هذه المهنـــة العريقة، عكس التجار الهنود الذين كان أغلبهم يكتفـــي بعـــرض بـــضائعهم النفيسة بأسواقهم الكبيرة التي كانت مقصد التجار الأجانب و نقاط تلاقيهم[3]، و بَعْضُهُم يفضل الخروج إلى عرض البحر في زواريق لهم يحملون معهـــم بعضًا من بضائعهم ليقايضونها بما يحتاجونه من المتاع.[4]

مـــع ذلك، هناك دراســـة تشيـــر إلى ازدهـــار تجارة الهند مـــع كل من الشـــرق و الغـــرب خـــلال القرنيـــن الثاني و الثالث قبـــل الميلاد، حيث كانت سفن جنوبي الهنـــد تمخر عبـــاب البحر إلى بلاد العرب و إلـــى الشاطئ الشـــرقي من إفريقيـــا و إلى إندونيـــسيا و جنوبي الصين. غير أنّ

---

[1] تيم سقرن: رحلة السندباد، ترجمة سامي غريز، وزارة التراث القومي و الثقافة 1405هـــ_1975م، سلطنة عمان، ص 295.

[2] آدم متز: الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، الدار التونسية للنشر، تونس 1405هـــ _ 1986م، ج2، ص797.

[3] إدوارد بروي: تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)، ط3، منشورات عويدات، بيروت 1994، مج 3، ص 190.

[4] أحمد بن إبراهيم الهمذاني: المصدر السابق، ص 12.

تجارة الهند خلال القرن الرابع الهجري (العـــاشر للميلاد)، عرفت ازدهـــارًا خاصًّا مع جارتها القديمة الصين.[1]

غير أنّه، و بعد مجيء الإسلام و تشييد صرح الحضارة الإسلامية، عرفت التجارة مُتَنَفَّسًا جديدا و تطورا منقطع النظير، في ظل تعاليم الدين الإسلامي السامية، بحيث أولى الإسلام التجارة اهتماما كبيرا وَأَفْرَدَ لها عناية خاصة، والدليل على ذلك أن الفقهاء والعلماء و منهم الأئمة الأربعة قد خصصوا لها بابا واسعا خاصا بها يشمل كل المسائل والفتاوى المتعلقة بها، سموه باب البيوع أو التجارات، بل حتى كتب الحديث، والتي فيها جميع أقوال وأفعال ومعاملات النبي صلى الله عليه وسلم، ما تفحصنا واحدا منها إلا وجدنا حظ البيوع أو التجارات فيها كبيرا، كصحيحي البخاري (في كتاب البيوع)[2] و مسلم (في باب البيوع)[3] و سنن الترمذي (في باب البيوع)[4] و النسائي (في باب التجارة)[5] وغيرهم.

و أكبر من ذلك كله نجد في القرآن ما يشير إشارة واضـــحة إلـــى

---

[1] رالف لنتون: شجرة الحضارة، تقديم محمد سويدي، "الأنيس" سلسلة العلوم الإنسانية تحت إشراف علي الكتز، موفم للنشر1990، الجزائر، ج3، ص208.

[2] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي: صحيح البخاري، ضبط و ترقيم و شرح و فهرسة و تخريج الأحاديث الدكتور مصطفى ديب البغا، نشر مشترك موفم للنشر مع دار الهدى عين مليلة، الجزائر،1992، ج2. ص 721.

[3] أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، بشرح النووي محيي بن زكريا، دار المنار للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة 1423هـ-2003م، ج10، ص 118.

[4] أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة الترميذي: سنن الترميذي، ط 1، تخريج و ضبط و ترقيم صديقي جميل العطار ، دار الفكر، بيروت 1422هـ- 2004م، ص371.

[5] أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي: سنن النسائي، شرح السيوطي، حاشية السندي، دار الكتاب العربي، بيروت، (بدون تاريخ)، مج4، ج7، ص244.

أهميـــــة التجـــــارة، شريطة أن تكون موافقة لتعاليم الإسلام، كقوله تعالى: « وَأَحَلَّ اللهُ الَبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا».[1] و يتبين من خلال هذه الآية الكريمة أن البيع في الأصل حلال وأن هناك نوعان من البيع أو التجارة: حلال و حرام.

لذلك، فالإسلام أعطى الحرية لممارسة التجارة، ولم يقيدها برسوم ولا تسعير،[2] بل قد أفتى جمهور العلماء بعدم جواز التسعير في الأقــوات أو في غيرها سواء في حالة رخص أو غلاء ، و أجازها مالك في الأقوات مـــع الغلاء.[3] لذلك، فقد جعل الإسلام التجارة حرة تعتمد على العرض والطلــب، ولكنه في نفس الوقت أوصـــد الأبــواب فـــي وجــوه الــذين يريــدون أن يستغـــــلوا هـــــذه المهنـــة الــشريفة لــصرفـــــها عــــن وجهتـــــها الصحيحة، وقطع الطريق أمام كل من سَوَّلَتْ له نفــسه أن يَبْنِـــيَ أو يُنَمِّـــيَ ثَروتَـــهُ على رقـــــاب الضعــفـــــاء وعـــــلى حســـــاب الفقـــــراء، فحـــرم كـــل أشـــكال وطـــرق البـــيع غير السليمة التي تضر بـــالمجتمع و تمس حقـــوق البسطـــاء وحـــرم مثلا: الربا،[4] الاحتكـــار،[5] الغـــش،[6] بيـــع

1 سورة البقرة، الآية 275.

2 المجيلدي: كتاب أحكام التسعير، تحقيق موسى لقبال، ط 2، الشركة الوطنية للكتاب،الجزائر 1970، ص 44.

3 أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب البصري البغدادي الماوردي: الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، ط2، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابلي الحلبي و أولاده بمصر 1386هـ–1966م، ص256.

4 الربا: بمعنى الزيادة،(أنظر تفسير الآية 275 من سورة البقرة، أبو عبد الله القرطبي: المـــصدر الـــسابق ص 151).

5 الاحتكار: هو ادخار الطعام واحتباسه انتظارا لوقت الغداء (أنظر: أبو الفضل جمال الدين محمـــد بـــن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، ط2، دار صادر بيروت 2004، ج4، ص 184).

6 الغش: هو التدليس مع إبداء المحاسن وإخفاء العيوب (أنظر: جمال الدين محمد بن منظور، المصدر نفسه، ج11، ص52).

الغــرر،[1] النجــش، [2] و غيــرها من البيــوع المحــرمة.

كمــا حث الإســلام التجــار على الالتــزام بالصــدق والأمــانة والوفاء عنــد الاتجــار، وَاضِعًــا نَصْبَ أعينــهم حديــث النبي صــلى الله عليه وسلم « البَيِّعَــانِ بِالخَيــَار مَا لَمْ يَتَفَــرَّقَــا، فَــإِنْ صَدَقَــا وَ بَيَّــنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذِبَــا وَ كَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَــةُ بَيْعِهِــمَا».[3]

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مــثلا يُقْتَــدَى بــه فــي الاتجار، كيف لا وهو التاجر الأمين الذي مارس التجارة منذ نعومة أظفــاره وأداها أحسن الأداء، فشجع المسلمين على ممارستها، وهو الذي قال لما سئل أي الكسب أطيب، قال: « عَمَلُ الرَجُلِ بِيَدِهِ وكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ».[4]

و لذلك، فقد تمّ وصف ممارسة النبي صلى الله عليه وسلم للتجارة وصفًا بديعًا: « وكان صلى الله عليه وسلم برهة من الدهر تاجرا، وشخــصا مسافرا، وباع واشترى حاضرا، ولاشتهار أمره في ذلك، قــال المــشركون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فأوحى الله تعــالى إلــيهم: « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليــأكلون الطعــام ويمــشون فــي الأسواق...الآية»،[5] فأخبــر جلا اسمه أن الأنبيــاء قبلــه قد كــــانت لهــم

---

1 نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الغرر كبيع السمك في الماء (أنظر جمال الدين محمد بــن منظــور نفسه، ج11، ص30)

2 النجش: هو الزيادة في السلعة لمن يريد شراءها ليقع غيره فيها (أنظر بن حجر العسقلاني: فتح البــاري، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1406 هجرية، ج 4، ص 282).

3 رواه البخاري، (أنظر إسماعيل البخاري: المصدر السابق، ج2، ص 736).

4 رواه البزار وصححه الحاكم (أنظر محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني: سبل الــسلام، دار الجيــل، بيروت، بدون تاريخ، ج 3، ص788).

5 سورة الفرقان، الآية 20.

تجـــارات وصنـــاعات».[1]

كما كان الخلفاء الراشدون أمثال أبي بكر[2] و عمر[3] تجارا، وكثيرا من السلف الصالح تجّارًا ، فكان يقول بعضهم: « الأسواق موائـــد الله فـــي أرضه فمن أتاها أصاب منها».[4]

3. أثر الإسلام في انتشار التجارة الإسلامية:

انطلاقا من تلك التعاليم الربانية والتوجيهات والمحفزات النبويـــة، اندفع التجار المسلمون بتجارتهم التي تحمل مبادئ دينهم السمحة، مختـــرقين الآفاق، بأخلاقهم الفاضلة، يجوبون الأقطار والأصقاع يبيعون و يبتعون مـــع التجار والأهالي، دون زيغ أو انحراف عن هذه التوجيهات بل أكثر من ذلك صارت لديهم تلك التجارة وسيلة من وسائل الدعوة إلى الـــدين الإســـلامي، شعارهم في ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم « رحم الله رجلا ســـمحا إذا باع سمحا إذا اشترى وإذا اقتضى». [5]

كذلك كان المسلمون الذين كانوا يترددون بتجـــارتهم علـــى الهنـــد و الصين، بحيث أعجب بهم الناس بأخلاقهم ومعاملاتهم الـــصادقة الطيبـــة، فاحتضنوا دينهم وتجارتهم، ولعل ذلك كان أكبر نجاح حققوه بتلك المنطقة.[6]

---

1 أبو منصور عبد المللك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي: اللطائف و المعارف، دار المناهل للطباعة والنـــشر، ط1، بيروت، 1416 هـــ ـــ 1960م،ص 80.

2 بن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ص 242.

3 أبو منصور الثعالبي: المصدر السابق، ص 81.

4 نفسه ، ص 81

5 رواه البخاري، (أنظر إسماعيل البخاري: المصدر السابق، ج2، ص 730).

6 مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الرابع، ص 96.

وكأن شعوب تلك المنطقة و على وجه الخصوص الهنـد، كانت تنتظر اليـد التي تنتشلها من تلك المحن والفوضى والفتن التي كانت غارقة فيهـا، حتـى ظهر الإسلام على أيدي أولئك المسلمين فوجه تلك الشعوب الهائمـة علـى وجوهها وجهة صالحة، [1] فأنقذهم من تلك الحروب الأهلية المـدمرة التـي كادت أن تأتي على دعائمها وتقضي على حضارتها.[2]

فمن الطبيعي إذًا، أن يحاول التاجر العربي المسلم التحدّث عن دينه الإسلامي و دعوة أصدقائه و معارفه في موانئ الهند و مراكزها التجاريـة التي يرتادها لأغراض تجارية، بل و يحاول نشرها بين أهل الهند الذين يشهد لهم بالنزعة الدينية و حبّهم للعرب.[3]

و هكذا فتحت صفحة جديدة من التاريخ الحضاري و الاقتـصادي بعد أن انطلقت جحافل العرب المسلمين التي تحدوها قوّة عارمة و يـدعّمها تنظيم بارع بثّـهما الرسول صلّـى الله عليه و سلّم في صـفوفها، فـسيطر على الشّرق و الجنوب والغرب وخرج ذلك العالم القديم من بوتقته الثقافيـة السابقة، حيث أوغل التجار العرب المسلمون في الشرق الأقصى المترامـي الأطراف إيغالاً شارف فيه الصين و الهند.[4]

---

1 دتلف نلسن وأصحابه:التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1958 م، ص 114.

2) محمد إسماعيل الندوي:تاريخ العلاقات بين الهند والبلاد العربية، ط 2 دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص5.

3 ويل ديورانت: المرجع السابق، مج 2، ج 3،4، ص126.

4) زغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، و كمال الدسوقي، مراجعة مارون عيسى الخوري، ط6، دار صابر بيروت 2000م، ص 25.

ثم يأتي الفتح الإسلامي لهذه المنطقة بعد ذلك كبشرى زفت إليها وإلى أهاليها، ابتداء من فتح السند في العهد الأموي، إلى الفتح الأعظم في أواخر القرن الرابع الهجري على يد القائد الفاتح (محمد بن سبكتكين)، والذي أرسى لأول مرة دعائم الخلافة الإسلامية بالهند.[1]

و بالتالي، فإنّ هذا الفتح لم يكن عملا عسكريا مجردا كما يظن البعض، ولكنه كان فتحا حضاريا،[2] بل إن جهود الدعاة المسلمين وخاصة التجار ساهمت في تحويل الملايين من الهنود إلى الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة و التعليم و الإقناع.[3]

ولهذا لم يكن لتلك المبادئ السامية التي حملها التجار المسلمون المتجسدة في أخلاقهم ومعاملاتهم الطيبة أثرا بالغا في كسب قلوب الشعوب فحسب، بل كان لها أثر بارز في كسب مودة وتأييد بعض الحكام لهم، ولعل ما ذكره البلاذري عن ذلك الملك الذي اعتنق الإسلام على أيدي أولئك التجار المسلمين لأقوى دليل على ذلك.[4]

كذلك الأمر بالنسبة للصين، فإن معظم التجار المسلمين الوافدين إليها كان مرده حسب ما أشارات إليه بعض الدراسات الصينية إلى ضرورة دينية.[5]

---

1 ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ، ج 7 ص 87.

2 توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد الحميد عابدين، و إسماعيل الخراوي، ط 4، مكتبة النهضة، القاهرة 1971 م، ص 285.

3 توماس أرنولد: المرجع نفسه، ص 265.

4 أبو الحسن البلاذري: فتوح البلدان، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى 1350هـ-1932م، ص433.

5 ذانج هو: المرجع السابق، ج6، ص20.

4. البعد الجغرافي و التـــــاريخي للعلاقات التجارية بين المسلمين و الهند و الصين:

يعتبر الموقع الجغرافي للبلاد العربية الإسلامية، وبـــلادي الهنـــد و الصين ذا أهمية بالغة، حيث كان له الدور التاريخي في نـــشأة العلاقـــات الاقتصادية بينهما، وهو، فضلا عن ذلك، كان عاملا رئيـــسيا فـــي ازدهـــار الحركة التجارية بصورة مكثفة ودائمة بينهما منذ القدم، كما كان انسجام ذلك الموقع في امتداده عبر المناطق الثلاثة في محيط واحد هو المحـــيط الهنـــدي عاملا جامعا لشعوب تلك المناطق وسبيلا من سبل التواصل والاتصال بينها.
فأهمية الهند و الصين تكمن في كونهما تتمتعان بموقع استراتيجي هـــام ذي بعد اقتصادي، إذ تحتلاّن جل الشريط الساحلي الجنـــوبي للقـــارة الآســـيوية، و تتربعان على الجزء الأكبر من الكتلة المكوّنة لما يـــسمّى اليـــوم بالـــشرق الأقصى، [1] فضلاً عن إنتـــاجهما الغـــني بمـــواد التـــرف و الكماليات التي تزخران به.[2]

تقع الهند في جنوب القارة الآسيوية، و تشكّل شبه قارة مستقلّة، بل شبه جزيرة، بين بحر العرب غرباً و خليج البنغـــال شـــرقاً، و كلاهمـــا متفرعان عن المحيط الهندي و تنتهي جنوباً عند رأس كمرون، و بمـــضيق بلك الذي يفصلها عن سيريلانكا، يحدّها شمالاً النيبال و التبـــت، و كـــشمير، و باكستان، سيريلانكا، تتبع الهند كلّ من جزر لكاديف، و مينيكوى، و أندمان

---

1 مصطلح جغرافي سياسي يطلق على جنوب شرق آسيا ويشمل قديما السند والهند والصين أمـــا حاليـــا فيشمل كل من الصين واليابان وكوريا و الفيتنام و لاووس وكمبوديا و تيلاندا وبورما والملايو و أندنيسيا و الفليبين والهند، (أنظر الكيلاني: موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية لدراســـات النـــشر، بـــيروت 1993م، ج 3، ص 454).

2 زغريد هونكه: المرجع السابق، ص 22- 23.

و نيوكوبار في خليج البنغال.

أرض الهند عبارة عن سهـــل رسوبي واســـع في حوض الـــغانج والهندوس يمتد في باكستان فـــاصلاً جبـــال الهمالايا عن هضاب جزيـــرة الدكن، ثمّة جبـــال و تلال مشرفة على ساحل مالابار بجهة الغرب، و على ساحل كرومانـــــدل بجهة الشرق، و في الشمال هناك سهول البنجاب، و في الغرب صحراء ثارا، و في الشمال الشرقي برهما بترا، و أعلى قمم جبال الهند واقعة في جبال الهمالايا التي تفصلها عن النيبال و التيبت، و أشهرها قمّة كنشجونغا 8585 م، و أشهر أنهار الهند نهر الغانج، و الهندوس، و براهما بترا، و غـــوافـــاري، و كستا. أمّا مناخ الهند حار استوائي بالجنـــوب، معتـــدل فـــي الشمـــال[1].

بينما تقع الصين في نصف الكرة الأرضية الشمالي، كل أراضيها بما فيها البحار و الجزر شمال خط الاستواء ، حيث تمتد حدود الصين التي يتجاوز طولها العشرين ألف كيلومتر تمتد شرقاً من مصب نهر "بالو" الواقع على الحدود بين الصين و كوريا، ثم تتاخم كوريـــا و روســـيا و منغوليـــا و قازاقستان و قرغيستان و طاجيكستان و أفغانستـــــان و باكستان و الهند و النيبال و سيكيم و بوتان و ميانمار و لاوس و فيتنام و غيرها من خمسة عشرة دولة. و يبلغ طول سواحلها حوالي ثمانية عشرة ألف كيلو متر مـــن مصب نهر "بالو" شمالاً إلى مصب نهر "بيلون" الواقع في الحدود بين الصين و الفيتنام جنوباً ، تبرز نحو البحار بشكل هلال، و أراضي سواحلها منبسطة و على هذه السواحل موانئ كثيرة هامّة، و يحيط بالبر الصيني بحر بوهـــاي الداخلي و البحر الأصفر و بحر الصين الشرقي و بحر الصين الجنوبي في

---

1 يحيى شامي: موسوعة المدن الإسلامية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت 1993، ص 347.

الشرق و الجنوب، المتصلة بالمحيط الهادي، و تتناثر في منــاطق بحريــة تابعة للصين أزيد من ستة آلاف جزيرة أكبرها تايوان[1].

غير أنّه، لابد من التمييز بين الصين الأصلية و الصين الحاليــة، فلقد فصل سور الصين العظيم، الذي يزيد عمره عن ألفي سنة، بين أراضي الصين الأصلية، حيث العمارة و الأراضي الخصبة الزراعيــة و الــسلالة الصينية العريقة، و بين الأراضي شبه الجافة في شماله حيث تعيش شــعوب غير صينية قليلة العدد التي تعتمد على الرعي المتجوّل.[2]

أمّا عن الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي، فإنّه و لا شك ذا أهمّيــة بالغة، لتوسطه و امتداد رقعته في القارات الثلاث من المحيط الأطلسي حتى مشارف الهند و الصين و المتوسط و قزوين حتى المحيط الهنــدي، حيــث يسيطر على أكبر مجالين اقتصاديين في الشرق الأدنى و البحــر المتوســط و يربط بينهما،[3] مما أهلها للتحكم أكثر في التجارة الإقليميــة و العالميــة، فكانت آثار ذلك واضحة في كل من الهند و الصين و جــزر جــاوة و مــا جاورها و سواحل إفريقيا الشرقية بما في ذلك الحبشة و أواســط إفريقيــا و كذا أوروبا.[4]

و عبر بلاد الإسلام كانت تمر كبريات الطرق البريــة و البحريــة

---

1 تشين بينغ: جغرافية الصين، ترجمة فريدة وانغ فو، دار النشر الصينبة عبر القارات أكتــوبر 1999، ص8 فما بعدها.

[2] جودة حسنين جودة: جغرافية العالم القديم الإقلبمبة، ط1، منشأة المعارف بالإسكندرية 1998، ص696.

3 أندري ميكيل: الإسلام و حضارته، ترجمة زينب عبد العزيز، مراجعة كمال الدين الحناوي منــشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ص170.

[4] أنور الرفاعي: النظم الإسلامية ، دار الفكر المعاصر، بيروت 1998، ص264.

التي كانت تجمع أجزاء عالم العصر الوسيط، و فيها كانت تتلاقـــى أوروبـــا و آسيا و إفريقيا عند ملتقى طرقاتها.

و كـــان من شـــأن هذا الوضع الجغرافـــي المتميـــّـز أن يعطـــي للتجارة الإسلاميـــة أهمّية كبـــرى، حيث كـــــانت تتـــردّد علـــى طـــريقين رئيســـيين الطريـــق البرّي المـــسمّى " طريـــــق الحريـــر "، و الطريـــــق البحـــري الـــذي كـــان يسمّـــى طريـــق الهنـــد.[1]

و لقـــد ســـاهم هذا التقارب الجغرافي بين العـــــالم الإســـــلامي و منطقتي الهند و الصيـــن في تثميـــن العلاقـــات بينمـــا و مـــد الـــصلـــة بين الشعبيـــن منـــذ القدم و تكثيـــف التبـــادلات في شتـــــى المجـــــالات و على وجـــه الخصـــوص في المجـــال لاقتصـــادي.

حيث تعود هذه العلاقات إلى فترة عرفت فيها بلاد الرافدين أعظم و أرقى الحضارات في تاريخ البشرية، و لقد جرى أول اتصال بـــين الهنـــد و بلاد الرافدين في العهد السوماري،[2] حيث شهدت فيه هذه الأخيـــرة تقـــدما كبيرا في عدّة مجالات وخاصة في المجالين:الاقتصادي والعمراني، فـــازدهر التبادل التجاري بينهما ازدهارا كبيرا، وقد تطور ذلك إلى تبادل في الخبرات والتجارب وخاصة في ميدان الصناعات والحرف.[3]

---

1 جاك رسلر: الحضارة العربية، ط1، تعريب الدكتور خليل أحمد خليل سلسلة عام 2000 بـــيروت 1993 ص 133.

2 تعتبر الحضارة السومارية هي الأولى في العالم بدأت عام 3500 ق.م و استمرت حتّى عام 300 ق.م في موضع يقال له "سومر" و هو إقليم قديم يقع في بلاد ما بين النهرين جنوب شرق العراق حاليًا (أنظر الموسوعة العربية العالمية: المرجع السابق، ج13، ص253).

3 إسماعيل الندوي: المرجع السابق ، ص 5 وما بعدها.

ثم استمر هذا الاتصال حتى عهد اللخميين[1] في الحيرة، حيث عرف النشاط التجاري العربي انتعاشا كبيرا، وكانت الحيرة لقربها من نهر الفــرات حافزا مهما لاشتغال أهلها بالتجارة فساعدتهم هذه القناة النهرية على الاتصال ببحر العجم (الخليج العربي حاليا) ثم بحر الهنــــد (المحيط الهندي حاليا) للمتاجرة مع الهنود والصينيين، ومن الحيرة أيضا، كانت القوافل تحمل تجارة الهنــد والصيــن.[2]

فبين انحطاط التجارة اليونانية والرومانية في القرن الثالث للمــيلاد وبين ظهور الإسلام في القرن السابع للميلاد، عرفت منطقــة واد الرافــدين تطورات هامة، حيث قامت الدولة الساسانية، [3] واتخذت كتيسيفون (المدائن) عاصمة لها، وهي التي ظلت مستودع التجارة الشرقية إلى ظهور الإسلام.[4]

و كان الفرس قبل الإسلام أصحاب المقام الأول في النشاط التجاري في المنطقة الممتدة من بحر العرب إلى بحر الهند، وكانت سفنهم تتردد كثيرا على المــوانئ الهنديــة، فكــانوا بذلك هــم الوسطاء في تجــارة الحريــر

---

1 اللخميون: ينتسبون إلى لخم وهو مالك بن عدي الذي يتصل نسبه إلى كهلان بن سبأ ، و هم من العرب القحطانيين باليمن الذين نزلوا بالحيرة و ملكوا فيها فيما بعد ، مع العلم بأن المناذرة الذين ملكوا الحيرة بعدهم ينتسبون إليهم أيضًا ، (أنظر أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، سلسلة ذخائر العرب، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط2، دار المعارف بمصر، 1391هـــ-1971م، ص 484-488).

2 نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، المطبعة الجديدة، دمشق (1395 هـــ ـــ 1396 هـــ) (1975 م ـــ 1976م)، ص 190.

3 الساسانيون: أسرة ملكية حطمت بلاد فارس مـــن ســـنة 226م إلى 651 م، (أنــــظر دائـــرة المعـــارف الإسلاميــــة، المرجع السابق، ج11، ص47).

4 السيد مقبول: العلاقات العربية الهندية، ترجمة نقولا زيادة، الدارالمتحدة للطباعة والنـــشر، 1974م، ص 119.

بين الصيـــن و العـــرب.[1]

أمّـــا عن علاقات الصين بالعـــرب كمـــا جـــــاء فـــي بعــــض الدراسات التاريخيـــة الصينيـــة: « فهـــي ســـابقة على ظــهور الإســـلام، وأنّ الإمبـــراطــور"وودي"[2] بعـــث سنة 139 قبــــل الميـــــلاد "تــشـــانغ تشيـــان" سفيـــراً له إلى الممـــالك في آسيـــا الوسطـــى، لإقـــــامة روابـــط وديـــة معها زار في سفـــرته 36 مملكـــة صغيـــرة في المنطقـــة شملــــت بــــلاد الفـــرس و العـــرب»[3].

و في مناسبة أخرى، حلّ بفارس و العراق مبعوث آخر عن القائــد الصيني "بان تـــشا و" و هو في طريقه إلى الغرب، و نظرا لعـــدم إمكانـــه مواصلة رحلته لشدّة العواصف الأمواج، نزل ضيفا عند العرب فعاد بأخبـــار وافرة عن العالم العربي.

و لقد فتحت هاتـــان الرحلتان الطريق البري للـــسفر فيمـــا بـــين الصيـــن و البلاد العربية غرب آسيا.[4]

واستمرت هذه العلاقـــات إلى العهـــد الإســـلامي، حيث عــــرف أوّل اتصـــال رسمي بيـــن المسلميـــن و الصينييـــن في فترة حكـــم أســـرة

---

1 السيد مقبول: المرجع السابق، ص 119.

2 و هو أحد الملوك البارزين أسرة هان في الصين الذي عمل على توسيـــع أراضي الإمبراطرية ،(أنظـــر: Denys Lombard: La Chine impériale, presse universitaire de France Paris 1967, p57).

3 فهمي هويدي: الإسلام في الصين، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الـــوطني للثقافـــة و الفنـــون و الأدب، الكويت 1401هـــ-1981م، ص 40.

4 فهمي هويدي، المرجع السابق، ص 40.

"تانغ" التي تميزت بتبادل البعثات الدبلوماسية و تكثيف المبادلات التجارية بينهما، حيث بلغ عدد التجار المسلمين في الصين حينها عشرات الآلاف.[1]

ثم توطدت تلك العلاقات في عهد الإمبراطور"تاوتسنغ"عام 651م (30-31هـ)، حيث يروى بأن الخليفة عثمان بن عفان بعث في نفس السنة أوّل مندوب له إلى الصين حيث التقى بذاك الإمبراطور .[2] و قد كان الصينيون كذلك يطلقون إسم "دا – شي" على كل خليفة عربي.[3]

و قد ضلّ مؤشّر العلاقات العربية الصينية في تصاعد مستمر حتىّ بلغ ذروته عام 1168م خلال فترة أسرة "سونغ"، حيث عرفت التجارة نماءً و رواجاً كبيرين بين المسلمين و الصينيين، و على إثر ذلك، اتخذت أسرة "سونغ"[4] عدّة إجراءات لتوسيع نطاق التجارة الخارجية فأنشأت دائرة للتجارة و الملاحة في مدنها الكبيرة، مثل: كانتون و خانقو و تسينون (تشيوانتشو)، كما أنشئت دوائر أخرى في عدد آخر من المدن التجارية الساحلية و الحدودية، و شرعت حكومة "سونغ" في توثيق العلاقات مع التجار العرب المسلمين، فأوفدت مبعوثين بالهدايا إلى بلاد فارس و العرب، الأمر الذي

---

[1] ذانج هو: المرجع السابق، ج 6، ص 14.

2 فهمي هويدي: المرجع السابق، ص42-43،

[3] ذانج هو: المرجع السابق، ج 6، ص 14.

[4] سونغ أو سونج إحدى الأسر الصينية التي حكمت الصين من عام 960 إلى غاية سنة 1289م، قام الصينيون خلال هذه الحقبة بأعمال توسعة عمرانية و تجارية مهمة حيث وصلت الزراعة و صناعة الخزف و طباعة الكتب و الفلسفة عندهم إلى ذروتها، و أوّل مؤسس لهذه الأسرة و أوّل أباطرتها "تشاوكوانغين، (أنظر الموسوعة العربية العالمية السابقة، ج13، ص264).

شجّع كثيرين من هؤلاء التجار على القدوم إلى الصين.[1]

و تشجيعًا للتجارة الخارجية كذلك، سنــّت الحكومة الصينية قانوناً يعاقب كلّ من يسيء إلى التجار الأجانب، و يقضي بعزل الموظفين الصينيين المختصين من مناصبهم و تأديبهم إذا صدرت عنهم تجاوزات، كتلك العقوبة التي سلطت على أحد موظفي الحكومة نتيجة تعدّيه على تاجر خراساني.[2]

لقد ساهمت هذه القوانين في توافد التجار العرب المسلمين على الصين، حيث شكّلوا أكبر جالية في هذا البلد المضياف،[3] فتمركزوا في عدد من مدنها الكبيرة أمثال: كانتون (خانقو)، تسيتون (مدينة الزيتون - تشيوانتشو)، حتّى بلغت أعدادهم عشرة (10) آلاف في كلٍّ من هذه المدن خلال القرن العاشر(10) الميلادي(الرابع الهجري)، حيث ساهم أثرياء العرب بقسط كبير من أموالهم لتعمير بعض المدن مثل تسيتون الذين بنوا أكبر مسجد به.[4]

كما ساهم الاستتباب الأمني في الصين في استقرار عدد معتبر من المسلمين بها، فقد أشار المروزي من قبل إلى لجوء بعض الشيعة من الطائفة العلوية و هم من العرب الهاربين من خراسان بسبب بطش الحكم الأموي، إلى بلاد الصين قبل منتصف القرن الثاني الهجري، حيث كانوا يعملون

1 ذانج هو ، المرجع السابق، ص52-53.

2 أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب و معادن الذهب و الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، ط 2، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1407هـ - 1987م، ج1، ص140 و ما بعدها.

3 Dominique Sourdel et Janine Sourdel :La civilisation de l'islam classique, collection des grandes civilisation, Arthaud, Paris 1968. P.319

4 فهمي هويدي: المرجع السابق، ص53-54.

كوسطاء تجاريين بين الصين و الأجانب.[1]

و من جانب آخر، فقد عرفت العلاقات التجارية بين الهند و العــالم العربي الإسلامي انتعاشاً و تطوراً كبيرين منذ ظهور الإســلام فــي القــرن السابع الميلادي حتــّى القرن الرابع عشر الميلادي، و يمكن أن نسمــّي هذه الفترة بالعصر الذهبي لهذه العلاقات.[2]

و لقد ساهم في تطوير هذه العلاقات و تمتينها استقرار عــدد مــن الجاليات الهندية في الأراضي العربية، حيث كان العديد من الهنود المهاجرين يقيمون في القرى و المدن، و كانوا يشتغلون في شتــّى الحرف و المهن، بل و يشاركون العرب في حياتهم و تجارتهم، و فضل بعضهم إضــفاء الطــابع العربي عليهم، حتــّى أصبحوا جزءً من المجتمع العربي،[3] و كانوا يــسمَّون بمتــسميات مختلفــة، منهــا: « الــزط، الميــد، الأســاورة، الأحــامرة و البياســرة».[4]

و لقد أدّى هذا لتلاحم العربي الهندي إلى تسرب العديد من الكلمات الهندية إلى اللّغة العربية و خاصّةً في أمور الصناعة و التجارة. [5]

1شرف الزمان المروزي: أبواب الصين و الهنـــد، Arabica texte (circa A.D.M 120) with an English translation and commentray BY / V. Minorsky, The Royal Asiatic Society, Rovenor, street, London.، ص5.

2 السيد مقبول: المرجع السابق، ص119.

3 المبارك فوري: العرب و الهند في عهد الرسالة، ترجمة إبراهيم عزّت عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1973م، ص15 و ما بعدها.

4 نفسه، ص45 و ما بعدها.

5 إسماعيل الندوي: المرجع السابق، ص32 و ما بعدها

و في مقابل ذلك استقرت جاليات عربية في عدّة مناطق من الهند، بل و أثبتوا جدارتهم و استحقاقهم في تولّي مناصب هامّة تعدّتها إلى اعتلاء عرش بعض الممالك بها.[1]

و هكذا، فقد أصبحت الهند مقصد التجار العرب والمسلمين، نظراً لما وجدوه من الكرم وحسن الضيافة من طرف العديد من ملوكها، حتّى أنّ بعضهم يفضل تقدّيم أنياب الفيلة كهدايا لهم.[2]

غير أنّ هناك عامل مهم ساهم هو أيضاً في ترقية العلاقات بين العالم الإسلامي و منطقة الشرق الأقصى و دفع التبادل التجاري بينهما إلى الأمام، و هو عندما أنشئت مدينة بغداد على يد الخليفة العباسي " أبو جعفر المنصور"[3] و التي كان بناؤها حدثاً تاريخياً هامـًّا، حيث أنّه و للمرة الأولى تصبح عاصمة لدولة عربية إسلامية على اتصال مباشرة ببحر العرب وبحر العجم عبر نظام مائي يعتمد على نهري دجلة و الفرات اللّذان يصبّان في بحر العجم (الخليج العربي)،[4] و لم يخيِّب أبو جعفر المنصور حينما أخذ بمشورة البطارقة في اختيار موقع لبناء عاصمته الجديدة، حيث قالوا تلك المقولة التاريخية:«تجيئك الميرة في السفن من الشام و الرقة و مصر

---

1 أبو الحسن المسعودي: نفسه، ص 99.

2 شرف الزمان المروزي: المصدر السابق، ص 39.

3 هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أبو جعفر المنصور، و أمه سلامة ابنة بشير من الي هي من مواليد البصرة، ونظرًا لتقلده عدة مناصب هامة في الدولة اكتسب على إثرها تجربة كبيرة في السياسة و الإدارة و شؤون الدولة و العسكر إضافة إلى قوة شخصيته و صلب مزاجه أهلته حينما تولى الخلافة لتسيير شؤون الدولة بكل حزم و صرامة و عن جدارة و لم تثنه العقبات و لا الأزمات عن ذلك، كانت وفاته سنة 158 هجرية، (أنظر أبو الحسن المسعودي: التنبيه و الإشراف، بإشراف لجنة تحقيق التراث، دار مكتبة الهلال، بيروت 1993 ص311).

4 حسن مقبول: المرجع السابق، ص121.

و المغرب إلى المِصْرَات، و من الصين و الهند و البــصرة و ديــار بكــر و الروم و الموصل في دجلة»[1].

5. مستجدات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي):

تميّز القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بحدوث تحوّل هــام في العالم العربي الإسلامي، و خاصّة في المجالات السياسية و الاجتماعيــة والاقتصادية.

فمن الناحية السياسية، شهدت البلاد الإسلامية انقسامات و تصدّعات بسبب ضعف الخلافة العبّاسية من جهة، و بسبب ظهور ولاءات و قوميــات جديدة، ممّــا أدّى إلى إعادة تشكيل خريطة جديدة لفسيفساء سياسية جديدة. بالنسبة للمشرق الإسلامي الذي يضم عاصمة الخلافة العبّاســية، فقــد كــان التنافس شديداً بين عدد من الأسر الفارسية و التركية، على تقاســم أراضــي الخلافة المترامية الأطراف، مستغلّين في ذلك ضعف الدولة المركزية الــذي دبّ في أركانها، و أضحى يهدد كيانها و وجودها، بسبب خيانة بعض أفرادها و تمرّدهم من جهة،[2] و فساد بعضهم الآخر من جهة أخــرى،[3] و تنافــسهم وتناحرهم على الحكم،[4] ضف إلى ذلك انتشار الفوضــى و الفــتن الداخليــة

---

1 عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ، ضبط و وضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار ِ، دار الفكر، بيروت1421هــ- 2001م، ، مج 3، ص 247.

2 ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، مراجعة و تقديم و إعداد الفهارس: نواف الجراح، ط1، دار صادر، بيروت 1424هــ-2003م، مج 6، ص 2192-2194.

3 أحمد بن محمد مسكويه: تجارب الأمم، عني بنسخه و تصحيحه: هــ.ف. آمدروز بمطبعته بشركة التمدّن الصناعية بمصر المحمية سنة 1332هــ 1914م، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ج1، 120.

4 أبو الفدا الحافظ بن كثير البداية و النهاية، مكتبة المعارف، بيروت 1408هــ - 1988م، ج11، 169 و ما بعدها.

و استفحالهما في ربوع الدولة، و من أشدِّ هذه الفتن ضراوةً فتنة القرامطـــة[1] سنة 319هــ و استيلائهم على الحجر الأسود بمكة التي قد عاثوا فيها فساداً، و سفكوا دماء حجّاج بيت الله الحرام يوم التروية من موسم الحج.[2]

و لقد نجم عن هذا الوضع المتدهور استيلاء البويهيين على عاصمة الخلافة العباّسية " بغداد " و خلع المستكفي بالله،[3] و تنصيبهم للمطيع بالله بن المقتدر بالله خلفًا له، و لكن كان تنصيبه هذا شكلياً فقط، أمّا شــؤون الحكــم كانت بأيديهم.[4]

و في مقابل ذلك، عرف الجناح الغربي من العالم الإسلامي نوعًـــا من عدم الاستقرار، فقد شهدت مصر آخر أيّام الطولونيين اضطرابات وفتن ساعد على نشرها مقدم الفاطميين الزّاحفين من المغرب الإسلامي الذي كان

[1] القرامطة هي إحدى الفرق التي ظهرت في سواد الكوفة تنسب إلى رجل جاء من ناحية خوزستان يدعى "كرميته" و هو بالنبطية أحمر العينين لحمرة كانت في عينيه، ثم خففت هذه الكلمة فصارت قرمط، نزل بسواد الكوفة و أقام بموضع فيها يسمى النهرين و كان يدعي الزهد و التقشف و كثرة الصلاة و الصيام، و كان يعظ و يذكر الناس بالآخرة، و يدعوهم إلى إمامة أهل بيت الرسول، و كان يقول لهم بأن الله افترض عليكم خمسين صلاة و أظهر لهم دينًا جديدًا، و كان يرى السيف في أمّة محمد، فأجابوه لذلك، فذاع صيته بين الناس، حتى شغلهم عن أعمالهم، فغضب أحد الملاك فحبسه في داره، إلاّ أنّ بعض الجواري رق له قلبها فتحت له الباب و تركته يهرب، و لما جاء الذي حبسه لم يجده، فأثيرت حول تلك الحادثة إشاعة بأنّه اختفى و نسج حوله قصصًا من الخيال حول اختفائه حتى خاف صاحب الدار من نفسه، فمن هناك بدأ انتشار حركته (أنظر: بن جرير الطبري: المصدر السابق، مج 6، ص 2144، 2145).

[2] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج 3 ص472.

[3] المستكفي بالله هو عبد الله أبو القاسم بن المكتفي بويع له بالخلافة يوم خلع ابن عمه المتقي لله، و في أيامه قدم معز الدولة بن بويه بغداد فخلع عليه الخليفة و فوض إليه الأمور و ضرب السكة باسمه و أمر أن يُخطَب له في المنابر، (أنظر أحمد بن يوسف القرماني: المصدر السابق، ص 150).

[4] الحافظ ابن كثير: المرجع السابق، ص212.

بمثابة خزّانٍ بشري لهم، لينتهي الأمر باستيلائهم على مــصر. و بعــد أن استقر الأمر للمعز لدين الله الفاطمي سنة 362هــ ابتنـــى القـــاهرة عاصـــمة مصر الجديدة،[1] ليبدأ عهد جديد للخلافة الفاطمية. ثمّ امتد سلطانه إلى الــشام بعد أن انتزع دمشق من القرامطة سنة 363 هــ.[2] و لن يلبث أن يصل إلى بغداد نفسها.

و من الناحية الاجتماعية، فقد تضرّرت شريحة معتبرة من المجتمع الإسلامي جراء هذه الانقسامات و النزاعات السياسية والعسكرية التي عــادةً ما تخلِّــف أوبئةً و أمراضاً و ضحايا،[3] و مشاكل اجتماعيةٍ أخرى كـــالفقــر و الجوع و غلاء الأسعار.[4]

بينما كانت شريحة أخرى من المجتمع الإسلامي و خاصّةً القريبة منها إلى قصور الملوك و الأمراء، تعيش حياة الترف و البذخ، حتّى أنّ الوزير الخاقاني[5] عزل من منصبه من طرف المقتدر بالله بسبب مبالغته في زيادة النفقة على الجند و الحاشية على حساب الرعية، فقام باستبداله بعلي بن عيسى، حيث قام هذا الأخير بالعديد من الإصلاحات، منها إلغاء العديد من

---

1 لحافظ ابن كثير: المرجع السابق، ص276.

2 نفسه: ص277.

3 ابن جرير الطبري: المصدر السابق، مج 6، ص ص2192-2194.

4 الحافظ بن كثير: المرجع السابق ، ص213.

5 الوزير الكبير أبو القاسم عبد الله، إبن الوزير أبي علي محمد بن الوزير ابن الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني، كان ذا فصاحة و بلاغة و أدب و حسن كتابة و جود و فضل و كرم، ولي الوزارة من طرف المقتدر في ربيع الأول سنة 312 هــ(888م) بإشارة من مؤنس الخادم، و كان سائسًا مُمَارِسًا خبيرًا بالأمور، ثمّ قُبِضَ بعد ثمانية عشر شهرًا و رُسِمَ عليه، ثم أصبح طريح الفراش مريضًا حتّى مات سنة 314هــ(890م)، أنظر (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق و تخريج الأحاديث: شعيب الأرنؤوط، ط10، مؤسسة الرسالة، بيروت1414هــ_1994م، ج14، ص474).

الرسوم و المكوس التي أثقلت كاهل الرعيَّة، و قلّل من نفقات القصر ممّا ساهم في إنعاش الحياة الاجتماعية و الاقتصادية[1]. و هذا ممّا يشير إلى عودة حسن تسيير شؤون البلاد و العباد، و هذا أدّى بالطبع إلى تحسن المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الإسلامي و بالتالي إعادة إنعاش التجارة الإسلامية.

و لمّا احتلّ البويهيون العراق أعادوا فرض تلك المكوس و الضرائب على التجار لتسديد نفقات الجند، ممّا أثّر سلباً على الحياة الاجتماعية، فغلت الأسعار و انتشر الفقر و الجوع بين عدد من أفراد المجتمع[2].

و في ظل هذه الأحداث السياسية و الاجتماعية، فبالرغم من انكماش النشاط التجاري إلى الأسواق و دور الصرف، و ما لقيته من مصاعب في الداخل و الخارج، بقيت الحركة التجارية نشيطةً و خاصّةً التجارة الخارجية، نظراً لكثرة متطلّبات قصورٍ الملوك و الأمراء و الأثرياء المتمثلة في مواد الزينة والترف و الكماليات، و التي تدرّ على جالبيها والمتاجرين بها ربحا وفيرًا، و تحقّق لهم ثروةً خيالية لطالما حلموا بها. و لذلك، فقد جنى التجار وخاصّةً المسلمون من خلال رحلاتهم التجارية المتكررة و المتواصلة إلى الهند و الصين و جلبهم لتلك المواد الثمينة ثروةً هائلةً، ممّا جعلهم يفتكّون مكانةً مرموقةً و محترمةً في المجتمع، و أصبحوا يحظون بالاحترام والتقدير، و المهابة أحيانًا لدى الدولة، بل و أصبحت كلمتهم مسموعةً و نافذةً فيها، حتّى أصبح التاجر الغني كما يرى البعض ممثلاً للحضارة[3].

---

1 محمد مسكويه: المصدر السابق، ص29-30

2 الحافظ ابن كثير:المصدر السابق، ج11، ص213

3 آدم متز: المرجع السابق، ص784.

و كانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) رائدةً و سيّدةً، نظراً لتحكّمها في البضائع الثمينة التي كان يحملها المسلمون في سفنهم من الهند و الصين، ممّا جعل تجارة المسلمين تحتلّ الصدارة في التجارة العالمية، بحيث كانت الإسكندرية و بغداد هما اللتان تقرّران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية[1].

كما كان للتجارة الإسلامية الدور الكبير في إنعاش الحركة :الاقتصادية في العالم الإسلامي. فبالرغم من التغيّر السياسي الذي طرأ على المجتمع الإسلامي و ما صحبه من أزمات في شتّى المجالات، إلاّ أنه حمل في طيّاته أيضاً أسباباً أفضت إلى تطور حضاري ورقي اجتماعي ملموس أدّى إلى نقلة المجتمع من حالة إلى حالة أخرى جديدة، تطلّبت حياتها اليومية كثيراً من السلع التي باتت ضروريةً لهذا اللّون من الحياة.[2]

و من المؤكد طبعاً، أن النشاط التجاري بأسواق المدن، له صلة أيضًا بهذا التطور المادي، حيث أدّى إلى تحسّن وضعية جزء معتبر من أفراد المجتمع بصفة تدريجية، وذلك بحصولهم على موارد مالية جيّدة، فانعكس ذلك على النشاط الاقتصادي في عدد من المدن الإسلامية، لاندفاع الناس في اقتناء الأشياء للزينة و المباهاة، هذا فضلاً عن التطوّر الحضاري الذي طرأ على حياة المجتمع في المدن الذي يمكن ربطه بالحياة :الاقتصادية و العلمية و الفنّية، ليس إلاّ نتيجةً طبيعية لما طرأ عليهم من تغير اقتصادي.[3] إلاّ أنّ توسع المدن الإسلامية كمدن العراق مثلاً و تعدد دور الضرب فيها

---

1 آدم متز: المرجع السابق، ص785.

2 حمدان عبد المجيد الكبيسي: الحياة الاقتصادية و تطوّرها في المدن في عهد الازدهار الإسلامي، دار الحرية للطباعة، بغداد1988،ج2 ، ص169.

3عبد المجيد الكبيسي: المرجع السابق، ص168.

و مهارة الذمّيين في التبادل النقدي و ظهور نظام المصارف، كلّ ذلــك أدّى إلى تنشيط الحركة التجارية في المدن.[1]

كما أنّ تطور المدن و ازدياد عدد الــسكّان فيهــا بــسبب النمــو الاقتصادي و ازدهار الفلاحة و ما صاحب ذلك من تطور علمــي و فكــري إنعكس إيجابًا على المنظومة الصحية، فقلّ عدد الوفيات ممّا أدى حتمًا إلــى زيادة عدد السكان، و يفسّر ذلك أنّ مساكن مصر على سبيل المثال في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) و ما بعده لم يعد يُكتفى بإنشائها بل تحولت من مجال الإنشاء إلى البناء على طبقات، حتى وصل عــدد طوابــق هــذه البنايات إلى أربع أو خمس طوابق، و هو ما يفسر طبعًا ازدياد النمو السكاني الذي فرض بناءً متراكبًا.[2]

لذلك، نستطيع أن نقول بأنّه لا مناص من القول بأن تحسن الوضع المعيشي في المجتمعات الإسلامية و زيادة السكان و توسع المدن الإســلامية يعد من العوامل الرئيسية في ازدهار و تطور التجارة الإسلامية، فظهــرت ثلة هائلة من التجار المغامرين من المسلمين الذين وجدوا فــي مجتمعــاتهم الراقية مصدرًا للثراء، فخاضوا الأسفار و ركبوا البحار و واجهوا الأخطــار من أجل تلبية طلبات المجتمعات الإسلامية.

و لاشك أن التجار المسلمين لم يحملوا معهــم أشيــــــاء مادّيــة فحسب، بل و اصطحبوا معهم أشياء أخرى لا تقدّر بثمن، و هي ما دوّنوه في رحلاتهم التجارية، و عن البلدان التي زاروها أو تعاملوا معها، من معلومات

---

1 عبد المجيد الكبيسي: المرجع السابق، ص168.

2 فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة العلمية للتأليف و النشر، القاهرة 1970، مج1، ص ص 445، 447.

دقيقة، تشمل كلّ ما رأوه و لاقوه فيها، حيث حازت بــلاد الهنــد و الــصين القسط الكبير من هذه المعلومات القيّمة، و لقد صــادف ذلــك تطــور علــم الجغرافيا عند المسلمين و انتشار معارفها بينهم، و شغفهم في حب الرحلــة و المغامرة و اكتشاف المجهول و ما نجم عن ذلك من عملية مــسح كبيــرة لجلّ الأراضي و البحار، و التي ساهمت في معرفة الطرق و المسالك عبــر البلدان و الممالك، ممّا سهّل من مهمّة التجار المسلمين و أعطى لهم نفــساً جديداً لرحلاتهم الشاقة و الطويلة.

و لقد عرف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مجموعةً من الرحالة و الجغرافيين الذين أجــادوا و أبــدعوا فــي ميــدان الــرحلات و الجغرافيا تأليفاً و تصنيفاً، أشهرهم: البلخي صاحب "المسالك و الممالك"، و ابن رسته صاحب "الأعلاق النفيسة "، و الرحالــة المــشهور المــسعودي مؤلف"مروج الذهب"، و الإصطخري صاحب"مسالك الممالك"، و ابن حوقل مؤلف كتاب "صورة الأرض"، و لقد كانت أبحاثهم و اكتشافاتهم القيمة منهلاً لأجيال أخرى من الرحالة و الجغرافيين الذين جاؤوا من بعــدهم و أخــذوا مشعلهم ليكملوا أين توقّف هؤلاء، مسيرة البحث و الاكتشاف، و نذكر منهم: "المقدســي" صــاحب كتــاب "أحــسن التقاســيم"، و "المغربــي" مؤلــف كتاب"الجغرافيا"، و "الإدريسي" صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفــاق"، و الرحالة المشهور "ابن بطوطة" الذي كتب عــن قــصّة رحلتــه الطويلــة المعروفة بــ: "رحلة ابن بطوطة"، و غيرهم مــن الرحالــة و الجغــرافيين المعروفين و غير المعروفين الذين تركوا بصماتهم جليّةً في هذا الميدان.

و من الناحية الثقافية و الفنيّة، فقد شهد القرن الرابع الهجري ثورةً ثقافيةً و علميّةً و فنّيةً، قادها كوكبة من العلماء و الفلاسفة و الشعراء. ففــي ميدان العلوم الشرعية، فقد كان هناك عدد هائــل مــن العلمــاء و الفقهــاء

و المحدّثين و المفسّرين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:[1] المحـــدّث المعروف "الإمام النَّسَائي"صاحب "السنن"، و "أبو العباس أحمد بن ســريج " القاضي بشيراز، صنّف حوالي أربعمائة(400) مصنّف و كــان أحــد أئمّــة الشافعية، و يلقّب بالأشهب، و المفسّر الكبير: "أبو جعفر بن جرير الطبري"، وله مؤلفات و مصنّفات في التفــسير و التــاريخ و الأصــول و الفــروع، و المحدّث "ابن خزيمة"، الذي يعدّ بحراً من بحار العلوم و خاصّةً فـــي علــم الحديث، فكتب الكثير من المصنّفات أشهرها:" الصحيح" و هــي مــن أجــلّ الكتب التي ألّفها، و كذلك الإمام الحافظ "أبو القاسم الطبراني" صاحب المعاجم الثلاثة: "الكبير و الأوسط و الصغير"، و له أيضًا كتابي: "السنة" و "مــسند الشاميين"، وكذا الإمام الحافظ أيضًا "الدارقطني" فريد عصره وإمام دهره في الجرح و التعديل، صاحب كتاب "المشهور" و هو من أحسن المصنفات، و كذا كتاب "العلل"، و كتاب "الأفراد" الذي لا يفهمه إلاّ الحفّاظ و النقّاد، دون أن ننسى الإمام الحافظ "أبو عبــد الله الحــاكم النيــسابوري" صــاحب كتــاب "المستدرك"و له أيضاً مؤلفات كثيرة في علوم الحديث و التاريخ.

و في ميدان الفلسفة و علم الكلام، فهناك عدد لا بــأس بــه مــن الفلاسفة و المتكلّمين اشتهروا في نفس القرن، أشهرهم:[2] الحسين بن منصور المعروف "بالحلاج"، و كان من غلاة الصوفية، اتهم بالزندقة و الإلحاد فكان ذلك سبب مقتله[3]، و منهم كذلك "أبو القاسم البلخي الكعبي" و هو أحد مــشايخ المعتزلة المتكلمين الكبار، و ممّا اشتهر عنه زعمه بأنّ أفعال الله تقــع بــلا

---

[1] الحافظ بن كثير: المصدر السابق، ج11، ص 123 و ما بعدها.

[2] نفسه، ص 270 و ما بعدها.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق و تخريج الأحاديث: شعيب الأرنؤوط، ط10، مؤسسة الرسالة، بيروت1414هـــ_1994م، ج14، ص313.

اختيار منه ولا مشيئة، و هناك أيضًا الفيلسوف التركي "أبو نصر الفارابي" فكان حاذقًا في الفلسفة و عالمًا في الموسيقى وهو صاحب مقولة "المعاد الروحي لا الجسماني" مخالفًا في ذلك النصوص الصريحة من الكتاب و السنة و جمهور العلماء.

و في ميدان الأدب و الشعر فقد لمعت فيه أسماء عديدة[1] من بينها: "الصنبوري" و "الببغاء الشاعر" و "جحظة الشاعر" البرمكي الأديب ذو الفنون و العلوم و النوادر كما أنه كان جيد الغناء، لكن ثمة شاعر اعتبر من ألمع شعراء العهد العباسي أبو الطيب المتنبي" الذي لزم جناب سيف الدولة بن حمدان و امتدحه و كذلك فعل مع الإخشيد في مصر وعضد الدولة بن بويه، ولذلك عرف "بشاعر المدح".

أخيرًا، ففي النثر، ظهر "بديع الزمان الهمذاني" صاحب رائعة المقامات المعروفة "بمقامات الهمذاني".

وهكذا، فقد عرف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عدة تحولات في شتى المجالات و خاصة في المجال الاقتصادي و التجاري و هو المحور الذي يدور عليه موضوع بحثنا، و الذي سنفتتحه بذكر أصناف التجار و الشركات التجارية.

[1] الحافظ ابن كثير:المصدر السابق، ج11، ص 119 و ما بعدها.

فصل ثاني: تصنيف التجار والشركات التجارية.

المبحث الأول: التجـــــار

المبحث الثاني: تصنيف الشركات التجارية

ولأهمية التجارة عند المسلمين باعتبارها أفضل الكسب، فقد أصبحت لها مكانة رفيعة لديهم، وبالتالي أولوها الاهتمام البالغ والعناية الخاصة، وخاصة من قبل الملوك والأمراء المسلمين في مختلف العصور الإسلامية، الذين كانوا يساهمون من قريب أو من بعيد في تنشيط وترقية التجارة في الداخل والخارج، بل كانوا متتبعين باهتمام لجل الأنشطة :الاقتصادية والتجارية، فسهروا على تنظيمها ورعايتها وتذليل صعابها، ولم يكن هذا الاهتمام وليد القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) وإنما كان سائدا من قبل، فقد كانت الخلافة الأموية تسهر على تنظيم التجارة ورعايتها وتذليل الصعاب أمامها، فقامت بإنشاء الطرق التي تربط بينها وبين بقبة الأمصار لتسهيل التبادل التجاري، فحفرت الآبار أمام الطرقات، وخاصة أمام القوافل التجاري الغادية والرائحة[1].

كما أولت الدولة العباسية للتجارة نفس الاهتمام، فقدمت خدمات جليلة لها، وعرفت التجارة البحرية في عهدها انتعاشا كبيرا. [2]

غير أنّ الإصلاحات التي أحدثها المعتضد[3] خلال القرن الثالث الهجري (الثامن للميلاد) و التي مست جوانب عدّة في الدولة ، قد أتت بثمارها في المجال الاقتصادي و الاجتماعي مما أدّى إلى إنعاش الحياة

---

[1] محمد سيف: الحياة الاقتصادية في نجد والحجاز، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص87.

[2] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ط7، دار الأندلس، بيروت 1964 م، ج2، ص311.

[3] هو المعتضد أحمد بن طلحة الموفق و يكنّى أبا العباس بويع سنة 279هـ و كانت خلافته تسع سنين و تسعة أشهر له تجربة كبيرة في الإدارة و السياسة و لم يعرف في بني العباس أقدر منه في تسيير أمور الدولة خاصة في أحلك الظروف سوى المنصور (أنظر أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: التنبيه و الإشراف، ص 336، 337)

الاقتصادية و الاجتماعية . فبدون شك أنها انعكست بشكل إيجابي على النشاط التجاري. فمن بين هذه الإصلاحات، أنّه أصدر تعليمات بإلغاء الضرائب و الرسوم (المكوس) التي تضر بالمجتمع وتخالف تعاليم الإسلام و استطاع بفضل سياسته التقشفية الحكيمة أن يوفر أموالاً كثيرة لبيت المال[1]، و لكن، دون اللجوء إلى إكراه الرعية على دفع تلك المكوس و إثقال كاهلهم بـــها تعبيرًا منه على رفع الظلم عنهم و تكريس مبدأ العدالة الاجتماعية .[2]

أمّا في القرن الرابـــع الهجري(العاشر للمـــيلاد)، فقـــد كـــان لآل سامان، [3] الدور الكبير في حماية الثغور الإسلامية، وقد كان لذلك الأثر البالغ في الحفاظ على التجارة الإسلامية بصفة عامة، وعلـــى و جـــه الخـــصوص التبادل التجاري بين العراق والهند. [4]

---

[1] أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم، دراسة و تحقيق عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، راجعه و صححه، نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1415هـ-1995م، ج 11، ص324.

[2] جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط2، دار الجيل، بيروت 1415هـ 1994م، ص 431.

[3] ينحدر السامانيون من أسرة إيرانية نبيلة، وينتسبون إلى جدهم سامان خودات مؤسس سامان قرب بلخ، (أنظر موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 69).

[4] آدم متز: المرجع السابق، ص786 وما بعدها.

و كانت ثمرة ذلك إنشاء عدة تجمعات و مراكز للتجار الوافدين في العديد من المدن الإسلامية أهمها: ديبل، سيراف، عدن، القلزم صحار قصبة عمان،[1]

و كذلك الأمر بالنسبة للصين، فقد كانت أكثر الأمم اهتماما و حرصا على التجارة الخارجية، فقد سهر ملوكها و أمراؤها على العناية بالتجار الغرباء بحيث جعلت لهم أسواقا خاصة بهم، احد الملوك كان يستقبل أولئك التجار و يجلسهم في مجلسه ليسأل عن حالهم و يستمع إلى مشاكلهم.[2] أما الهند ليست أقل شأنا من الصين من حيث الاهتمام بالتجارة، حيث كان ملوكها أيضا يولونها عناية فائقة، بل إن أحدهم يتعهد أمام التجار الوافدين بحفظ تجارتهم و أموالهم، فقال لهم: «ليس في بلاد لص، أخرجوا فإن حدث بأموالكم حدث فخذوه مني و أنا الضامن لكم».[3] إلا أن الصين تفوق الهند من الناحية التنظيمية و الإدارية و المهارة و الخبرة في ميدان الرقابة الاقتصادية.

ونظرا للتطور الكبير الذي عرفته التجارة العربية الإسلامية خلال هذا القرن والذي كان نتيجة للاجتهادات العميقة التي مست القطاع التجاري والتي كان الغرض منها تسهيل العمليات التجارية وتذليل العقبات أمامها، ولأهمية ذلك، فسوف نتطرق إلى هذا التغيير خلال مبحثين هامين:

---

[1] أبو إسحاق الإصطخري: المسالك و الممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة و الإرشاد، الإدارة العامة و الثقافة، دار القلم 1381هـ-1961م،ص26 و ما بعدها.

[2] شرف الزمان المروزي: المصدرالسابق، ص11.

[3] أبو علي أحمد بن عمر ابن رسته: الأعلاق النفيسة، طبع في مدينة ليدن بمطبع بريل، 1891م، ص 135.

المبحث الأول: التجـــــار

لقد لعب التجار في هذا القرن دورا رياديا، وخاصة بعد أن ازدادت متطلبات واحتياجات قصور الملوك والأمراء عما كانت عليـــه مـــن قبـــل، فانحصر نشاطهم في تلبية رغباتهم الباعثة علـــى الاســـتطابة و الترفيـــه [1] و بالتالي فقد أصبحت تلك القصور لا تستطيع الاستغناء عن خدمات أولئـــك التجار، نظرا لسرعة استجابتهم لجلب ما استصعب جلبه من أقاصي البلـــدان من الأشياء الثمينة والتحف النادرة التي يتهافت عليها أصحاب تلك القـــصور والتي كانت محل مفاخرة وتباه فيما بينهم.

كما كان المجتمع الإسلامي في جل حالاته معني هو أيضاً بكثيـــر من السلع المجلوبة من طرف أولئك التجار، نظرا لتحسن مستواه المعيشي. فكانت السلع الهندية على وجه الخصوص كثيرة الاستهلاك والرواج في جل البلاد الإسلامية وفي أكبر مدنها و أسواقها. [2]

لذلك، فان التجار في العراق التي كانت قلب الخلافـــة الإســـلامية وقبلة الأغنياء والأثرياء، كانوا يجنون من هذه السلع الغالية أرباحـــا كبيـــرة، لأن السفر إلى الهند لم يكن بالأمر الهين، فتكلفته باهظة أيضا.

لقد كان التجار يعانون عناء كبيرا من مشقات السفر منهـــا: طـــول المسافة، والظروف القاسية الناجمة عن المناخ والطبيعة القاسيين، وصـــعوبة المسالك، إضافةً إلى الأخطار المحدقة بهم، وخاصة اللصوصية والقرصـــنة،

---

[1] حسن حلاق: ملامح تاريخ الحضارات، الدار الجامعية، بيروت 1411هـــ 1991م، ص 181.

[2] المبارك فوري: المرجع السابق، ص22.

ولكن رغم ذلك فقد كان أولئك التجار المسلمون يغامرون بأنفسهم وأمـــوالهم، جريا وراء الربح الوفير السريع، وجمع الثروات.

و لذلك كانت السلع غالية على قدر مشقتها، كما يقول بن خلـــدون: « وكذلك نقل السلع من البلد بعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا، وأكفل بحوالة الأسواق، لأن السلعة حين إذ تكون معوزة لبعد مكانها، وشدة الغرر في طريقهـــا، فيقـــل حاملهـــا ويعـــز وجودها، وإذا قلت وعزت غلت أثمانها».[1]

و لقد أدى ذلك إلى تمركز الثروة في أيدي أولئك التجار، [2] فوصلوا بفضل ذلك إلى درجة عظيمة من الغنى، فجعلتهم يحظون بالاحترام الكبيـــر من طرف رجال الدولة بل وبالمهابة أحيانا، ومنهم من كان له نفـــوذ كبيـــر داخل الدولة، ومن أمثلة ذلك التاجر العراقي بن الجصاص[3] المعروف بتعامله واتجاره في الجواهر والرياش والأحجار الكريمة، فكانت له صلات وطيـــدة مع القصر العباسي، ولكن كانت له صلات أكثر وثوقا مع الأمير الطولـــوني "خمراويه" [4] بمصر، فسمح له ذلك بتهديد بعض الوزراء. [5]

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون: المصدر السابق (المقدمة)، ص346.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 195.

[3] هو الصدر الرئيس ذو الأموال أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن الجصاص البغدادي الجوهري التاجر الصفار، قال فيه ابن طولون لا يباع لناشئ إلاّ على يد بن الجصاص، كانت لديه أموال طائلة و ذهب كثير، عاش أيام خمراويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر و الخليفة العباسي المعتضد، (أنظر: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج 14، ص469).

[4] خمرويه: هو ابن أحمد بن طولون التركي ، ورث ولاية مصر بعد وفاة أبيه أحمد ، دام حكمه اثنا عشر سنة (أنظر: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج 14، ص469).

5 الدوري: المرجع السابق، ص 122 وما بعدها.

إلاّ أنّ هناك ظاهرة انفرد بها القــرن الرابــع الهجــري (العاشــر للميلاد) توحي إلى ضعف الدولة، وفي نفس الوقت ظهور طبقة من الأثرياء النافذين فيها، وتتمثل هذه الظاهرة في كون بعض أولئــك التجــار الأثريــاء يقرضون الدولة قروضا ويأخذون مقابل ذلك فوائد.

و لقد اشتكى الخليفة الراضي سنة 322 هــ/933 م، مــن أزمــات مادية حادة حصلت له، فكان من بين الذين لجأ إليهم الخليفــة هــو التــاجر المعروف "ابن الجصاص".[1]

بل إنه في كثير من الأحيان يشارك أولئك التجار في جباية الخراج، وكانوا يجنون من ذلك منافع هامة لم يكن ليتحصلوا عليها مهما ادخروا.[2]

كما كانت المعاملات المصرفية وقفا على كبار التجار، بغض النظــر عــن الصيارفة أصحاب هذه المهنة الأصليين.[3]

ولقد كان التجار في هذا العهد أكثر من سابقيهم اهتمامــا بتنظــيم أنفسهم وترتيب أمورهم، فنظموا أنفسهم في شكل نقابات التجار، يرأسها نقيب التجار.[4] و لكن مما ينبغي الإشارة إليه، أن التبادل التجــاري بــين العــالم الإسلامي انطلاقا من العراق موطن الخلافة مع الهند، كان فــي عمومــه ذا

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 124.

[2] إدوارد بروي: المرجع السابق ، ص 194.

[3] نفسه، ص 194 وما بعدها.

[4] حسن حلاق: المرجع السابق، ص 181.

طابع إسلامي، أي أنه كان يتم وفق أحكام الشريعة السمحة، إلا أنه لا يخلو في بعض الأحيان من التجاوزات كما لاحظنا، مع تساهل أجهزة الدولة المعدة لمراقبة هذه التجاوزات والآفات، وهذا راجع إلى ضعف الدولة، الشيء الذي جعل بعض كبار التجار يستغلون ذلك الضعف لصالحهم، فيرتكبون المخالفات الشرعية[1]دون أن تحرك الدولة ساكنا مقابل قروض يمنحونها لها لتجاوز أزمتها كما لاحظنا ذلك مع التاجر "بن الجصاص".

1- تصنيف التجار حسب أدوارهم:

ينقسم التجار من حيث نشاطهم وتعاملهم التجار ي إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الركاض:

مشتق من كلمة الركض أي السعي والعدو بالرجلين، وهو التاجر الذي يشرف بنفسه على السفر وبماله على الاتجار مع بلدان متعددة سواء بمفرده أو مع شركائه، ويستلزم عليه دراية كبيرة بأسعار البضائع التي ينوي المتاجرة فيها ومعرفة واسعة بالأقطار التي يريد السفر إليها وإذا لم يكن يعرفها يبحث عن وكلاء تجاريين ليستعين بهم في تعامله التجاري خلال رحلته التجارية داخل تلك البلدان.

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 803.

و عليــه كذلك أن يراعي تكاليف النقل والرسوم التي لامناص من دفعها، مع تفهم عميق لوضعية السوق وتقلباتها قبل المبادرة فـي الخـوض فيها.[1]

القسم الثاني: الخــزان:

اسم فاعل لخزن تخزينا، بمعنى الحجز والحجر، فهذا الصنف مـن التجار يعتمد على أسلوب التخزين والاحتكار للسلع، فهو على درايـة تامـة لأحوال وتحولات السوق، فيعرف الوقت اللازم والفرصة المناسبة التي ينبغي المبادرة فيها لاستنزاف السوق وذلك لشراء السلع بثمن معلوم ومدروس ثـم الانتظار مع تكديس تلك البضائع في مخازنهم الكبيرة حتى تنفذ من الـسوق ويكثر الطلب والإلحاح عليها، فيخلو لهم الجو لتسديد ضربتهم، وذلك بفضل الأسعار التي يرونها كفيلة بمضاعفة أرباحهم أضعافا مضاعفة، ولـيس مـن الضروري أن يسافر الخزان بنفسه إلى المناطق التي ينوي القيام بمعاينـة أو شراء تلك السلع، بل يمكن أحيانا أن يعتمد على وكلائه أو شركائه في ذلـك، المتهم أن يكون على إطلاع مستمر على كل ما يجري في السوق.

وتشير بعض المصادر إلى هذا الصنف من التجار وتورد لنا مثالا حيا على ذلك وهو أن تاجرا من بغداد جاءه خبر خارج بغداد يوصي تجـار الزيت فيها بالاحتفاظ بما تبقى لديهم من كميات الزيت لأنها قلت في الأسواق وارتفع ثمنها، فما سمع ذلك الخبر حتى سارع فاستدعى وكلاءه وأمرهم بأن يقترضوا أموالا كبيرة من الصرافين لكي يشتروا بها الزيت، فاشتروا الزيت بثلاثة آلاف دينار ثم اشتروا مرة أخرى، فارتفع السعر نتيجة هذه العمليـة، وبعد هذه العملية انتبه التجار بأنها كانت مقصودة، فحاولوا اسـترجاع ذلـك

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 124.

الزيت وذلك بدفع أرباح لهذا التاجر، لكنه رفض، فاستمروا في إغرائه بأرباح أكبر حتى وصلت نسبتها إلى 60 بالمائة، فباع الزيت الذي اشتراه بعشرة آلاف دينار وبعشرين ألف درهم.[1]

ولكن في الحقيقة أن هذه العملية كانت مذمومة سواء عرفا أو شرعا، فهي تدخل في المعاملات التجارية المحرمة التي نهى عنها الإسلام نهيا قاطعا لما فيها من الجشع والطمع والتضييق على الناس فقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه »،[2] وجاء في حديث آخر: « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون ».[3]

والملاحظ هنا، بأن المحتكر الذي ذمه الإسلام أصبح يعرف باسم آخر غير اسمه الحقيقي، فهذا يعتبر مداراة وتحايل على الشريعة التي كانت مصدر التشريع ومرجع القوانين التي كان يحتكم إليها الناس حكاما ومحكومين، وبالتالي، فقد أصبح بعض التجار في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) بدؤوا يمارسون بعض الأنشطة المحرمة إما خفية أو مداراة بتواطؤ من بعض الأطراف في السلطة، فهذا إن دل على شيء إنما يدل على ضعف الدولة من هذه الناحية كما أشرت.

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع نفسه، ص 125.

[2] رواه أحمد والحاكم وابن أبي شيبة والبزار، (أنظر السيد سابق، المرجع السابق، ص 176).

[3] رواه بن ماجة والحاكم عن بن عمر، (أنظر السيد سابق، المرجع نفسه).

القسم الثالث: المجهـز:

مشتق من التجهيز، أي أن هذا النوع من التجار يجهز غيره من دون أن يسافر بنفسه، فهو يعتمد على وكلاء تجاريين مأمونين يبعث معهم الأموال اللازمة فيتاجرون بها، ثم تقتسم الأرباح بين ذلك التاجر ووكلائه على حسب النسب التي اتفقوا عليها في ذي قبل.[1]

و هذا النوع من التعامل التجاري يسمى في الإسلام المضاربة وهو جائز ولا حرج فيه، والمضاربة مأخوذة من الضرب في الأرض وهو السفر للمتاجرة، مصداقا لقوله تعالى « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ... الآية »،[2] وأما اصطلاحا فهو عقد بين طرفين على أن يدفع أحدهما المال إلى الآخر ليتاجر به ثم يكون الربح بينهما حسب اتفاقهما عليه في العقد.[3]

2- تصنيف التجار حسب عرقياتهم وأديانهم

إن التبادل التجاري بين العالم الإسلامي وخاصة جناحه الشرقي مع العالم الهندي لم يكن في أيدي التجار المسلمين لوحدهم وإنما كان يشاركهم في ذلك تجار آخرون ومن جنسيات وأديان مختلفة، أبرزهم التجار اليهود والنصارى فكانوا جنبا لجنب مع المسلمين في جلب البضائع الثمينة من الهند والصين وإعادة بيعها ومقايضتها في مختلف نقاط العالم ولقد كان ثمة تنافس كبير بين أبناء الديانات الثلاث.[4]

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص126.

[2] سورة المزمل، الآية 20.

[3] السيد سابق: المرجع السابق، ص 220 وما بعدها.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 181.

و لمزيد من المعرفة على نشاط أولئك التجار، نستعرض كل فئة منهم راصدا نشاط كلا منها على حدة مع الإشارة إلى فئة أخرى من التجار لا تقل أهمية وهم الهنود.

1. التجـــار اليهـــود:

من المعروف أن التجارة اليهودية، نشأت وانتشرت نتيجة تَشَرُّدِ هِم في العالم الناجم عن نفيهم بعد خراب هيكل القدس، ولقد نشأت عن هذا الشتات عدد هائل من الجاليات اليهودية، استقر أغلبها على طرق التجار الكبرى، والتي تعتبر أيضا طرقا دينية تربط بين كافة اليهود في عالم في القارات الثلاث، ولقد كانت ما بين النهرين وفارس والهند بالإضافة إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي مثل الشام وشبه الجزيرة العربية والمغرب العربي مرتعا خصبا لتلك الجاليات اليهودية وخاصة تلك التي تشتغل في التجارة، وقد غدت هذه المناطق مجالا واسعا للتجارة اليهودية في العصر الوسيط،[1] ولقد ساعدتهم الفتوحات الإسلامية على التحرك والانتشار بحرية للاسترزاق من هذه المهنة، وبالتالي كان ازدهر التجارة اليهودية مرتبطا ارتباطا وثيقا بازدهار الحضارة الإسلامية.[2]

و كان لبغداد بعد تأسيسها في القرن الثامن الميلادي كعاصمة سياسية واقتصادية للخلافة العباسية، دورا كبيرا في تعاظم اليهود في العراق، وكانت أكبر جالية يهودية تقيم بحي الكرخ وهو مركز بغداد التجاري (ناحية الجنوب).

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق ، ص 270 وما بعدها.

[2] نفسه، ص 273.

و من خلال بغداد كانت تنطلق أهم النشاطات اليهودية سواء الدينية أو التجارية، وكلن الاتصال مستمرا بينها وبين المناطق المذكورة آنفا وحتى ما وراء التخوم الإسلامية.[1]

انطلاقًا من ذلك، قامت النشاطات التجارية اليهودية محاطة برعاية السلطة الإسلامية، وكانت الجالية اليهودية تسخر لمصالحها التجارية في مختلف الأنحاء أدلاء سفر وصناديق خاصة للإغاثة، وعملاء للإيواء سفّارهم، وحكم للفصل في قضايا التجارة، ومشرف على العقود في الأسواق ومعقب لافتداء الأسرى، وكل ما يتعلق بأمور التجارة اليهودية.[2]

و كانت التجارة البعيدة وخاصة مع الهند والصين من اختصاص اليهود الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا،[3] والذين يدعون باليهود الراذانيين[4] ويذكر لنا ابن خرداذبة أسفارهم التي كانت في البر والبحر، مبينا لنا المسلك الذي يتخذونه في تجارتهم اتجاه الأقطار النائية ابتداء من الفرنجة (فرنسا) راكبين البحر (البحر المتوسط) اتجاه المغرب حيث يجلبون منها الخدم و الجواري و جلود الخز و الفراء و السمور و السيوف، ثم يركبون

---

[1] موريس لومبارد، المرجع السابق، ص274.

[2] نفسه، ص276.

[3] عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: بلاد الهند في العصر الإسلامي، ط 2، دار الفكر العربي ، القاهرة 1996 م ، ص 230.

[4] وكلمة الراذانية مشتقة من اسم لنهر بفرنسا وهو رادانو أي الرون، (أنظر لومبارد: المرجع السابق، ص 276).

البحر ثانية قاصدين"الفرما" [1] ثم يحملون تجارتهم برّا على ظهور الدواب اتجاه القلزم (السويس) التي تبعد عن "الفرما" خمسًا و عشرين فرسخًا، ثم يعاودون ركوب البحر (البحر الأحمر) مارين بالجار فجدّة حتى ينتهون بالسند والهند، ثم يذكر البضائع التي يجلبونها منها كالمسك والكافور والعود وغيرها من مواد الزينة والترف، ثم يعودون أدراجهم من نفس الطريق إلى أن يصلوا إلى الفرما، ثم يركبون البحر الغربي(البحر المتوسط)، فربما عدلوا بتجارتهم إلى القستنطينية أو عادوا من حيث جاؤوا إلى الفرنجة(فرنسا).[2]

فبين القرنين التاسع و الحادي عاشر للميلاد ازدادت نسبة نمو نشاطهم التجاري حتى أصبح في أوج قوته و خاصة في أوروبا الغربية الكاثوليكية، وبدت سيطرتهم واضحة فيها، بحيث لا تكاد تخلو مدينة أو قرية مهما كانت نائية أو معزولة من التجار أو السماسرة اليهود، فقد كانوا بالنسبة للمجتمعات الأوروبية المنغلقة على نفسها بمثابة النافذة التي يطلون من خلالها على العالم الخارجي أو حلقة وصل بينها و بين الأمم الأخرى، فاستغلوا هذه النقطة فكانت فرصة سانحة لهم لاحتكار تجارتها الخارجية.

و بالتالي، فقد اعتبر القرن العاشر الميلادي(الرابع الهجري) نقطة تحول هامة بالنسبة للتجار اليهود، بحيث سُجِّلَ لهم مؤشرٌ هامٌ في مجال تجارة المسافات البعيدة، فتمتعوا بفرص التسامح الديني الذي وفره لهم

---

[1] الفرما (EL FARMA) مدينة مصرية تقع في أقصى شمال شرق دلتا النيل على مقربة من بحيرة تنيس بمصر، (أنظر: موسوعة ألف 1000 مدينة إسلامية، من تأليف عبد الحكيم العفيفي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصر القاهرة 1421هـ- 2000م، ص 360).

[2] أبو القاسم بن عبد الله ابن خرذاذبة: المسالك والممالك، تقديم وفهرست: الدكتور مخزوم، ط2 دار إحياء التراث العربي، ص 131.

المسلمون ليكون لهم دعمًا معنويًا و سند سياسيًا لتركيز جهودهم و أموالهم في المجال التجاري.[1] حيث أنّهم في فترة من الفترات كان يقيم في بغداد وحدها نحو أربعين ألف يهودي، و هم يعيشون بأمان و عز و رفاهية في ظل الخلافة الإسلامية.[2]

و يروى عن أحد التجار اليهود يدعى إسحاق خرج من عمان قاصدً بلاد الهند مع نهاية القرن الثالث (التاسع للميلاد) و معه نحو مائتي دينار، لم يكن يملك سواها، و غاب عن البلد نحو ثلاثين سنة لا يُعْرَفُ له خبر، وبعد هذه المدّة الطويلة قرّر العودة إلى عمان سنة ثلاثمائة للهجرة آتيًا من الصين في مركب خاص له وأنه باع لأحد التجار دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفائق، و قدر قيمة مبيعاته بأربعين ألف دينار دفعةً أخرى ، و باع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعةً أخرى.[3]

و هكذا فقد كان الجزء الكبير من المبادلات التجارية في أيديهم و بيوتاتهم التجارية وكانوا وراء كل تجارة مربحة تدر عليهم أرباحا كبيرة، كتجارة الحرير والتوابل والذهب والمجوهرات.

---

[1] روبرت لوبيز: ثورة العصور الوسطى التجارية 950-1350م، ترجمة: محمود أحمد أبو صورة، مراجعة صلاح الدين حسن السوري منشورات شركة ELGA ، فاليتا-مالطا1997، ص82.

[2] بنيامين الرابي بنيامين بن بونه التطيلي النباري الأندلسي : رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حدّد، دراسة و تقديم: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، المجمّع الثقافي، أبو ظبي الإمارات الغربية المتحدة 1423 هـ-2002م، ص 299.

[3] بزرك بن شهريار االمصدر السابق، ص107،108.

و لكن التجارة التي كان اليهود يشتهرون بها كثيرا وخاصـــة فـــي فارس والعراق وهي تجارة النقود والمعاملات المصرفية،[1] وكان أكابر التجار والمصرفيين اليهود يقيمون في أصبهان.[2]

و في بغداد كان المصرفيون اليهود يقرضون اقرب النـــاس إلـــى الخليفة العباسي، وكان من بين أولئك: " يوسف بن فنجاس" و" هـــارون بـــن عمران" اللذان أقرضا أحد الوزراء عشرة آلاف دينار في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .[3]

و في الأخير أقول أن تلك المواقع التجارية التي اكتـــسبها اليهـــود سواء قبل الفتح أو بعده، سمحت لهم بأن يحتلوا الـــصدارة فـــي المعـــاملات التجارية ذات المردود الكبير والربح السريع، مما جعلهم في كثير من الأحيان من المهيمنين الرئيسيين عليها بكل جدارة.

2. التجار النصارى:

كان التجار النصارى وخاصة الروميون إلى جانب التجار اليهـــود و المسلمين من أنشط التجار في العالم العربي والإسلامي، وخاصة في منطقة العراق وما جاورها، [4] كما كـــانوا يتقـــاسمون مع اليهود احتكـــار التجـــارة

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 796.

[2] جاك رسلر: الحضارة العربية، ترجمة الدكتور خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت، ص139.

[3] آدم متز: المرجع السابق، ص 796.

[4] نفسه، ص 797.

وخاصة في اللآلئ في البحر الحمر، ولقد سمحت لهم هذه التجارة بأن يجمعوا ثروة هائلة.[1]

من جانب آخر، فقد ظل السوريون النصارى في العصور الإسلامية سادة بين الشرق والغرب، ولكن تم استبعادهم تدريجيا من المجال البحري نتيجة منافسة اليهود لهم، وخاصة في المحيط الهندي والبحر الأحمر والمتوسط، غير أنهم ظلوا محتفظين بشيء من نشاطهم التجاري فيما بين القارات عن طريق البر وخاصة في بلاد ما بين النهرين الفرس وآسيا الوسطى وأرمينيا والشام ومصر، وكانت تجارتهم تعتمد أساسا على الجاليات اليعقوبية و النسطورية، وكانت تجارتهم أيضا مقرونة بالمجامع التي تنعقد في بغداد، كما كانت تلعب دور مستودعات للمال، في حين كانت كملاجئ للنزلاء من سفارهم، ومحلات للمشروبات والخمر، وأخيرا كمراكز لخصي العبيد، أي بمعنى أنها كانت متعددة الأدوار والخدمات.

و بالتالي كانت المراكز النصرانية عبارة عن نقاط أو محطات تجارية مهمة للتجار النصارى، وكانت عادة ما ترتبط رحلاتهم التجارية بالزيارات الدينية وبرحلات الحج إلى أماكنهم المقدسة، فكان لهم الفصل في استمرار نشاطهم التجاري. [2]

أما بالنسبة للتجار الآرمن، بالرغم ما ذهب إليه البعض بأنهم لم يكن لهم شأن يذكر،[3] إلا أنه في الحقيقة، كان لهم دور فعال في التبادل

---

[1] جاك رسلر: المرجع السابق، ص 139.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 279 وما بعدها.

[3] آدم متز: المرجع السابق، ص 997.

التجاري بين العالم الإسلامي و الإمبراطورية البيزنطية، وقد كانوا خلال الحروب الصليبية هم أصحاب الهيمنة على التجارة وخاصة في المناطق المحاذية لأرمينية، وقد كانوا موزعين في شكل جاليات في مناطق عدة، وخاصة في العراق وآسيا الصغرى والقسطنطينية وكانوا يتقلدون عدة أدوار كجنود وتجار ومهندسين[1]

و هكذا بقيت التجارة النصرانية وخاصة البيزنطية تحظى بالاهتمام باعتبار تجارهم من اللذين لا يستهان بهم في منافسة التجار اليهود والمسلمين في نشاطهم التجاري.[2]

3. التجار المسلمون:

باعتبار التجارة بأنّها أفضل الكسب عندهم، عمد العديد من أصحاب الأموال من المسلمين خاصةً منهم كبار الملاك إلى في التنافس الشريف فيها، و ذلك، باستثمار قسط كبير من أموالهم في مشاريع تجارية، بل و يشراكهم في ذاك فئات أخرى من المجتمع كصغار التجار و رجال الجيش و العمال و رجال الأدب، إلاّ أنّ هذه المضاربات سرعان ما تعود على أصحابها و القائمين عليها بالربح الوفير، ممّا حفّز الطبقة الوسطى على الإقبال عليها، و فوق ذلك كلّه الدعم المعنوي الدولة الذي تقدّمه الدولة لهم.[3]

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 287.

[2] إدوارد بروي: المرجع السابق، ج3، ص 190.

[3] نفسه، ج3، ص194.

لكن ثمة أمر هام ساهم يشكل أساسي في دفع التجار المسلمين إلـــى الأمام كما سبقنا و قد أشرنا إليه، هو الدور الذي لعبوه في إنجاح تجـــارتهم بفضل تلك التعاليم الربانية المتجذّرة في قلـــوبهم و تـــصرفاتهم، و بفـــضل معاملاتهم الحسنة و المخلصة مع الناس، أصبحوا في ظرف قصير هم رواد التجارة في العالم.

و قد نجم عن هذا التقدم التجاري الذي أحرزه المسلمون ازدهـــار الجاليات الإسلامية عبر العديد من المناطق في العالم التي لم تكن تحت النفوذ الإسلامي، مثل السند والهند والصين، فكان يرأسهم مسلم ولا يقبلون غيره،[1] و كانوا يتولون ويقيمون الشهادة فيما بينهم، ولا يسمحون لأحـــد مـــن غيـــر المسلمين التدخل في شؤونهم[2] وهذا كله امتثالا لتعاليم الإسلام المنبثقة مـــن القرآن والسنة المطهرة واللذان هما مصدران من مصادر التشريع الإسلامي، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم تأكيدا لما قـــام بـــه أولئـــك التجـــار المسلمون: « إذا خرج ثلاثة في سفر ــ أي المسلمون طبعـــا ــ فليـــؤمروا أحدهم»[3]، هذا بالنسبة للإمارة أثناء السفر وخاصة إذا كـــان لغـــرض هـــام كالتجارة.

---

[1] أبو القاسم ابن حوقل: صورة الأرض، ط2، منشورات دار الحياة، بيروت(بدونتاريخ)، ص 277.

[2] آدم متز: المرجع السابق، ص 288.

[3] حديث صحيح رواه أبو داود، (أنظر أبو سعيد: أحكام السفر وآدابه، دار الإمام مالك، 1415هـــ ـــ 1995 م، الجزائر، ص31).

أما بالنسبة لعدم ترك المجال لغير المسلمين لمشاركتهم في أمورهم أثناء رحلتهم، فهذا مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي».[1]

و هذه هي من الآداب التي ينبغي على المسافرين المسلمين الالتزام بها خلال سفرهم.

و كان التجار المسلمون وعلى وجه الخصوص العراقيون هم المهيمنون على التجارة بين العراق والهند بغض النظر عن الأقطار الأخرى الإسلامية وغير الإسلامية، ولقد كانت هذه التجارة كما أسلفنا هي مصدر الثراء والغنى لدى أولئك التجار ولذلك فان المعرفة بأثمان البضائع وقيمة النقود كانت في أيديهم نظرا لمهارتهم الفائقة وتجاربهم الكبيرة الناجمة عن كثرة أسفارهم ومغامراتهم التجارية وامتزاجها بخبرتهم الواسعة بأحوال الناس بمختلف أجناسهم وأعراقهم و ألوانهم و ألسنتهم.[2]

فقد روي أنّ رجلاً خرج من عمان متجهًا نحو الصين و لا شيء معه و عاد ومعه مركب به مسك بألف ألف دينار، و ثياب و حرير صيني بمثلها، و جواهر وأحجار طريفة بمثلها.[3]

---

[1] حديث حسن رواه أبو داود (أنظر المرجع نفسه).

[2] آدم متز: المرجع السابق، ص 785.

[3] بزرك بن شهريار: المصدر السابق، ص108.

و نتيجة لذلك، و بعد أن جمعوا ثروات كبيرة عمدوا إلـى تـشغيل أموالهم في مشاريع عديدة وفي صفقات ومضاربات مختلفة، كثيرا ما تعـود عليهم بأرباح مضاعفة.[1]

و لكن بالرغم من ذلك، ففي الحقيقة أن نشاط أولئك التجـار كـان أغلبه في قمة النهضة، فبغض النظر عن مساهماتهم الفعالـة فـي تحريـك دواليب: الاقتصاد الإسلامي والتخفيف من أزماتـه، عملـوا علـى إنـشاء الصناعات وتأمين فرص العمل ومنح قروض مالية تعود بالنفع على المجتمع والدولة معا، فهم كذلك سادة التجار وأرقاهم وعيا وأكثرهم انضباطا، ويلتمس ذلك من خلال دفاتر حساباتهم ومراسلاتهم، وبطاقات قروضـهم وسـجلات خاصة بالموظفين، مما يدل على التكوين الثقافي العالي لديهم.[2]

و قد كانوا أيضا يبدون اهتماما بالثقافة الدينية والأدبية، بحيث لعبوا أدوارا هامة في حماية العلوم والآداب والفنون، إلى جانب تـسخير أنفـسهم وأموالهم في تشييد وتجميل دور العبادة سواء كانت مساجد أو غيرها، وكـذا بناء المدارس والمؤسسات الخيرية كما كانوا يؤمنون المأوى والغذاء للطلاب.

أما بالنسبة لحياتهم الخاصة، فقد كانوا في رغد مـن العـيش فـي قصورهم بالمدن في وسط حشد من عبيدهم وخدامهم، تزين جدران غـرفهم الكتب ومذكرات سفرهم ومغامراتهم تتخللها تحف ثمينة نادرة، مما يدل على مستواهم الاجتماعي والثقافي الراقي.[3]

---

[1] إدورد بروي: المرجع السابق، ص 194.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 197..

[3] نفسه، ص 198 وما بعدها.

4. التجـــار الهنـــود:

لقد بلغ التجار الهنود مبلغا عظيما وقدرا رفيعا في التجارة، فعرفوا كيف يروجون لسلعهم وبضائعهم الثمينة عند بيعها وتصديرها، كما عرفــوا احتياجات بلادهم الضرورية والمواطن التي تجلب منها، والطرق والمــسالك التي ينبغي سلوكها من أجل استيراد ما ينبغي استيراده من الــسلع ومعرفــة أثمانها و أسعارها ونوعيتها.

و بفضل ذلك وصلوا إلى درجة عالية من الغنى هم أيضا، حتى أن بعضهم كان يملك أربعين سفينة، منها بخمسة وعشرين ألف قطعــة ذهبيــة، وكانوا يسكنون في بيوت فخمة ويمتلكون العبيد والغلمان الذين كانوا يسكنون في بيوت منعزلة مجاورة لبيوت أسيادهم.[1]

كما كان يعرف في الفترة التي عاش فيها ابن بطوطة تجار هنـــود يسمون بالصولين لهم أموال عريضة يشتري أحدهم المركب بما فيه و يقوده من داره و معبأ بالسلع.[2]

و كان للتجار الهنود أيضًا اتحادات كان الهدف من إنشائها حماية مكاسبهم التجارية، والدفاع عن حقوقهم وكرامتهم، نتيجة لذلك كانت الدولــة في الهند تراعي أحوالهم وتسمع إلى انــشغالاتهم واقتراحــاتهم و نــداءاتهم وتسهر على حل مشاكلهم ومعاناتهم، وتشجيع نشاطاتهم ومعاملاتهم وصفقاتهم

---

[1] عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: المرجع السابق، ص 236.

[2] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق، ص440.

التجارية الخارجية، الشيء الذي يعود عليهم وعلى الدولـــة والمجتمـــع معـــا بالنفع.[1]

إلا أنهم كانوا يصدرون أقل مما يستوردون، لأن بلادهـــم كانـــت مكتفية ذاتيا بإنتاجها الغني والمتنوع، ولكنهم لم يكونوا في المستوى الذي كان عليه بقية التجار وخاصة منهم المسلمون واليهود، الذين كانوا يتميزون عنهم بروح المغامرة وقوة العزيمة وسلاسة الانضباط. فقد كان العديد من التجـــار الهنود يخرجون في من بعض الجزر الهندية في قوارب لهم يحملون معهـــم العنبر و النارجيل فيقايضون بهما مقابل الحرير و بعض الثياب.[2]

هذا ما يمكن قوله عن أولئك التجار بمختلف ألـــوانهم و ألـــسنتهم ودياناتهم الذين كانوا بمثابة دعائم اقتصادية للعالم وعلى وجـــه الخـــصوص العالم الإسلامي الذي استفاد كثيرا من خدماتهم الجليلة ومـــساعيهم الخيريـــة الحميدة التي عادت بالخير العميم على المجتمعات الإسلامية وفـــي مقـــدمتها المجتمع العراقي.

5. التجـــــار الصينيـــون:

كان للتجار الصينيين دورٌ لا يستهان به في التبـــادل التجـــاري، فاستطاعوا أن يحصلوا على مكانة محترمة بين كبار التجـــار فـــي المجـــال الشرقي للتجارة الدولية، و خاصّة في المحيط الهندي، و لقد ساعدهم علـــى ذلك تشجيع حكوماتهم المتعاقبة للتجارة، و التي عملت على تـــوفير الحمايـــة

[1] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص 237.

[2] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص 153

اللاّزمة لها و لأصحابها من جهة،[1] و من جهة أخرى، امتلاكهم لأسطول بحري قوي و متطور، و خاصّةً في عهد أسرة "سونغ"، فقد كانت سفنهم و قواربهم تجوب المحيط الهندي و الخليج العربي و موانئ البحر الأحمر و ساحل إفريقيا الشرقي.[2]

حتى أنّ هناك من أولئك التجار من كان يملك المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه إلى البلاد، لذلك فقد كانوا من أكثر الناس أموالاً في العالم.[3]

غير أنّه، كان العديد من التجار و خاصّة جنوبي الصين يبحثون عن فرص أخرى للثراء خارج بلادهم فرارًا من أعوان الرقابة عن طريق ركوب المخاطر من خلال قيامهم بالرحلات البرية أو البحرية تحدوهم في ذلك روح المغامرة.[4] فبالرغم الإتقان الفني و النوعية الرفيعة التي كانت تتميّز به منتوجات بلادهم، إلاّ أنّهم كانوا يرغبون في شراء الأقمشة الفخمة من العالم الإسلامي.[5]

هذا، و قد كان التجار الصينيون يحرصون كل الحرص على جلب هذا النوع من البضائع مهما كان ثمنها، الشيء الذي جعل أيضًا بعض التجار الصينيين من كانتون يدفعون مبالغ باهظة مقابل الحصول على بعض الأخشاب الثمينة ، في القرن الثامن الميلادي.[6]

---

[1] رالف لنتون: المرجع السابق،ص364.
[2] ذانج هو: المرجع السابق، ص 27.
[3] محمد بن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص438.
[4] Denys Lombard: :op.cit, pp67 .
[5] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص288.
[6] تيم سقرن: المرجع السابق، ص295

حتى أن أولئك التجار الصينيون الذين كانوا يتردّدون كثيرًا على البلاد الإسلامية و الذين كان لهم الدور الفعال في إرساء و توطيد العلاقات الاقتصادية و الدبلوماسية بين البلاد الإسلامية و الصين، قد أسهموا أيضًا في تنشيط التبادل الثقافي و الفني بين الأمتين. [1]

و فيما يتعلق بالعلاقات بين أولئك التجار الصينيين الكبار، فقد كان في غاية الانسجام و التضامن و التكافل فيما بينهم تجسد في تكتلهم في شكل جمعيات و نوادي يتدارسون فيها أمورهم و شؤونهم الخاصة.[2]

أمّا فيما يخص الحياة الاجتماعية اليومية لكبار التجار بالصين، فقد كانت تتميز بمستوى معيشي رفيع حيث تسودها الرفاهية و رغد المعيشة بالمقارنة مع باقي أفراد الشعب، إذا كانوا يتمتعون برغد المعيشة على غرار نظرائهم في شتى بقاع العالم، حيث كانوا يقيمون مع أهليهم و ذويهم في سكنات راقية خاصة و في أرقى الأحياء و المدن الصينية على ضفاف الجداول، مزودة ببساتين صغيرة جميلة، من جهة أخرى، كانوا يملكون قاعات خاصة بهم بشوارع عامة في المدن الكبرى يستقبلون فيها زبائنهم و أصحابهم.

إضافة لذلك، أنهم كانوا يستغلون أوقات راحتهم و فراغهم في اللجوء إلى وسائل التسلية والترفيه عن النفس، فقد كانوا يتجولون في مناطق و أحياء متخصصة في التسلية و الترفيه و الألعاب، خاصة في المدن الجنوبية أين كانوا مثلا يواظبون على حضور منازلات في الرياضات القتالية

---

[1] ذانج هو: المرجع السابق، ص26.

[2] Denys Lombard :op.cit, pp 60.

و ألعاب الخفة و العروض المسرحية. بل كان بعضهم يفضل البحث عن وسائل أخرى للترفيه عن نفسه بطريقته الخاصة، و خاصة تلك الوسائل المتعلقة بالفكر و الثقافة.

أما بالنسبة لاهتمامهم بتربية أولادهم، فقد كانوا يرسلون أولادهم إلى مدارس موجودة في مراكز رئيسية و التي كانت توفر لهم تعليمًا لائقا بهم و كتبًا مطبوعة.[1]

المبحث الثاني: تصنيف الشركات التجارية.

بعد التطور الذي عرفة القطاع التجاري خلال القرن الرابع الهجري، أصبحت المعاملات التجارية وعلى وجه الخصوص داخل البلاد الإسلامية تسير وفق خطط وقواعد جديدة، نتيجة الاحتكاك المتواصل بين التجار المسلمين مع غيرهم من التجار في العالم، فأسسوا الشركات وأبدعوا فيها وأسهموا فيها برؤوس أموالهم، لما وجدوا فيها من منافع و فوائد.

1. تعريف الشركات التجارية:

الشركة: لغة هي اختلاط شيء بشيء، و قيل أيضا هي الاشتراك، أي أن يشتري أحد شيئا فيشرك غيره فيه ليصير بعضه له بقسطه من الثمن.[2]

---

[1] Denys Lombard :op.cit, pp 60.

[2] محيي الدين بن شرف النووي: المجموع شرح المهذب، تحقيق الدكتور مطرحي دار الفكر للطباعة و النشر 1421هـ- 2000م، بيروت، ج 14، ص 309.

كما يمكن القول على أنها (أي الشركة) عقد متبادل بين شخصين أو أكثر في شيء بقصد أن يقتسموا ما ينتج عنه من ربح.[1]

و لذلك، فعادة ما يكون هذا الاشتراك فـــي العمـــل أو الكـــسب أو الملك، أما اصطلاحا فهي كما عند الفقهاء والخبراء عقد بين المتشاركين في رأس المال والربح، بل هي كذلك عقد في التصرف في المال، فلم تـــصح إلا من جاز له التصرف في المال كالبيع، ثم إن المتعاقدين يمكن لأحـــد مـــنهم اكتساب أهلية التوكل و التوكيل في جميع المال و في ماله، فهو وكيل عـــن صاحبه و موكل له بالتصرف.[2]

تعتبر الشركة مشروعة في الكتاب والسنة، ففي الكتاب يقـــول الله تعالى: «فهم شركاء في الثلث»،[3] و في السنة يقول الرسول صلى الله عليـــه وسلم: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فان خـــان أحـــدهما صاحبه خرجت من بينهما».[4]

فبناءً على هذين المصدرين الهامين من مصادر التشريع الإسلامي الذي كانت تستمد منه القوانين المنظمة للتجارة الإسلامية، تم اعتماد الشركات التجارية بمختلف أصنافها و أشكالها حـــسب المـــذاهب الفقهيـــة الإســـلامية المعتمدة في كل منطقة من مناطق العالم الإسلامي.

---

1 جرجس حرجس: معجم المصطلحات الفقهية و القانونية، مراجعة القاضي أنطوان الناشف، ط 1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1996م، ص 207.

2 محيي النووي المصدر السابق، ج14، ص 311.

3 سورة النساء، الآية 12.

4 رواه أبو داود عن أبي هريرة، (أنظر: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني: سنن أبي داود مع حاشية عون المعبود، عني بشرحه الحاج حسن إيراني، دار الكتاب العربي، بيروت بدون تاريخ، ج 3، ص 257).

2. أصناف الشركات التجارية:

يمكن للشركة أن تتخذ عدة وجوه، و قد تكون شركة العين و المنفعة معًا، و يمكن أن يتم ذلك سواء عن وراثة جماعة لمال أو ملكوه بواسطة تجارة أو هبة أو وصية،[1] و لذلك، يمكن تقسيم الشركة إلى قسمين رئيسيين و هما: شركة أملاك وشركة عقود.[2]

فشركة الأملاك لا تهمنا في بحثنا لأنها خاصة في قضايا الميراث والوصية والهبة وغيرها.

أما شركة العقود: فهي أن يعقد اثنان فأكثر عقدا على الاشتراك في المال، و ذلك بخلط ماليهما، فما ينتج عنهما من ربح أو خسارة يكون على قدر حِصَصيهما فيه،[3] سواء كان ذلك في التجارة أو في غيرها، وهي أنواع:

1) شركة الأبدان:

و هي أن يجعل الشركاء حين يعقدون الشركة رأس مال عملهم على تقبل العمل تتميز شركة الأبدان عن غيرها من الشركات بالاشتراك في عمل أو حرفة أو صنعة و هي نوعان:

---

[1] محيي الدين النووي: المصدر السابق، ج14، ص309.

[2] تقي الدين بن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن القاسم، مكتبة المعارف المغرب، مج 30، ص 74.

[3] بن حزم الأندلسي: المحلى بالآثار، تحقيق عبد الغفار سليمان البغدادي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع 1421هـ-2001م.

أ- شركة الأبدان مفاوضة: و هي أن يشترط الصانعان أن يتقبلا الأعمال على التساوي وأن يتساوى الربح و الخسارة و أن يكون كل واحد منهما كفيلاً عن صاحبه فيما يلحقه بسبب الشركة.

ب- **شركة الأبدان عنانًا:** يشترط فيها التفاوت في العمل و الأجر، فيكون الربح و الخسارة بينهما على نسبة ذلك.

فالمالكية اشترطوا جواز شركة الأبدان في الصناعات أن تكون في دكان واحد، أما في الأعمال الأخرى غير الصناعات فهي جائزة.

بالنسبة للحنفية، فقد أجازوا الشركة في الصناعات سواء تطابقت الصناعات أم اختلفت، أو كانت في موضع واحد أو موضعين، و مهما غاب أحدهما أو مرض فيكون ما أصابه الآخر من ربح يستفيدان منه معا أو خسارة فيتحملانها كذلك ما. غير أنها لا تجوز في الاحتطاب و الصيد عكس المالكية.[1]

أما الحنابلة فقد أجازوها مطلقا، عكس الشافعية الذين لم يجيزوها.[2]

[1] ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص 414.

[2] عبد الرحمان الجزيري: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، تحقيق أحمد فريد المزيدي و محمد فؤاد رشاد، المكتبة التوفيقية، القاهرة،ج3، ص 72 و 73.

2) شركة العنـــان:[1]

العنان بكسر العين، وهي أن يشترك اثنان في التجارة بمالهمـــا ولا يشترط فيها المساواة سواء في المال أو في التصرف أو في الربح، فيجوز أن يكون مال أحدهما أكثر من الآخر وكذلك بالنسبة للربح لا يشترط أن يكونـــا متساويان فيه، كما يجوز أن يكون أحدهما مسؤولاً أو وكـــيلاً دون الآخـــر، المهم أن يكون التراضي بينهما وعلى حسب العقد الذي أنجزاه بينهمـــا، وإذا كان ثمة خسارة فتكون على حسب نسبة رأس المال لكل منهما.[2]

يمكن أيضا للشريكين أن يشتركا في غير نوع واحد مـــن أنـــواع التجارة، كما يمكن أن تكون الوكالة فيها بين المـــسلم و الكـــافر و الـــصبي المأذون له في التجارة و البالغ.[3]

3) شركـــة المفاوضـــة:

و المفاوضة بمعنى المساواة، وسميت كذلك لكون المساواة فيها هي الشرط الأساسي للدخول فيها، وهي أن يتعاقد اثنان أو أكثر على الاشـــتراك في التجارة وفق الشروط التالية:

أ- التساوي في المال، فإذا كان أحدهما أكثر مالا من الآخر فإنها تبطل.

---

[1] العنان: معناه الحبل الذي يوصل به لجام الفرس فبواسطته يكبح الفرس، وووروده هنا بمعنى الترك أي ترك العنان، أي أن هذه الشركة ليس فيها شروط كثيرة.

[2] الأمير الصنعاني: المصدر السابق، ج3، ص 894.

[3] عبد الرحمن الجزيري: المرجع السابق، ج 3، ص 66.

ب- التساوي في التصرف، فلا يجوز أن تكون الشركة بين صبي وبالغ مثلا.

ج- التساوي في الدين، فلا يمكن أن تنعقد بين مسلم وكافر.

د- التساوي في التصرف والوكالة، بمعنى ألا يكون تصرف أحدهما في البيع والشراء أكثر من الآخر أو يوكل أحدهما دون الأخر، أو يتقاسمان الأدوار بينهما.

هـ ـ التساوي في الربح والخسارة.[1]

و قد أجازها الحنفية وقالوا إن من شروطها: أن يتساوى الشريكان في رأس المال وأن لا يكون امتلاك المال من اختصاص أحدهما دون الآخر، كما يتساويان في الربح والخسارة، و لكلا الطرفي الحق في التصرف في رأس المال ولكن لم يجعلوه شرطا.[2]

كما أجازها المالكية، ولكنهم لا يشترطون التساوي في المال، وحجتهم في ذلك هي ألا يبقي أحدهما مالا إلا ويدخله الشركة، وأما الشافعية فلا يجيزونها لأنها كما يقولون: « عقد لم يرد الشرع بمثله».[3]

4) شركة الوجوه:

سميت بشركة الوجوه لأنها تعتمد على جاه الشركاء وسمعتهم، وهي أن يشترك اثنان أو أكثر في التجارة دون رأس المال، ومن غير صنعة ولا مال، إنما يقومون بعملية الشراء بحسن سمعتهم، ثم يتقاسمون الأرباح فيما بينهم.[1]

---

[1] السيد سابق: فقه السنة، دار الجيل، بيروت، ج 3، ص 894.

[2] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 127.

[3] السيد سابق: المرجع السابق، ص 260.

و قد جوزها جل الفقهاء كأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل باعتبارها عمـــل من العمال فيجوز عقد الشركة عليه، وأما الشافعية فـــلا يجيزونهـــا لأنهـــم يعتبرون أن الشركة لا تثبت إلا بالعقد.[2]

3 - حكمـــــــها:

ما ينبغي قوله عن هذه الشركات أنها في الأصل واحدة، وحكمهـــا واحد وهو الجواز ما لم تقم على محرم، ولم يكن إشكال هذه الشركات قائمـــا أصلا، وأن هذه الأسماء التي سميت بها لم تكن شرعية ولا لغوية، بل هـــي اصطلاحات مستحدثة، جاءت في الكتب الفقهيـــة ذات التوجهـــات المذهبيـــة لغرض تصنيف أشكال وأنواع الشركات، وتبيين الجائز منها وغير الجائز من الناحية الشرعية ن ولكن ما جاء في حكمها من طرف هذه المـــذاهب تبقـــى مجرد آراء مذهبية لاستند إلى دليل شرعي صريح.[3]

و ما قام به أولئك التجار المسلمون إنما هو في صميم الشرع، وأن تصرفاتهم تلك لم تحد عنه، وبالتالي فان نشاطهم التجاري قائم على حـــسب تمذهبهم فهم معذورون.

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 128.

[2] تقي الدين ابن تيمية: المصدر السابق، ص 94.

[3] السيد سابق: المرجع السابق، 261 وما بعدها.

فصل ثـــالث: تنظيم التجارة

المبحث الأول: تنظيـــم المعاملات المالية بين التجـــار

المبحث الثاني: طـــرق وأساليـــب التعـــامـــل التجـــاري

المبحث الثالث: تنظيم الأســـواق و المبادلات التجـــارية.

رغم المجهودات الكبيرة التي بذلها الحكام المسلمون عبر العصور و الإمكانيات الضخمة التي وفروها و سخروها للنهوض بالقطاع التجـــاري و تنظيمه، إلا أنّهم لم يحققوا التطور الذي حققته التجارة الإسلامية لنفسها ، بحيث استطاعت و خلال فترة وجيزة بأن تحدث نظاما تجاريا فريـــدا، بـــل واحدا من أكبر الأنظمة التي عرفتها البشرية.[1]

غير أنها لم تستغني عن خبرات و تجارب الأمم السابقة فـــي هـــذا المجال، مثل تجمعات التجار و شركة التوصية و الاستثمار أو فـــي مجـــال المعاملات النقدية.[2]

المبحث الأول: تنظيـــم المعـــاملات الماليـــة بين التجـــار.

1) – العملة النقديـــــة:

نظرًا لأهمية العملة النقدية التي تعتبر عصب الحياة الـــذي يـــنعش الأنشطة الاقتصادية و ينظم جميع أشكال المعاملات الاقتصادية بين النـــاس، و بالأخص التجارة، حرصت الأمم الكبرى منذ بزوغ فجر الحضارات علـــى سك عملاتها النقدية ضمن أشكال تحمل ملامحها و طابعها الخـــاص، لِمَـــا تمثل من رمزٍ لقوتها الاقتصادية و سيادتها السياسية و مجد ملكهـــا و قـــدم تاريخها و حضارتها.

---

[1] أندريه ميكييل: المرجع السابق، ص169.

[2] نفسه، ص181.

و نعني بسك العملة الختم على النقود المتداولة بين الناس كالدنانير والدراهم أي وضع الختم أو الطابع عليها و الذي يكون عادة من حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة و تضرب بها النقود فتخرج رسوم تلك النقـــوش فيها. و لفظ السكة كان يطلق على الطابع أو الحديدة المتخذة لذلك، ثم أطلـــق على النقوش الظاهرة على النقود ثم استقر هذا المصطلح على هذه الوظيفـــة بصفة عامة و المتعلقة بجميع مراحل صناعة العملة النقدية. و نظرًا لشرف هذه الوظيفة السامية و سمو مكانتها، ظلّ سك العملة تحت الإشراف الرسمي و المباشر للملوك و الذي يتجسد في أختامهم المضروبة على النقـــود، ممـــا يضمن منع أي تلاعب أو غش فيها.[1]

لذلك، فقد عرفت العملة النقدية سلسلة من التطورات الفنيـــة عبـــر تاريخ الحضارات العريقة، مثل الدراهم الـــساسانية و الـــدنانير و الفلـــوس البزنطية و التي يعتبر كل منها أثرًا ماديًا لدراسة مختلف الحقب التاريخيـــة لتلك الحضارات.

فقد كانت تلك العملات النقدية القديمة تراثًا هامًا مَهَّدَ لظهور جيـــل جديد و أنماط جديدة من العملات أو المسكوكات. فعند ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، كان المسلمون مازالوا يتعاملون بتلك النقود القديمة، الشيء الذي أثار انشغال الخلفاء المسلمين في مختلف العهود الإســـلامية و حفـــزهم لإصدار نقود جديدة تختلف عن نظيراتها التقليدية القديمة شكلا و مضمونا ، و تحمل الطابع الخاص بحضارتهم المتميزة و بُعْدِهَا الروحي و تبـــين قـــوة الدولة وعزتها و سؤددها.

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص322.

لكن، يجدر بنا أن نشير قبل ذلك إلى أن هذه النقود الجديدة حافظت على أسمائها القديمة و لم يطرأ عليهاَ تغيير إلاّ من ناحية النطــق، فالــدرهم الذي كان يصنع من الفضّة، اِشْتُقَّ اسمه من أصل كلمة يونانية (درخما)، ثمّ انتقلت إلى إيران و تغير لفظها إلى (درم)، و العرب بدورهم أخــذوا هــذه الكلمة و لفظوها (درهم). أمّا الدينار و هو من الذهب، فلفظه من أصل لاتيني كان يتداول في إسبانيا خلال العهد الروماني و كذلك في البلقان، و يبدو أن هذه الكلمة أيضا انتقلت إلى العرب عن طريق إيران ذلك لأن البيزنطيين ما كانوا يستعملونها و إنّما كانوا يسمون نقودهم الذهبية (سوليدوس). و بالنسبة لكلمة فلس فهي مشتقة من كلمة يونانية (FOLLIS)، و معدن الفلس من النحاس أو البرونز.[1]

فبما أنّ مركز الدولة الفارسية كان هو الأقرب إلى دار الإسلام من غيرها، و أنّ أمرها بدأ يضمحل و قد دبّ فيها الضعف و اضطربت سياستها و بلغ فيها الفساد ذروته ، فمن الطبيعي جــدّا أن يــرث المــسلمون تركــة حضارتها المندثرة، فمن بين الأشياء التي ورثوها عملاتهــا النقديــــة مــن الذهب و الفضـــة غيــر الخالصـــة، و بقي الحال على هذا المنــوال حتـــى

---

[1] محمد أبو الفرج:النقود العمانية من خلال التاريخ الإسلامي، ط4، وزارة التراث و الثقافة، مكتبة النهضة، مسقط، سلطنة عمان 1426هـ-2005 م، ص4،3.

عهد الإصلاحات التي جرت أيام " الحجاج بن يوسف[1] " إبان حكم الخلافة الأموية.[2]

ظلّ المسلمون الأوائل كما أسلفنا يستعملون هذه النقود و كان اهتمامهم منصبا في الحفاظ على وزنها و عدم الإخلال به أو التلاعب بعياره أو قصّه أو تشويهه، و استمروا على تلك الحال إلى أن تفاقمت ظاهرة الغش في الدنانير و الدراهم نتيجة لغفلة الدولة عن ذلك فأمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان[3] الحجاج بن يوسف بضرب النقود و تمييز المغشوش منها من الخالص و ذلك سنة 74هـ، ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة 76هـ و كتب عليها "الله أحد الله الصمد".[4]

[1] هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن متعب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف و إسم ثقيف قسي بن منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر، عيّنه عبد الملك على عساكره التي بعث بها لحصار عبيد الله بن الزبير بن العوّام بمكة سنة 73 للهجرة، (أنظر : أبو الحسن المسعودي ، المصدر السابق، ص 287).

[2] قدامة بن جعفر: كتاب الخراج و صنعة الكتابة، يصدرها فؤلد سركين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا و مازن عماري و ايكهارد نويبارو، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية و الإسلامية في إطار معهد فرانكفورت بجمهورية ألمانيا الاتحادية 1407هـ- 1986م، طبع بالتصوير عن مخطوطة رقم 1076، مكتبة كوبريلي، إسطنبول، ص 39.

[3] هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية و أمه عائشة بنت المغيرة بن أبي العاص بن أمية، بويع سنة 65 هجرية (أنظر بن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص110، و أبو الحسن المسعودي: التنبيه و الإشراف، ص 286).

[4] عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 323.

و بعد أن ولي عمر بن هبيرة العراق من طرف يزيد بن عبد الملك[1] أجرى بعض التحسينات عليها، ثم جاء بعده خالد القسري خلال فترة حكم هشام بن عبد الملك[2] الذي بالغ في تحسينها و اشتد في النقود أكثر من اشتداد بن هبيرة حتى أحكم أمرها، ففرض الصرامة و النظام على الطبّاعين و أصحاب العيار و عدم التساهل والتسامح معهم و تسليط أقصى العقوبات على من ثبت فيهم الضلوع في عمليات التزوير مثل عقوبة قطع الأيدي. فأصدرت في أيامه طبعات مختلفة من النقود كالهبرية و الخالدية و اليوسفية التي كانت من أجود نقود بني أمية، و لم يكن ينقل أبو جعفر المنصور العباسي في الخراج غير تلك النقود، فسميت الدراهم الأولى بالمكروهة، ثم تمّ تحسين جودة العيار في عهد هارون الرشيد و المأمون و الواثق.[3]

غير أنّه جاء في بعض الروايات بأنّ أوّل من ضرب الدنانير و الدراهم هو مصعب ابن الزبير بالعراق سنة 70هـ بأمر من أخيه عبد الله لمّا ولي الحجاز و كتب عليها في أحد الوجهين "بركة الله" و في الآخر "اسم الله"، ثمّ غيرها الحجّاج بن يوسف بعد ذلك بسنة و كتب عليها اسم الحجّاج و قدّر وزنها حسب ما استقر عليه أيام عمر بن الخطّاب، هذا الأخير الذي عمد إلى توحيد الأوزان و ذلك بالاعتماد على الأوزان المرجعية الموثوقة

---

[1] بويع يزيد بن عبد الملك بن مروان و يكنى أبا خالد و أمه عاتكة في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز سنة 105 هجرية، (أنظر : أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص293).

[2] بويع هشام بن عبد الملك بن مروان و يكنى أبا الوليد و أمه أم هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي في اليوم الذي توفي يزيد بن عبد الملك سنة125، (أنظر: أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص 295).

[3] قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص 40.

كالبغلي[1] و الطبري[2]، و بعد أن استقر اختيار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على رأي عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عين المقدار على هذا النحو و أمر بنقش الكلمات لا الصور للنهي الصريح على اتخاذها الذي شدّد عليه الدين الإسلامي، و كان الدينار و الدرهم على شكلين مدوّرين و الكتابة عليها في شكل دوائر متوازية يكتب في أحد وجهيها أسماء الله تهليلاً و تحميدًا و صلاةً على النبي و آله و في الوجه الثاني التاريخ و اسم الخليفة، و بقي سكها على هذا المنوال طيلة عهد الأمويين و العبّاسيين و العبيديين.[3]

وهناك أمر آخر ينبغي الإشارة إليه، و هو أنه بعد تدفق كميات كبيرة من الذهب والفضة وتوفر المعادن الهامة كالنحاس والقصدير في العالم الإسلامي بفضل الفتوحات الإسلامية التي ورثت من خلالها مناجم هذه المعادن النقدية، ونتيجة لمحاولات عدة و مجهودات كبيرة سخرت لسك العملة من طرف الخلفاء، عرفت أول عملة إسلامية النور أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وذلك بين عامي: (74-75 هـ) (693 م-695 م) الذي أشرف بنفسه على ضرب الدينار الذهبي.[4]

[1] يزن البغلي تقريبًا أربع غرامات (أنظر، أبو الفرج العش: المرجع السابق، ص 5).

[2] يزن الطبري حوالي غرامين (أنظر، المرجع نفسه).

[3] عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 323.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 152.

لقد كانت هذه العملة رمزا لقوة الدولة وازدهارها، فكانت عاملا في انتعاش التجارة الإسلامية، وفي ظرف قياسي استطاعت هذه العملة أن تعمل على تقهقر العملات النقدية الأخرى كالدينار البيزنطي والدرهم الفارسي.[1]

وكان الدينار الذهبي في هذا القرن يساوي نحو الأربعة عشرة درهما، ولكن بعد الانقسام الذي حدث في العالم الإسلامي وانفصال القسم الشرقي عن الغربي خلال نفس القرن، ونظرا لغنى القسم الغربي بمعدن الذهب، ارتفعت العملة ارتفاعا مذهلا في المشرق وذلك في نهاية القرن الرابع الهجري.[2]

و في القرن الرابع الهجري أيضا ضرب ركن الدولة بن بويه دينارا كان يتكون أغلبه من النحاس وكان يقبل بثلث الدرهم المعتاد ،[3] وذلك نظرا لافتقار الدولة في الشرق إلى معدن الذهب بكمية تسمح لها بضرب الدينار الذهبي من جديد، لأن مناجم الذهب كما أشرنا من قبل معظمها موجود في إفريقيا.[4]

إلاّ أنّ المقدسي يخبرنا عن دنانير و دراهم انتشرت في زمانه عرفت بتسميات مختلفة حسب المناطق التي زارها قائلا:« ونقودهم مختلفة،

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق ، ص 153.

[2] آدم متز: المرجع السابق، ص 790 وما بعدها.

[3] نفسه، ص 791.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 154 وما بعدها.

لأهل مكة المطوقة وهي و العثرية ثلثا المثقال[1] تؤخذ كدراهم اليمن عدداً وتفصل العثرية حتى ربما كان بينهما دريهم، ودينار عدن قيمة سبعة دراهم وهو ثلثا البغوي تزن ولا تعد، ودينار عمان ثلاثون غير أنه يوزن. والدراهم المستعملة في الإقليم تسمى بمكة المحمدية، ولأهل مكة المزبقة أربعة وعشرون بمطوق ضعف أختمى تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلى آخر الموسم، ولأهل اليمن العلوية تختلف باختلاف البلدان حتى ربما بطلت، في بعضها قيمة أربعة منها درهم وزنته حول الدانق[2] ولهم قروض ربما غلت فصارت ثلاثة بدانق وربما صارت أربعة، ولأهل عمان الطسوه.[3]

كما عرف القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) انتشار دراهم بألوان مختلفة و خاصة بمنطقة بخارى فمنها على سبيل المثال دراهم تدعى "الغطفرية" و هي من نحاس يساوي مائة منها درهم واحد من فضة، و لهم أيضا دراهم أخرى صفر يقال لها "السمرقندية" يساوي ستة منها بدانق.[4]

[1] المثقال: وزن معلوم قدره، مقدار من الوزن أي شيء كان من قليل أو كثير و زنة المثقال هذا المتعامل به الآن: درهم واحد و ثلاثة أسباع درهم (أنظر جمال الدين بن منظور: المصدر السابق، ج3، ص29).

[2] من الأوزان، و ربما قيل داناق كما هو للدرهم دِرهام، و هو سدس الدرهم. و الدانق كذلك بفتح النون و كسرِها: هو سدس الدينار و الدرهم و الجمع دوانق، (أنظر جمال الدين محمد بن منظور: المصدر السابق، ج5، ص 308).

[3] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص99.

[4] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: رسالة بن فضلان، تحقق سامي الدهان، ط2، مديرية إحياء التراث العربي، دمشق .

و بالتالي عزف الناس لاسيما التجار عن ادخار العملة مخافـة أن تفقد قيمتها بالتدريج، فعمدوا إلى توظيفها فـورا فـي الـصفقات التجاريـة والعقارية، فحققوا على إثرها أرباحا كبيرة.[1]

كما اشتهر القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) بانتشار عملات نقدية أخرى غير الدينار و الدرهم، ففي السند حسب ما ذكر المقدسي انتشرت دراهم تسمى: « بالقاهريات، لكلّ واحد خمسة».[2] غيـر أنّ الرحالـة "أبـا دلف"أخبرنا عن عملة نقدية تحمل إلى حد كبير نفس التسمية مـع اخـتلاف بسيط في اللفظ، و لكن نسبها إلى بلاد أخرى بعيدة تحاذي الصين و هـي " كله بار"[3]، فقال: « و درهمهم يزن ثلثي درهمنا و يعرف بالفهزي»[4] و هـو ما يخالف قول "المقدسي" إذا كان اسم العملة التي ذكرها هـي نفـسها، لأن هناك أوجه تشابه بين اسمي العملة التي وردت في كتابيهما حسب ما أشـار إليه محقق كتاب "أبي دلف"، و لكن هناك احتمال كبير على أنهما ليستا نفس العملة باعتبار أن وزن التي ذكره الأوّل ليس نفس وزن التي ذكرها الثاني.

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 154 وما بعدها.

[2] شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المعروف با لبشاري المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل 1906 م ، ص 481.

[3] كله بار: الملايو، ملقة، كله بار، أسماء لما يعرف بماليزيا اليوم، (أنظر: أطلس دول العالم الإسلامي (جغرافي تاريخي اقتصادي)، لشوقي أبي خليل، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت 1419هـ-1999م، ص105.

[4] مسعر بن المهلهل أبو دلف الخزرجي: الرسالة الأولى، دراسة و تحقيق: مريزن سعيد مريزن عسيري، مركز إحياء التراث الإسلامي بمعهد البحوث العلمية و إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة 1416هـ-1995م، ص 60.

ثم يضيف المقدسي ذاكرًا نقودًا أخرى منتشرة كذلك بالسند غير القاهريات فقال: «و لهم الطاطرا في الواحد درهمان إلاّ ثلثا»[1] بينما ورد نفس اسم العملة لدى ابن رسته باسم "الطاطري" (بإضافة حرف الياء عِوضًا عن ألف طبعًا)، و لكن، ليست لنفس البلاد بل في بعض مناحي الهند نقش عليها صورة لتمثال الملك[2]، ، مما يطرح نفس الإشكال، لكن رغم ذلك، نقر بكفاءة الاثنين ونرجح عامل الانتشار الذي تميزت به هذه العملة.

أما في الصين فقد كان التعامل فيها بعملة نقدية محلية و هي عبارة عن نقود مصنوعة من معدن النحاس.[3]

و من حين لآخر كذلك، كانت الدولة و خاصة في فترات الضعف و نظراً لعجزها على توفير السيولة النقدية اللازمة لتغطية سوق المبادلات بشكل كاف، تلجأ إلى الحلول المستعجلة و المتمثلة خاصة في تحصيل الضرائب، لإعادة توزيع الأموال و التوازن للسيولة النقدية، لقطع الطريق أمام الذين يستغلون مثل هذه الظروف في اللجوء إلى تزييف العملات.[4]

غير أنه و حسبما ذكر لنا "ابن بطوطة" بأن أهل الصين في عهده لا يتبايعون بدينار ولا بدرهم لأن جميع ما يتحصلون عليه من نقود يسكبونه قطعًا، و إنّما كانوا يتعاملون في بيعهم و شرائهم بقطع من الكاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان و تسمّى الخمس و العشرون منها

---

[1] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 481.

[2] أحمد بن رسته، المصدر السابق، ص 135.

[3] Denys Lomard: op.cit, p 65.

[4] Ibid, p :60.

"بالِشْت" و إذا تمزقت إحداهن في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكّة فيأخذ قطعة جديدة عوضًا عنها، و إذا أراد أحد أن يشتري شيئا في السوق و معه نقود أخرى غير تلك الأوراق لم تقبل منه و لا يستطيع شراء شيء بها حتّى يصرفها بالبالشت.[1] و يفهم من كلام ابن بطوطة بأن العملة النقدية بالصين تطورت في وقته لتصبح ورقية بعد أن كانت في السابق من المعادن كما هو الحال عندنا في الوقت الحاضر، و هو ما يفسر بأن الصين كانت السبّاقة في إصدار العملة الورقية.

2) الصكوك:

و كانت المعاملات التجارية الضخمة تستدعي وسائل للدفع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص بحيث تعوض عبء الأموال المحمولة والمعرضة للمخاطر في كل حين.

و لهذا فقد استخدم الصك في التجارة وفي حالات أخرى لدفع العطاء والرزق، فهو عبارة عن أمر خطي يدفع بواسطته مقدار من النقود أو الرزق إلى الشخص الوارد اسمه فيه،[2] وقد جاء في لسان العرب: " والصك الذي يكتب للعهد معرب أصله جك (بالفارسية)، ويجمع صكاكا وصكوكا، وكانت الأرزاق تسمى صكاكا لأنها كانت تخرج مكتوبة ".[3]

---

[1] محمد ابن بطوطة: المصدر السابقج2، ص87.

[2] محمد سيف: المرجع السابق، ص 144.

[3] جمال الدين محمد ابن منظور: نفس المصدر، ج8، 263.

و عن دور الصكوك جاء أيضا "وذلك أن الأمراء كـــانوا يكتبـــون للناس أرزاقهم وأعطيتهم كتبا، فيبيعون ما فيها قبـــل أن يقبـــضوها معجـــلا ويعطون للمشتري الصك ليمضي ويقبضه ".[1]

و لقد انتشر استعمال الصك في القرن الرابـــع الهجـــري(العاشـــر الميلادي)، وكان الصراف يشرف على التعامل بها، ويوضح لنـــا الرحالـــة ناصر خسرو كيفية التعامل بهذه الصكوك أثناء رحلته إلى البـــصرة فقـــال: « والعمل في السوق هكذا: كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكا ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف فلا يـــستخدم المـــشتري شيئا غير صك الصراف طالما يقيم بالمدين».[2]

هذا، إلاّ أنّ العرب مع إدخالهم مفهوم الحوالة – صـــك أو شـــيك- جعلوا تمويل المبادلات التجارية أكثر مرونة.[3]

3) السفاتـــج:

جمع سفتجة وهي وثيقة أو بطاقة تسلم إلى صاحب البريد بعـــد أن تملأ من طرف المسافر إن التاجر ويضع فيها القيمة الماليـــة التـــي ينـــوي

[1] جمال الدين محمد ابن منظور: نفس المصدر، ج8، 263.

[2] ناصر خسرو: سفر نامة، ترجمة يحي الخشاب، ط 2، دار الكتاب الجديد، بيروت 1970م، ص 146.

[3] رجائي الملاح مع دوروثي المالاح: عبقرية الحضارة العربية منبع الحضارة الأروبية،ترجمة: عبد الكريم محفوض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق1972، ص405.

إرسالها ثم يمضي عليها صاحب البريد بعد أن يقبض المـــال، فكانـــت هـــذه السفاتج تلعب دور الحوالات (في العصر الحاضر)[1].

كما أن مصطلح السفتجة ما زال يُتَدَاوَلُ لحد الآن في المعـــاملات المالية، و يدعى أيضًا بسند السحب، و يحتوي على:

- كلمة سفتجة أو سند السحب في نص السند نفـــسه باللغـــة المستعملة في كتابة هذا السند؛
- التوكيل الصريح بدفع مبلغ معيّن؛
- التوكيل الصريح الذي يجب أن يدفع (المسحوب عليه)؛
- بيان تاريخ الاستحقاق؛
- بيان المحل الذي يجب أن يجري فيه الدفع؛
- إسم الشخص الذي يجب أن يجري الدفع له؛
- توقيع الساحب.[2]

لذا، فقد كان التجار يستعملون السفنجة للدفع في الـــبلاد البعيـــدة فيسلمونها أو يتسلمونها عوض المال فيستفيدون من ذلك أمن الطريق. ولقـــد خففت هذه الوسيلة من الصعوبات والمخاطر التي تنجم عن نقل النقود بـــين الأقاليم المتباعدة، وما تتعرض لها من خطر السرقة فهي مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص، وقد يقوم الأمناء والـــوكلاء عبـــر

---

[1] المعجم الوسيط، تأليف:إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، ط 2، دار المعارف، بيروت، بدون تاريخ، ج 1، ص 432.

[2] جرجس حرجس: المرجع السابق، ص 201.

الأقاليم البعيدة بتحويل هذه السفاتج إلى نقود، وربما استعملت في البيع والشراء، ولكنها لا تكون سارية المفعول إلا بتوقيع من صاحبها.[1]

كما كانت المبالغ المستحقة على التجار أو لفائدتهم تدفع لأصحابها أو تستوفى منهم عن طريق الاعتماد المالي. و كثيرًا ما كان التجار المتنقلون يستودعون وكلاءهم مبالغ طائلة، شريطة أن يتعهد هؤلاء بعدم مسّها أو التصرف بها إلاّ بأمر صريح منهم.[2]

4) دور الصـــــرف:

نظرًا لأهمية وظيفة الصرف في توفير المادة الأساسية في المعاملات المالية و التجارية المتمثلة في العملات النقدية المتداولة و صرفها، ومساهمتها في إعداد وسائل التعامل المالي المتمثلة في الأوراق ذات القيمة المالية التي تعمل على تسهيل و تفعيل جميع أشكال العمليات التجارية، حرصت الدولة الإسلامية على إنشاء مكاتب أو إدارات خاصة بذلك تدعى بدور الصرف.

و نظرًا لدقة وظائف و مهام هذه الدور و حساسيتها كونها إذا لم تحترم القواعد الفقهية الخاصة بها تكون أقرب للوقوع في عمليات مشبوهة و بالتالي الوقوع في دائرة المحظور، خاصة إذا تعلق الأمر بالمعاملات الربوية، لاسيّما و أنّ القوانين التي تتحكم في تسيير هذه الدور مستمدّة من التشريع الإسلامي.

---

[1] محمد سيف: المرجع السابق، ص 145.

[2] إدوارد بروي:المرجع السابق،ج3، ص 194.

لذلك فقد كانت المعاملات المالية محط اهتمام كبار العلماء و الفقهاء المسلمين فخصصوا لها بابًا خاصّا بها سموه بـــاب الـــصرف أو الـــصيارفة يُبَـــيِّـــنـــُون فيه أحكام الشريعة وفق النصوص الشرعية المتمثلة في الكتاب و السنة النبوية و ما استنبطوه من أحكام بواسطة أدوات الاجتهـــاد لـــديهم، فبينوا الجائز منها و المحرم.[1]

و فيما يتعلّق بالمعاملات المصرفية، فإنّها كانت وقفًا على كبار التجار، أمّا الصيارفة فقد تميّزوا عنهم بأنّهم اختصوا بأعمال الصيرفة المحليّة و كثيرًا ما كان أولئك الصيارفة جهابذة، أي يعهد إليهم من قبل بيت المال، لِخبرَتهم بتمييز الجيّد من الزائف بين تلك النقود التي تدفع للخراج، و كانوا يتقاضون عمولةً عن خدماتهم، كما كان بإمكانهم المشاركة في المضاربات المالية و التجارية.[2]

كما كان تعدد دور الضرب و مهارة الذميين في التبادل النقدي و ظهور نظام المصارف الأثر البالغ في تنشيط حركية المعاملات التجارية، بين المدن الإسلامية.[3]

و من جراء اعتناق سكان العديد من البلدان للإسلام و إقبال المسلمين على التجارة أن كثر عدد الصيارفة في المدن و المراكز التجارة، و هي أعمال كان يتعاطاها النصارى و اليهود و المجوس و عدد من

---

[1] أبو بكر محمد بن أبي سهل شمس الدين السرخسي: المبسوط، ط1، دار الكتب العلمية، بيرروت 1414هـــ-1993م، مج7، ج14، ص3.

[2] إدوارد بروي: المرجع السابق، ج3، ص 194.

[3] عبد المجيد الكبيسي: المرجع السابق، ص168.

المسلمين على السواء. فالفوارق الدينية لم تكن أبدًا حاجزًا أو عائقًا أمام تعاطي مثل هذه الأعمال.[1]

و لم تكن هذه الدور حديثة عهد في القرن الرابع الهجري (العاشــر الميلادي)، فقد كانت موجودة في العصر الأموي فكان لها شان كبيــر فــي التعامل التجاري، ويذكر أنها « من الوسائل التي ساعدت على نمو التعامــل التجاري وجود الصيارفة في أسواق الحجاز في العهد الأموي».[2]

أما عن طبيعة العمل الصيرفي، فقبل التطرق إليه ينبغي إعطــــاء و لو بصفة موجزة بطاقة تعريفية عن المفهوم الاصطلاحي للصيرفة، فالصرف بمعناه الاصطلاحي هو كما جاء في لسان العرب: « فضل الدرهم على الدرهم و الدينار على الدينار، لأنّ كلّ واحد يصرف على قيمة صاحبه، و الصرف بيع الذهب بالفضة، و من ذلك ينصرف به من الجوهر إلى الجوهر. و التصريف في جميــع البيــاعات إنفــاق الدراهم، والصــرف و الصيرف و الصيرفي: النقــاّد من المُصَارفة و هو من التصرف، و الجمع صيارف و صيارفة. يقال صرفت الدراهم بالدنانير، و بين الدرهمين صرفٌ أي فضلٌ لِجودةِ فضّةِ أحدهما»[3]. مهامه، كما هو معروف هو تحويل الدنانير إلى دراهم وبالعكس، فكان الرجل يدفع الدينار للصراف فيزنه ثم يعطيه بدله دراهم.

---

[1] إدوارد بروي: المرجع السابق، ج3، ص 195.

[2] محمد سيف، المرجع السابق، ص 147.

[3] جمال الدين محمّد بن منظور، المصدر السابق، ج8، 229.

و من مهامه أيضا منح الصكوك مقابل أموال تودع أو تحويلها إلى أموال لغرض تسهيل عمليات البيع و الشراء، و لا يستعمل في المدينة غيـــر صكوكه.

و لم يقتصر دور أولئك الصيارفة على الصرف فحسب، بل كـــانوا يزاولون نشاطات أخرى كبيع الذهب، والمتاجرة في السلع، وإقراض النقود.[1]

و لقد اهتمت الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) بأعمال الصيارفة، فعملت على توفير عدد هائل من الصرافين في المدن والأسواق العامة.

و نظرا لكثرة طلب المجتمع لهم، فقد خصت لهم الدولة أروقة خاصة بهم في الأسواق، ولقد ذكر الرحالة ناصر خسرو مثالا حيا عن سوق الصرافين في أصبهان:[2] « "و رأيت فيها سوقا من أسواق الصرافين كان بها مائتا صراف".[3]

و كانت بأصفهان أيضا جالية يهودية كانت تشتغل في الصيرفة،[4] وقد كانوا يزاولون نفس النشاط في بغداد.

---

[1] ناصر خسرو، المصدر السابق، 146.

[2] أصبهان، أو أصفهان، وهي مدينة تقع بين الري و فراسان (انظر: محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، ط 2، مكتبة لبنان 1984م، ص 483).

[3] ناصر خسرو: المصدر السابق، ص 154.

[4] إدوارد يروى: المرجع السابق، ص 139.

كما كان بالبصرة عدد لا بأس به من دور الصرف، ولقد أصبحت في أواخر القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) أكبر مركز مصرفي في الخلافة العباسية.[1]

أمـــا في الهنـــد فقد كـــان بالزابج[2] عـــدد هائل من الصرّافين المنتشريـــن في أســـواقها كما يذكـــر لنا بزرك: « و عددت في ســـوق الصيـــارف بهذا البلـــد ثمان مائة صيرفي، ســـوى ما في البلـــد من الصيارف المتفرقين في الأسواق»[3].

5) الجهبـــذة:

الجهبذ مشتق من كلمة فارسية "كهبذ" جمع "جهابذة"، معناها الأصلي: الناقد الخبير الذي يميّز بين الجيّد و الرديء.[4] و نستطيع أن نشبهه بما يعرف حاليًا "الخبير المالي"، و لكن بصلاحيات أوسع، إِذْ كان يجمع بين الخبرة (أي بمعنى التخصص و المهارة) في التحقيق المالي و مهام أخرى كما سوف نرى.

---

[1] إدوارد يروى: المرجع السابق ، ص 140.

[2] هي جزيرة في أقص بلاد الهند وراء بحر الهركند عند حدود الصين (أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة و النشر 1976هـــ ـــ1975م، مج 3، ص124).

[3] بزرك بن شهريار: المصدر السابق، ص132.

[4] بطرس البستاني: محيط المحيط ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1993، ص161.

لم تكن الجهبذة وليدة القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)" بل كانت في عصور غابرة، ولكن كانت بتسميات مختلفة، فكانت تعرف مثلا بالناقد الخبير، أو صاحب مصرف إن الصراف لكثرة اشتباهه بالصيرفي.[1]

و لكنه كان يعرف عند الفرس وخاصة الساسانيون بكاتب الخراج و كذلك في العصور الإسلامية الأولى، ثم توسع نشاطه في العهد العباسي إلى الأمصار والأقاليم الأخرى بحيث كانوا يستعينون به في جباية الضرائب.[2]

و في بغداد كان هناك ديوان الجهبذة "، كانت مهمته تقديم تقارير وحسابات حول المدخولات و المخروجات من بيت المال، و جباية الأموال من خراج و غيره، إضافة إلى تمويل و تسديد نفقات الدولة و سد عجز خزينتها أو بما يسمى بيت مال المسلمين، ولتقريب الفهم فهناك أوجه الشبه إلى حدّ ما بينه و بين ما يعرف حاليًا بالمحاسب العمومي أو القابض البلدي، مع بعض أوجه الاختلاف طبعًا، لكن أحيانا عندما يتجاوز صلاحياته المخولة له أو يتعسف في استعمالها فإنه سرعان ينجر عنه فساد و ظلم كبير، سواء تعلق الأمر بطريقة جباية الأموال أو تمويل النفقات إذا لم تراعى فيها الضوابط الشرعية و القانونية.[3]

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 129 – 130.

[2] نفسه.

[3] قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص41،42.

و بالتالي انتقل الكثير من الجهابذة من كتاب خراج إلى أصحاب بيوت المال، كما حدث في عهد وزارة "ابن الفرات"[1] من سنة 296 إلى299 ه/ 908 –911 م، فمثلا عين اليهودي يوسف بن فنجاس جهبذا على الأهواز.[2]

و لقد لعب أولئك الجهابذة أصحاب بيوت المال دورا بارزا ليس في تخزين الأموال واقتراض التجار فحسب بل أقرضت الدولة عنـــد احتياجهـــا وأثناء تعرضها للأزمات، كما فعل الوزير ابن الفرات مع جهبـــذة الأهـــواز، عندما اقترض منه المال لدفع رواتب الكتاب.

و في مرحلة أخرى يتحول الجهابذة إلى جهابذة الدولة الرســـميين، عندما أســـس الوزيـــر الأعظم علي بن عيسى مصرفا رسميا 300-304 ه / 912 - 916 م، فجعل على رأسه الجهبذان اليهوديان: هارون بـــن عمـــران، ويوسف بن فنجاس لخبرتهما الكبيرة في مجال الصيرفة ليصبح هذا المصرف نظرا للأموال الكبيرة التي تودع فيه وكأنه بنك حقيقي.[3]

---

[1] الوزير الكبير أبو الحسن علي بن أبي جعفر محمج بن موسى بن الحسن بن الفرات العاقولي الكاتب، كان الفرات يتولّى الدواوين زمن المكتفي، فلمّا ولي المقتدر ووزر له ابن العباس بن الحسن بقي بن الفرات في ولايته، ثم ولي الوزارة بعد مقتل العباس الوزير، ثم عزل و ولي عدة مرات حتى قتل سنة312هـ/888م،(أنظر: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج14، ص 474).

[2] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 129 – 130.

[3] نفسه، ص 130.

المبحث الثاني: طــرق وأساليــب التعــامل التجــاري

كان التعامل التجاري يتم غالبا بالمقايضة، وذلك حسب ما يقتــضيه الشرع، ويرى الكثير من العلماء أن البيع لا يتم إلا إذا كان مصحوبا بقــول صريح علني من الجانبين وهو أن يقول البائع: بعــت ويقــول المــشتري: اشتريت.

تلك إذا صيغة البيع حسب شريعة الإسلام، فكان التعامل التجــاري يقوم على هذا الأساس ولكن بطرق شتى أشهرها:

أ ــ الطريقة الأولى: طريقة المقايضة:وهي طريقة شــرعية لا غبــار عليها وتتم من غير نقود عادة، أي يتم استبدال سلعة بسلعة أخــرى إلا فــي أمور معلومة قد حددها الشرع كالذهب والفضة والبر والتمــر فــلا يجــوز المقايضة بمثلها وخاصة إذا كانت النوعية متفاوتة، فإنها تدخل في المعاملات الربوية المحرمة.

و كانت طريقة المقايضة هذه مشهورة في جزر المحيط الهنــدي،[1] و مــع الصين في بعض الأحيان كما كان الحال بالنسبة للتجار المسلمين الذين كانوا يقيمون بإحدى الجزر التابعة للصين، فقد ذكر المروزي أنهم كانوا يقومــون بدور الوسطاء التجاريين بحيث يأخذون معهم البضائع التي يــستلمونها مــن التجار الأجانب إلى داخل الصين فيستبدلونها لهم ببضائع أخرى.[2]

---

[1] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص 153.

[2] شرف الزمان المروزي: أبواب الصين والترك والهند، ص15.

ب- الطريقة الثانية: وهي طريقة التعامل المزدوج: وهـــي أن يأخـــذ التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم، ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلـــك البلاد، و قد كانت تستعمل في كل من الصين و بعض مناطق بالهند و علـــى وجه أخص في البصرة.[1]

ج- الطريقة الثالثة: طريقة الاتجار المباشر: كانت البضائع أحيانـــا تقـــبض ثمنا، أي يأخذ التجار العملة المحلية مقابل بضائعهم التـــي يبيعونهـــا دون أن يشتروا البضائع المحلية، وكانت هذه الطريقة تستعمل من طـــرف الممالـــك الأخرى مع العالم الإسلامي لقاء العملة الإسلامية الذهبيـــة، وكانـــت هـــذه الطريقة تستعمل في أوروبا الشرقية.[2]

المبحث الثالث: تنظيـــم الأســـواق و المبـــادلات التجـــارية.

كانت التجارة كما أسلفنا خلال الحقب المتعاقبة من الحكم الإسلامي محل اهتمام من قبل أولي الأمر، فأولتهـــا الـــسلطات بمختلـــف مـــستوياتها و درجاتها الاهتمام البالغ و أفردت لها عناية خاصة.

و لذلك، فقد عرفت التجارة الإسلامية بشقيها الداخلي و الخـــارجي تنظيما محكما لا مثيل له، و لقد ساعدها في ذلـــك التـــشريعات و القـــوانين الصارمة التي كانت تنظمها و تضبط سلوكات المتعاملين فيها، المستوحاة من الكتاب و السنة، الشيء الذي جعلها تتفوق على باقي الأمم في هذا المجال.

---

[1] وليام الخازن: الحضارة العباسية، ط2، دار المشرق ش م م، بيروت 1992، ص85.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 303.

غير أنها في القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) ونظرا للظروف الحرجة التي مرت بها الأمة الإسلامية و التي سبق و أن تطرقنا إليها، فقد طرأت عليها بعض التغييرات أفقدتها بعض أخلاقياتها، نظرا لتراجع دعم الدولة لها و ضعف جهاز الرقابة الذي كان يسهر على تطبيق القوانين المتعلقة بتنظيمها، مما أفسح المجال لبعض كبار التجار بفرض بعض السلوكات التي لم تكن لدى أسلافهم، حيث أصبحت الأسواق بصفة تلقائية الأماكن المناسبة لذلك.

I) الأسواق:

تعتبر الأسواق من الأماكن التي كانت تمد المدن الإسلامية بالحياة باعتبارها من المحركات الأساسية التي تحرك بها عجلة الاقتصاد، بل كانت تعد من بين المؤشرات الهامة الدالة على رفاهية المجتمع الإسلامي و إحدى المعالم الرئيسية التي كانت تزخر بها الحضارة الإسلامية، و لذلك، انصب اهتمام الخلفاء و الملوك المسلمين بتنظيمها و تطويرها بل تنافسوا في التفنن في بنائها و تشييدها.

1- تنظيمها:

و بما أن التجارة كان مركزها الأسواق، فقد كانت الأسواق جزءا حيويا هاما من المدن، إذ على أساسها كانت تبنى وتشيد المدن باعتبارها هي القلب النابض للمجتمعات الإنسانية، إذ بها تتمركز وتنطلق النشاطات: الاقتصادية المختلفة و بها تتعلق معايش الناس وأرزاقهم.

ونظرا لأهمية السوق في حياة المجتمع الإسلامي، عمـد الخلفـاء المسلمون منذ العهود الأولى للإسلام إلي تنظيمها وتطويرها، وخاصة عندما اتسعت رقعة الخلافة الإسلامية، وتمركز الخلفاء في المدن الكبرى من بـلاد الشام والعراق وفارس ومصر، إذ لم يعود بحاجة إلى تلك الأسواق الموسمية المتنقلة التي كانت في الجاهلية، بحيث بدأت كل مدينـة تـستغني بأسـواقها الدائمة عن تلك الأسواق، وأصبحت تجارات كثيرة ومن بلدان متعددة تـأتى مباشرة إلى تلك المدن.[1] فكانت العادة تقتضي في المدن الإسلامية أن تحتـل الأسواق أهم الشوارع فيها و أكثرها جذبا للسكان في ذهابهم و إيابهم، فهـي تأخذ شكلا طوليا و متشعبا أحيانا الذي يبدأ من مركز المدينة عنـد المـسجد الجامع و يمتد مع المحاور الكبرى التي تتجه نحو مداخل أو مخارج المدينة.[2]

فأشهر نماذج الأسواق الإسلامية و أوسعها انتـشارًا فـي العـالم الإسلامي هي ما يسمى حاليًا بنظام البازار، فقد كان هذا النوع من الأسـواق أكثر انتـشارًا خاصـةً فـي مـصر و سـوريا و أرمينيـا و تركـستان و أفغانستان و كذا في بلاد ما بين النهرين . و مما يُعْرَفُ عن هذه الـسوق سعة الطريق التي تتوسطها و التي يبلغ عرضها حوالي خمسة عـشرة (15) مترًا، كما أن هذه السوق مغطاة بأسقف في شكل قباب من الآجـر، و تعـد بالمئات بل بالآلاف أحيانا، حيث أن فوق كل مربع داخل السوق الذي يمثـل صنفاً من التجارة أو المهنة قبة، و توجد بهذه القباب فتحات التهوية في شكل نوافذ صغيرة يبلغ قطرها مقدار متر واحد. بينما توجد أسواق أخرى ضـمن

---

[1] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 393.

[2] محمد الكبيسي: المرجع السابق، ج2، ص 166.

نفس النمط تقريبا لكنها مفتوحة لا سقف لها و تنتشر في النواحي الواقعة على ضفاف البحر الأسود.[1]

غير أن كل منطقة من العالم الإسلامي كانت لها أعراف وطـــرق خاصة في تنظيم الأسواق، ففي المشرق وخاصة في فـــارس كانـــت العـــادة تستلزم جمع الدكاكين صفوفا في مكان واحد، كالدار التي بناها عضد الدولـــة بن بويه بفارس، وقد بنى أيضا أسواقا أخرى في غاية الحسن والنقاء عليهـــا دروب تغلق في كل ليلة.

و أما في العراق وبقية المناطق العربية المجـــــاورة فقـــد كانـــت الدكـــــاكين تمتد على طول الشوارع، على كل جنب صنف منها كمـــــــا كان الشـــــــــأن بالنسبة لبغداد،[2] و لذلك لما بنيت بغداد لم يجعل لـــسوقها مكانا مخصصا لها، [3] بل كانت عبارة عن مجموعات من الدكاكين والحوانيت مصطفة على طول الطرقات والأزقة وتحت القناطر، ولما رأت السلطات أن الغرباء يفدون بكثرة على المدينة حتى تضيق بهم الطرقات مما يؤثر المـــارة ويحرج السكان، جعلوا السوق خارج المجمعات السكانية، كما كـــان الحـــال بالنسبة لربض الكرخ الذي يقع بجنوب المدينة، وهو حي التجارة والصناعة.[4]

---

[1] Aly Mazahéri : La Vie Quotidienne des Musulmans au Moyen Age X^{e} au XIII^{e} siècle, Librairie HCHETTE , Paris sans date, pp 195 et 196.

[2] آدم متز : المرجع السابق، ص 798 وما بعدها.

[3] نفسه، ص 798.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 171.

وكانت الأسواق في غاية الحسن والتنظيم والنظافة، بحيث كان أصحاب المهن والحرف المتشابهة في مكان واحد، فمن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار فمن المستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين و البزازين لعدم المجانسة بينهم و حصول الأضرار[1] فالحدادون والنحاسون والصائغون نجدهم في صف واحد، بينما نجد الصيادلة والعطارين و البزّازين وأصحاب الجواهر في مكان أخر متجمعين كذلك، والهراسين و الشوّائين في حيز خاص بهم، وهكذا كانت هذه الأسواق في غاية التنسيق والدقة، دون خلط بين هذه المهن.[2]

و فيما يخص المقاييس و القواعد التي كانت تتبع في مجال تهيئة الأسواق و تنظيمها، فكانت التدابير تقتضي مثلاً بأن تكون الأسواق في الارتفاع و الاتساع ما وضعته الروم قديما، و يكون في جانبيها إفريزان عليهما يمشي الناس في زمن الشتاء إذا لم تكن هذه مبلطة. كما ينبغي لأصحاب الدكاكين و الحوانيت أن يلتزموا بالمساحات المسموحة قانونا لهم لعرض سلعهم، فلا يجوز لهم إخراج مصاطبهم عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي لأنه يعتبر تعد على المارة.[3]

و كان المُطِلُّون على الطرقات و الدروب من السكان و التجار يمنعون من إخراج جدران دورهم أو دكاكينهم عن الحدود المسموح بها أو ترك الميازيب الظاهرة من الحيطان خلال فصل الشتاء و مجاري الأوساخ

[1] عبد الرحمان بن النصر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ط1، تحقيق الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ص ص11 و 12.

[2] آدم متز: المرجع السابق، ص 800.

[3] عبد الرحمان الشيزري: المصدر السابق، ص 11.

الخارجة من منازلهم أو محلاتهم في فصل الصيف إلى وسط الطريــق، بــل تأمرهم السلطات المحلية عن طريق المحتسبين بحفر مسلات فـــي حيطـــانهم تكون مكلسة تسمح بمرور مياه الأسطح فوقها، و حفر كبيرة تحـــت الأرض تجتمع إليها المياه القذرة.[1]

وكانت كل طائفة من التجار بمختلف أجناسهم تأتى إلـــى الـــسوق وتجلس في مكان مخصص لهم، وكانوا يمكثون إلى ما بعد الظهر ثم يأكلون في إحدى مطابخ أو هراسي المدينة أو السوق، وربما استحضروا شيئا مـــن الطعام إلى دكاكينهم وحوانيتهم ولا يذهبون إلى بيوتهم أو فنـــادقهم إلا فـــي المساء، فعند انتهاء السوق يعود الأجانب منهم إلـــى الفنـــادق التـــي أعـــدت خصيصا لهم، والتي تدعى أيضا مخازن أو حانات، لأن أولئك التجار كـــانوا يضعون أمتعتهم وبضائعهم في أسفلها وينامون ويسمرون في أعلاهـــا، كمـــا كان الحال في دار البطيخ بالبصرة وكانت مشهورة بأصـــناف كثيـــرة مـــن الفواكه.[2]

أمّا في الصين، فكانت الأسواق فيها متواجدة داخـــل المـــدن إمّـــا مجمعة و محاطة بأسوار، حيث كانت الدكاكين و الحوانيت فيهـــا مـــصطفة بشكل منظم، أو تتواجد بشكل منتشر عبر الطرق و الأزقة حسب نوع التجارة أو الحرفة.[3]

---

1 عبد الرحمان الشيزري: المصدر السابق، ص 14.

2 آدم متز: المرجع السابق، ص 799.

3 Vadime Ellisseff , Jean Nadou , Gaston Wiet et Philippe Wolff : Histoire de l'umanité (Moyen-age), UNESCO, Paris 1992, V3, P108).

و هناك أسواق متخصصة في نوع معين من السلع أو المصنوعات دون الأخرى قلما توجد في أي مكان آخر في الصين.[1]

و لقد قُدِّرَ عدد الأسواق في إحدى المدن الجنوبية للصين بعشرة أسواق منتشرة على ضفاف الجداول المتفرعة عن الأنهار، و هي مبنية كلها بالحجر، ينزل إليها التجار الأجانب و خاصة الهنود.[2]

كما كان بالأسواق فئة من الباعة المتجولين يبيعون أمتعتهم المختلفة كالأقمشة و الفواكه وغيرها و قد اتخذ كل واحد منهم عربة من غير دابة يدفعها بيده يعرض فيه بضائعه و يجلس عليها أحيانا.

و من حين لآخر كان التجار يستغلون أوقات فراغهم في الترفيه عن أنفسهم باللجوء إلى ألعاب القمار، إذ لا يكاد يخلو محل أو حانوت داخل الأسواق من كعاب النرد التي يلعبون بها.[3]

كما تم تخصيص مساحات واسعة تضاهي مساحة تلك الأسواق داخلها مخصصة للترفيه و التسلية للمارة.[4]

---

[1] كاڤين رايلي: الغرب و العالم(الحضارة من خلال موضوعات) ترجمة: عبد الوهاب محمد المسيري، هدى عبد الحميد حجازي، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت،رمضان 1405هـ ـ يونيو 1985م، القسم الأول، ص219.

[2] Denys Lombard :op.cit, pp85.

[3] شرف الزمان المروزي: المصدر السابق، ص4.

[4] كاڤين رايلي: المرجع السابق، ص218.

فيما يخص الهند لم يعرف تنظيم الأسواق بها التطور الحضاري الذي عرفته مثيلاتها بالبلاد الإسلامية أو الصين، بل لا زالت أسواقها تحتفظ بشكلها المفتوح و طابعها البدائي.[1]

فإن نظام الأسواق في بعض المدن يتمثل في بناء شوارع خاصة بالدكاكين تطل على الشارع الرئيسي.[2]

2- مراقبتـــــــــها:

لا ينبغي أن نغفل عن الدور الذي لعبته السلطة في تنظيم سير هذه الأسواق والسهر على مراقبة نشاطات المتعاملين بداخلها سواء كانوا تجارا أو صيارفة أو صناعا أو غير ذلك من أجل الحفاظ على صحة وأمـــن النـــاس وتوفير الراحة والطمأنينة لهم قبل أو بعد عملية الابتياع.

و لذلك، فقد عرفت الدولة الإسلامية منذ نـــشأتها نظامـــا خاصـــا بالأسواق فسخرت لها الحسبة التي تقوم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهـــي عن المنكر، فهي تشبه القضاء إلا انه تختلف معه في كونها سريعة البت في القضايا والأحكام في جميع التصرفات والمعاملات وفـــي شـــتى الميـــادين، وارتبطت نشأة هذه الخطة وفصلها عن القضاء في ظروف كانت الحاجة فيها إلى تغيير المنكرات في الطرقات و الأسواق بشكل جدي وحازم. ونظرا لأن

---

[1] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص153.

[2] دراسات ألمانية حول الشرق الأوسط، ط1، تحقيق أبو جين قيرت ، تحرير و ترجمة: فؤاد ابراهيم، محمد الحجيزي، جرونت روتر، مانفرد شنايدر، ط1 المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت، 1983، ص403.

أكثر نشاطه كان ينحصر في الأسواق صار المحتسب يعرف بصاحب السوق.[1]

ولقد لعبت الحسبة دورا لا يستهان به في تنظيم الحياة: الاقتصادية والاجتماعية وبالأخص التجارة وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد كان أول من مارس الحسبة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي مر على السوق فوجد الطعام أعلاه سليم وأسفله مبللا فقال: "من غشنا فليس منّا".[2]

و كان تعيين النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب على سوق المدينة وسعد ابن أبي وقاص على سوق مكة لدليل واضح على اهتمامه عليه الصلاة والسلام بتنظيم حياة الناس وشؤونهم،[3] و ذلك طبعًا في إطار تعاليم دينهم حرصا على سعادتهم.

تم اتبع الخلفاء الراشدون نفس الطريق، فقد مارس عمر ابن الخطاب الحسبة بنفسه وهو خليفة للمسلمين، وقد اتسمت الفترة التي حكم فيها بالعدل والتراحم، وكان يربي الناس قولا وعملا، يوجه الناس ويعظهم تارة و يعزرهم ويضرب بعضهم أن استحق ذلك كما فعل مع صاحب الجمل الذي أثقل على جمله.

---

[1] موسى لقبال: الحسبة المذهبية، ط1 (ش، و،ن، ت) الجزائر 1981 م، ص 34، 35.

[2] واللفظ لمسلم: « من غشني فليس مني »، (انظر الأمير الصنعاني: المصدر السابق، ص 830).

[3] موسى لقبال، المرجع السابق، ص 22.

ثم تطور نظام الحسبة مع مر العصور ومع اتساع مهامه حتى أنه جعل لها ديوان خاص لمحاربة بعض الآفات.[1]

و هكذا ظهرت الحسبة كهيئة شرعية تسهر علـــى حـــل المـــشاكل الاجتماعية و الاقتصادية ومحاربة الآفات الاجتماعية و الاقتصادية، وكـــان المحتسب يعين من طرف الخليفة أو الوالي أو الوزير أو القاضي في منصبه الإداري هذا شريطة أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط أهمها: الدين والورع والعلم والوجاهة والشدة، ويكلف بالبـــت فـــي القـــضايا التـــي ليـــست مـــن اختصاصات القاضي إن والي المظالم أو الشرطة.[2]

و كان المحتسب يتخذ لنفسه سوطا و درة و طرطورا و غلمانـــا و أعمانا، و هذا قصد تجسيد هيبة الدولة و فرض احتـــرام قوانينهـــا، فـــيلازم الأسواق و الدروب في أوقات الغفلة، و يتخذ كذلك عيونا يوصلون له الأخبار و أحوال السوقة.[3]

كما كان المحتسب يقوم بجولات تفتيشية مكوكيـــة يتفقـــد خلالهـــا الأسواق، وكان في اغلب الأحيان يركب دابته وحوله أعوانه ومعهم المكاييل و الموازين المعتمدة فيزن الخبز، لأن الخبز عندهم معلوم الوزن فمن وجدوه يطفف عزروه، وإذا عاد شهروا به ثم أخرجوه من السوق.[4]

---

[1] موسى لقبال، المرجع السابق ، ص 22.
[2] نفسه، ص 24.
[3] عبد الرحمان الشيزري: المصدر السابق، ص10.
[4] نفسه، ص 35.

و لكن، لا يمكن للمحتسب أن يكون محيطا أو ملما تمـــام الإلمـــام بأفعال السوقة و الباعة، لذلك، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفا مـــن صالح أهلها، خبيرا بصناعتهم، بصيرا بغشهم و تدليسهم، مـــشهورا بالثقـــة و الأمانة، يكون مشرفا على أحوالهم و يطالع المحتسب بأخبارهم و ما يجلب إلى أسواقهم من السلع و البضائع و ما يستقر عليه من الأسعار و غير ذلـــك من الأسباب التي ينبغي للمحتسب معرفتها و الإحاطة بها.

و كان المحتسب أيضا يمنع تلقي الركبان، و هو الاستباق لملاقـــاة القوافل التجارية لشراء ما تحمله من البضائع بغرض التحكم و السيطرة على الأسواق أو احتكار طعامها، و هذا مما نهى عنه الشرع كما أسلفنا.

و من مهامه كذلك، الحرص على نظافة الأسواق و الحفاظ علـــى نظامها الداخلي، بحيث يمنع أحمال الحطب و أعدال التبن و روايـــا المـــاء وبقايا السراجين و الرماد و أشباه ذلك من الدخول بها إلى السوق لما تلحقـــه من ضرر بلباس الناس، و يأمر جلابي الحطب و التبن و نحـــوهم بوضـــع أحمالهم عن ظهور الدواب إذا توقفوا داخلها، لأنها إذا وقفت و الأحمال عليها أضرتها و كان ذلك بمثابة تعذيب لها. كما يأمر أصحاب الأســـواق بكنـــسها و تنظيفها من الأوساخ و الطين المتجمع فيها وغير ذلك مما يضر بالناس.[1]

و هكذا، فقد لعبت الحسبة دورا مهما في تنظيم الحيـــاة التجاريـــة المتجسدة في السوق نظرا لما لها من أهمية كبيرة وخاصـــة فـــي المجتمـــع الإسلامي فهي قلبها النابض وعنوان نشاطه وحيويته.

---

[1] عبد الرحمان الشيزري: المصدر السابق، ص12-14.

3- أشهر الأســـــــواق:

نحاول هنا أن نرصد نماذج هامة عن الأسواق في العصر الوسيط وعلى وجه الخصوص في القرن الرابع الهجري لكي تتضح الصورة أكثـــر حول أهمية هذه الأسواق ليس على المستوى المحلي فحسب بل على المستوى العالمي وقد كانت في نفس الوقت محطات تجارية.

أ- أســواق البصـــــرة:

البصرة هي مدينة لها من المميزات الجغرافية ما يجعلها جديرة بان تكون مدينة تجارية هامة، حيث تقع على شط العرب إلى الجنوب الشرقي من بغداد على مسيرة ثلاثمائة ميل، وكانت تدعى إبان العصر الوسيط بلــسوره (BALSORA)،[1] فبوقوعها عند مصب نهري الدجلة والفرات اللذان يعتبـــران الطريقان المائيان الكبيران لتجارة البلدان الواقعة بجوارهما وحولهمـــا لأنهـــا تعتبر نقطة اتصال بين العرب والعجم، وملتقى الطرق الصحراوية من نجـــد إلى الشام.[2]

و من أراد العراق فما عليه إلا أن يمر بالبصرة، فهي محط القوافل التجارية. فالبصرة إذا من مدن العراق ولكنها ليست قديمة، وإنمـــا اختطـــت وبنيت في الفترة الإسلامية كما جاء: " فان مدينة البصرة مدينة عظيمـــة لـــم تكن في أيام العجم وإنما اختطها المسلمون أيام عمر ابن الخطاب ومـــصرها "عتبة بن غزوان".[3]

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية: المرجع السابق، ج3، ص 668.

[2] دائرة المعارف الإسلامية: المرجع السابق، ج3، ص 668.

[3] أبو القاسم ابن حوقل: المصدر السابق، ص 212.

و لقد اختلف في السنة التي أسس فيه عتبة بن غـزوان البـصرة، أكان سنة 16 ه (637 م) أم سنة 14 ه (635 م) والأرجح أنه في سنة 14 هـ.[1]

و كانت البصرة في بداية الأمر معسكرا للجيش الإسلامي، وقد أنشئت لذلك الغرض سنة 14 ه (635 م).[2]

و لكنها ما لبثت أن أصبحت من المراكز التجارية الهامة في العالم، و ظلت بموقعها الممتاز عند التقاء دجلة والفرات على رأس الخليج الفارسي من أهم المحطات للتجارة الشرقية، وتتصل المدينة بالنهر بقناتين يـصلانها ببغداد والخليج الفارسي، وبالمدينة سوق ضخم وجمرك.[3]

فأصبحت البصرة بكاملها و كأنها سـوق ضـخمة تلتقـي عنـدها تجارات العالم، كما كان بها مخازن ومستودعات للمتاجر الشرقية والغربيـة، وتنتهي عندها بعض طرق القوافل، وشهدت المدينة أزهى عصورها طـوال العصور الوسطى، فهي مخرج تجارة العراق وتتصل بالصين والهنـد بـرا وبحرا كما تتصل بالشام واسيا الصغرى، حتى أنها وصفت« بمانشستر الجزء الجنوبي من ارض الجزيرة»،[4] فلا غرابة في أن توصف بهـذه الأوصـاف الحميدة، والتي لا تليق إلا بالمدن العظيمة مثل البصرة وقد كانت تدعى عندما بدأ سيطها يذيع: " أرض الهند"،[5] لأنها كانت على اتصال مستمر ببلاد الهنـد

---

[1] لحافظ ابن كثير: المصدر السابق، ج 7، ص 47 –48.

[2] دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، ص 668.

[3] نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، المكتبة العربية القاهرة 1393 – 1973م، ص 122.

[4] نعيم زكي: المرجع السابق، ص122.

[5] لحافظ بن كثير: المصدر السابق، ص 48.

عن طريق التجار، وخاصة التجار العرب والمسلمين، وكأنها أصبحت هـــي والهند بلاد واحدة، وهذا كذلك يرجع إلى العلاقات التاريخية التي كانت بـــين المنطقتين كما أسلفنا الذكر (ونقصد هنا الهند والعراق بصفة عامة).

و يحضرنا هنا قول عمر ابن الخطاب لعتبة بن غزوان حـــين ولاّه البصرة: «إني استعملتك على أرض الهند».[1]

و ممّا زاد من أهمية البصرة اشتهار أهلها بالتجـــارة منـــذ القـــدم والترامي في الأسفار البعيدة وضربا في الأرض طلبـــا للـــرزق والطمـــوح للشراء.[2]

وليس من باب الصدفة أن يكون أول من ألف حول التجارة[3] هـــو الجاحظ وهو من أهل البصرة وهو الذي يقول:«يقال ليس في الأرض بلـــدة واسطة ولا نائية، شاسعة ولا طرف من الأطراف إلا وأنت واجد بها المدني والبصري و الحيري».[4]

ولعل شهرة البصرة تكمن أيضا في أهمية الأسواق التي تحتضنها، وتقيمها بحيث تحتوي على عدد هائل من الأسواق فمنها اليومية والأسبوعية[5]

---

[1] لحافظ بن كثير: المصدر السابق، ص 48.

[2] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 402.

[3] ألف الجاحظ كتاب هام حول التجارة سماه التبصر بالتجارة، يذكر فيه البضائع التي كان يتـــاجر فيهـــا العرب.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري: البخلاء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر 1997 الجزائر، ص 226.

[5] آدم متز: المرجع السابق، ص 798.

و يذكر لنا المقدسي بعض هذه الأسواق قائلا:« وأسواقها ثلاثة: قطع الكلأ على النهر، وسوق الكبير، وباب الجامع، وكل أسواقها حسنة والبلد أعجب إلي من بغداد».[1] و يبدو أن جل أسواق البصرة موجودة على جوانب وشواطئ الأنهار والسبب في ذلك أن غالبية البضائع وخاصة الثقيلة منها كالخشب، تحمل على القوارب نظرا لسعتها وسرعتها مع مجاري الأنهار وبالتالي بقدر ما تكون قريبة من النهر بقدر ما تقل تكاليف النقل، ويخف عناء حملها و التنقل بها.

و كانت أغلب البضائع تحمل على نهر الفرات الذي كان صالحا للملاحة،[2] وكانت أكبر شبكة من النهيرات الصغيرة حتى قيل أن عددها فاق المائة وعشرين ألف نهر تجري فيها الزواريق الصغيرة،[3] مما يشكل شبكة هامة من المواصلات المائية.

و قد سمحت هذه الشبكة من النهيرات الصغيرة ظهور أسواق على ضفافها مما عجل بتشكيل أحياء تجارية هامة، حتى أن هذه الأحياء أصبحت مع مرور الزمن مدن تجارية صغيرة متفرعة عن البصرة ترد إليها الأمتعة من مختلف الأقطار، ولذلك يقول بن حوقل:« وللبصرة من استفاضة الذكر بالتجارة والمتاع و المجالب والجهاز إلى سائر الأقطار ما يستغني بشهرته

[1] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 117.

[2] آدم متز: المرجع السابق، ص 807.

[3] نفسه، ص 808.

عن إعادة ذكر فيه، ولها من المدن: عبدان[1] و الأبلة والمفتح و المذار[2] في مجاري مياه الدجلة، وهي مدن صغيرة ومتقاربة في الكبر عامرة ».[3]

و أكبر هذه المدن وأشهرها الأبلة كما يقول ابن حوقل: « و الأبلة أكبرها وأفسحها رقعة وهي أحد حدود البصرة من جهة نهرها، و الأبلة من بينها عامرة، و بها أسواق صالحة».[4]

و لكن هناك سوق كبيرة في البصرة فريدة عصرها تميزت عن غيرها من الأسواق كونها أنها الوحيدة التي ورثت خصائص أسواق الجاهلية فأصبغتها صبغة إسلامية أعطتها نفحة حضارية، حق أصبحت مرآة تعكس حياة العرب في الجاهلية، في قالب إسلامي رائع، تلك هي سوق" المربد".
وأهل كلمة المربد هو محبس الإبل أو عطنها، ويطلق كذلك على بيدر التمر لأنه يربد فيه ويعرض للشمس.[5]

و مربد البصرة متسع للإبل تربد فيه للبيع، أي أنها كانت في الأصل سوقا للإبل،[6] وتقع على بعد ثلاثة أميال من البصرة غربا أي بجوار

---

[1] عبادان مدينة صغيرة في جزيرة بين دجلة العراق ونهر خوزستان على البحر، كان فيها عباد صالحون واغلبهم صناع، وكانت المدينة تشتهر بالحصر العبادانية، (انظر البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 118).

[2] المذار: بالعراق وهي مدينة ميسان على ضفة دجلة، (انظر محمد الحميري: المصدر السابق، ص 530).

[3] أبو القاسم ابن حوقل: المصدر السابق، ص 214.

[4] نفسه.

[5] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 408.

[6] نفسه، ص 407.

بابها الغربي[1] فبدأت الحياة التجارية تدب فيها شيئا فشيئا في عهـد الخلفـاء الراشدين، وكان أغلب ما يتاجر فيها التمر والإبل والسلاح والغنائم التي كان يجلبها الفاتحون معهم ثم يبيعونها فيها.[2]

و لقد نجم عن فتح فارس وما حولها من إغـراق هـذه الأسـواق بالغنائم المتنوعة، فما تحصل عليه المسلمون بعد فتح المدائن مـن الأمـوال و الحواصل و التحف قد بلغت حدا لا يوصف كثرة وعظمة، فقد كان يـأتي بعضهم دور وقصور الفرس فيجدون في بيت واحد أواني الذهب والفضة قد ملأت أعلاه.[3]

ناهيك عن إيوان كسرى الذي وجدوا فيه من الجواهر والحلي مـا يعجز اللسان على وصفها [4] الشيء الذي بعث الحيوية في أسـواق العـراق وخاصة كما قلنا سوق المربد، التي عرفت انتعاشا كبيرا في أيام الراشدين.

و في عهد الأمويين تحولت سوق المربد إلى سوق عامة كبيرة قـد بلغت شهرتها الأفاق، ولم تكن تقتصر على عرض البضائع وبيعها، بل كانت مجالا لعرض ما جادت به قرائح الأدباء والشعراء واللغـويين والنحـويين، ومحل تفاخر القبائل التي تعرض أشعارها ومفاخرها، حق أصبحت مجتمـع

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 167.

[2] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 419.

[3] الحافظ ابن كثير: المصدر السابق، ص 67.

[4] نفسه، ص 66.

العرب و متحدثهم ومتنزه البصريين، حتى أنهـــا أضـــحت تـــدعى "عكـــاظ الإسلام".[1]

و قد بلغت في أيام العباسيين عصرها الذهبي، حيث أصبحت محط القوافل الغادية والرائحة من وإلى مختلف الأقطار والأمصار، وقـــد كانـــت يومئذ المستودع الكبيرة لتجارة المحيط الهندي.[2]

و قد كانت المتاجر والبضائع المستوردة مـــن مختلـــف الأمـــصار وخاصة من الهند تختزن فيها وتوزع علـــى مراكـــز مختلفـــة مـــن العـــالم الإسلامي.[3]

و كانت الأرصفة تزين ذلك الموضع بحيث تجعل له منه اقرب ما يكون إلى حي كبير للأعمال بأسواقه ومحلاته المتنوعة وحياته الثقافية الحافلة لوجود الجامع الكبير ومكتبات الوراقين.[4] مما يدل على وجود حيـــاة ثقافيـــة و اقتصادية وحضارية تزخر بها المنطقة.

و قد أصبح الحديث في ذلك العهد حول البصرة لا يدور إلا علـــى مركزين هامين فيها وهما الأبلة والمربد، فالأبلة تـــستقبل الـــسفن التجاريـــة والمربد تستقبل القوافل التجارية.[5] ولكن في غالب الأحيان يصعد ما في الأبلة إلى المربد.

---

[1] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 407.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 167.

[3] السيد مقبول: المرجعالسابق، ص 122.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 167.

[5] دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، ص 670.

فعندها تنصب الأسواق وتنفرد كل سوق ببضاعتها أو صـــناعتها، فتعرض البضاعة المحلية والمستوردة على السواء، فيحصل التبادل التجاري فيكون العرض والطلب فأكثر ما يكون في هذه السوق البيع بالجملة وبأثمـــان جذابة ليضمن التجار بيعهم وأحيانا تكون المزايدة على التحف الناذرة.[1]

و كان النشاط التجاري يستمر في البصرة دائما طوال اليوم علـــى مراحل وفي جهات مختلفة كما يذكر الرحالة خسرو:«وينصب ســـوق فـــي البصرة في ثلاث جهات: كل يوم: ففي الصباح يجري التبادل فـــي الـــسوق خزاعة، وفي الظهر في سوق عثمان وفي المغرب في سوق القداحين».[2]

و هكذا أصبحت البصرة كما يقول اليعقوبي: «و البـــصرة كانـــت مدينة الدنيا و معدن تجارتها».[3] لا تنام عين فيها ولا تستيقظ إلى على سكون أو صخب التجار فيها.

ب- أســـواق بغـــــداد:

بغداد حاضرة العراق،[4] وتدعى أيضا مدينة السلام، أحـــدثت فـــي الإسلام، وبالضبط في العصر العباسي كما يذكر ابن حوقل:« ومدينة السلام

---

1 السيد مقبول: المرجع السابق، ص 122.

2 ناصر خسرو: المصدر السابق، ص 146.

3 أحمد بن يعقوب بن واضح اليعقوبي: كتاب البلدان، مطبع بريل مدينة ليدن المحروسة 1891م، ص 323.

4 دائرة المعارف الإسلامية، ج 4، ص 3، 4 و ما بعدها.

محدثة في الإسلام، ابتناها أبو جعفر المنصور بالجانب الغربي من دجلة، وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه».[1]

و لقد أنشئت هذه المدينة الجليلة على أنقاض مدينة بابل أو بالقرب منها، ولقد جاء في الأعراق النفيسة:" مدينة السلام وهي المسماة بغداد، اسم لموضع كانت في تلك البقعة من قبل، زعموا انه موضعا للأوثان والأصنام في الدهر القديم، وهي أرض بابل أقدم هذه المواضع كلها وكانت الملوك الأوائل تنزل بها من قبل".[2]

و أصل كلمة بغداد كما يقول لومبارد:« نتج عن عبارة دينية إيرانية هي " بغ – داذ " أي هبة الله ".[3] وهذا الاشتقاق يشابه تعريف الحميري: «و بغداد بالفارسية عطية الصنم، لان بغ صنم، و داذ عطية».[4]

و لكنه من جانب آخر يسرد لنا تعريفا آخر مغايرا له حيث يقول: «باغ بالفارسية هو البستان الكثير الشجر، و "داذ" معطي فمعناه معطي البساتين».[5]

---

[1] أبو القاسم بن حوقل: المصدر السابق، ص 215 و ما بعدها.

[2] أحمد ابن رسته: المصدر السابق ص108.

[3] موريس لمبارد، المرجع السابق، ص 170.

[4] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 110.

[5] نفسه.

ثم يذكر لنا تسمية بغداد بمدينة السلام مشتقة من نهرهـــا:« وإنمـــا سميت مدينة السلام لأن دجلة كان يقال له وادي السلام، فقيل لبغداد مدينـــة السلام».[1]

و أما بالنسبة لموقع بغداد كما يذكر ابن جبير: «جانبـــان شـــرقي وغربي ودجلة بينهما»،[2] بحيث تقع عند تقاطع ثلاث طرق نهرية وطـــريقين بريين، فالطرق النهرية تقود شمالا نحو حوض الدجلة الأعلى إلى الموصـــل وأرمينية، ونحو الشمال الغربي بواسطة نهر عيسى ونهر الفرات إلى بـــلاد الشام، ونحو الجنوب الشرقي بواسطة الدجلة وشـــط العـــرب إلـــى الخلـــيج العربي.

أما الطرق البرية فتؤدي باتجاه الشمال الشرقي إلى إيـــران وآســـيا الوسطى ونحو الجنوب الشرقي إلى جزيرة العرب.[3]

و لم تكن لبغداد قبل الإسلام سوى أهمية محلية، وان كانت مأهولة حينئذ لوجود قصر ساساني بها،[4] كما توجد بها بعض الأديرة النصرانية كمـــا جاء في كتاب البلدان:« ولم يكن ببغداد سوى دير على موضع مصب السراة إلى الدجلة».[5]

---

1 محمد الحميري: المصدر السابق، ص 110.

2 أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير: رحلة ابن جبير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، سلسلة أنيس 1988م، ص 197.

3 موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 168.

4 نفسه، ص 170.

5 أحمد بن يعقوب اليعقوبي: المصدر السابق، ص 235.

إلا أنها كانت أيام الفتح الأولى لفارس سوقا، ونستشف ذلك خلال الغارة التي شنها المثني قائد الجيش الإسلامي على سوق بغداد انتقاما من خيانة أهل المنطقة له عندما نقضت العهود وامتنعت عن دفع الجزية، فأمر المثني الجنود بألا يأخذوا من السوق إلا الذهب والفضة والأمتعة الحسنة التي يقدرون على حملها.[1]

و أول من بنى المدينة هو أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، فوقف يوما عند موضعها قبل أن يؤسسها فقال: «ما اسم هذا الموضع ؟ قيل له بغداد فقال: هذه والله المدينة التي أعلمني أبي (محمد بن علي) أني أبنيها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والإسلام».[2] فأمر المنصور ببنائها في الجانب الغربي من الدجلة و أنفق عليها الأموال العظيمة التي قدرت بأربعة آلاف دينار، كما أمر بنقل أبواب واسط إليها لتركب حولها، و بنى قصرا عظيما في وسطها، يقال أن دوره اثنتا عشرة قصبة، و في داخله يقع الجامع، و قصر المهدي يقابل قصر المنصور في الضفة المقابلة و هما في مدينتين يسقيهما نهر الدجلة و بينهما جسر من السفن. بالإضافة إلى العمائر و البنايات و المرافق الأخرى التي تم تشييدها سواء في عهد المنصور أو في عهد الأمراء الذين جاؤوا من بعدهم، فقد كانت بغداد أيام البرامكة مدينة عظيمة حيث بلغ عدد حمامتها آنذاك ستين ألفا .[3]

---

1 احمد عادل: المرجع السابق، ص 455.

2 أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص 237 وما بعدها.

3 سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي: خريدة العجائب و فريدة الغرائب، ط3، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان 1991م، ص 55-56.

إذًا، فقد تم تأسيس هذه المدينة في عام 145هـ – 762 م واستدعي إليها الصناع من كل حدب وصوب والمختصين بشؤون العمران وبنوها خلال أربعة أعوام على شكل دائري محاطة بالأسوار ومزودة بأبراج، ولها أربعة أبواب.[1]

لتصبح في ظرف قصير من أكبر المدن: الاقتصادية، وعاصمة سياسية واقتصادية لأكبر وأعمر خلافة إسلامية على مر العصور، حتى وصفت" بمصر الإسلام".[2]

و لذلك، فقد افتتح اليعقوبي كتابه " البلدان " بذكر مدينة بغداد، فقال وهو يعلل ذلك: «وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا، و سرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء».[3]

فقد كان بناء بغداد حدثا تاريخيا هاما في تاريخ العلاقات العربية الهندية التجارية إذ انه للمرة الأولى« تصبح عاصمة الدولة العربية على اتصال مباشر بالبحر العربي عن طريق نظام مائي يعتمد على نهري دجلة والفرات اللذين كان يصبان في الخليج مجتمعين».[4]

---

1 موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 170.

2 البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 119.

3 نفسه، ص 233.

4 السيد مقبول: المرجع السابق، ص 121.

كما أدى تأسيس مدينة بغداد إلى انطلاقة حاسمة للتجارة البحرية تجاه الشرق الأقصى، فاتجه المسلمون إلى ما تسمى اليوم كوريا بقسميها الشمالي و الجنوبي، و أقاموا مستعمرات نشطة في كانتون و في الجنوب الغربي للهند.[1]

إضافة إلى ذلك، فقد كانت بغداد وسيطا بين شرق الرقعة الإسلامية و غربها، بل وسيطا بين أقطار عالمية غير مسلمة بفضل ما كانت تنتجه و تستورده مما لا يأتي لأقطار أخرى أن تحصل عليه بسهولة.[2]

و قد جعلها موقعها الجغرافي الممتاز مركزا تجاريا هاما في المنطقة العربية، حيث يتربع على منطقة تغذيها الطرق المائية والمتمثلة في دجلة والفرات والتي يصلانها بالطرق البحرية،[3] الشيء الذي جعلها منطقة مزدهرة بالتجارة والعمران نظرا لتوافد الناس عليها، وكما تعتبر أيضا ملتقى الطرق التجارية البرية والبحرية العالمية وهذا ما لمسناه ما سقاه لنا اليعقوبي في معرض حديثه عن بغداد:« ولأنها سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار و الكور وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، أثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم فليس من أهل بلد إلا ولهم فيه محلة ومتجر ومتصرف، فاجتمع بها ما ليس في الدنيا ثم بجري في حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات و المير برا وبحرا بأيسر السعي من أرض الإسلام، ومن غير أرض الإسلام».[4]

---

[1] أندريه ميكيل: المرجع السابق، ص 184.

[2] إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 159.

[3] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، 133.

[4] أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص 233 و ما بعدها.

وقامت المدينة في بداية الأمر مستديرة متحلقة حول القصر والجامع الكبير ثم بالتعاقب حول بيوت الوجهاء والوزراء وحاشية الخليفة، وكانت هناك أربعة شوارع رئيسية تقطع المدينة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

و مباني بغداد معظمها من القصب والطوب و الكلس والجبس، يفسدها هواؤها، فلا تكاد تمر فترة من الزمن حتى تتضرر بناياتها من شدة العوامل الطبيعية، حتى أن الرخام يتشقق من الحر.[1]

و قد أدى الاكتظاظ السكاني، وكثافة المتاجر والحوانيت في الدروب والأزقة وتحت القناطر إلى معاناة مدينة بغداد من الضيق والازدحام، وخاصة مع توافد المسافرين والتجار الأجانب، إلى محاولة توسعة المدينة، فاندفعت نحو اتجاهين متعاكسين أوله نحو الجنوب حيث يقوم ربض الكرخ وهو حي للتجارة والصناعة، ثانيه إلى ما وراء نهر دجلة الذي يجتازه جسر من المراكب حيث كان يقوم الحي السكني بعيد عن الجمهور الصاخب، وحيث كانت توجد في جانبه قصر الخلافة، وقد بدأت حركة الاتساع هاته سنة 768م.

و في ظرف ثلاثين عاما أي في مطلع القرن التاسع الميلادي أصبحت بغداد مدينة عظيمة كثيفة السكان ممتدة على عشرة في تسعة كيلومترات أي بما يعادل مدينة باريس وضواحيها.[2]

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق ، ص 170.

[2] نفسه، ص 171.

و على هذا الأساس قامت أسواق كبيرة في بغداد، وقد خصص لمثل هذه الأسواق أمكنة خاصة خارج المدينة.[1]

مثلما حدث للبصرة عندما جعل سوقها الكبير المربد خارج المجمعات السكانية، ومن أعظم هذه الأسواق وأجلها وأشهرها:" سوق الكرخ" التي تقع كما قلنا جنوب بغداد عند إحدى أبوابها في موضع يدعى ربض الكرخ، يقول عنها اليعقوبي:« و الكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح إلى سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين، ومن قطيعة الربيع إلى دجلة عرضا مقدار فرسخ»،[2] و قد كانت من قبل طريقا إلى بغداد.[3] و كلمة كرخ أصلها باللغة الأرمينية "كركا" أي السوق.[4]

و لقد كانت هذه السوق في غاية التنظيم والدقة والانضباط في احترام القانون الداخلي للسوق من طرف التجار، فقد وصفها لنا اليعقوبي في كلمات معدودات وصفا دقيقا وجميلا:" فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة، وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت و عراص، وليس يختلط قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيره وكل سوق منفرد، وكل أهل منفردون بتجارتهم وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم".[5]

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ج 3، ص 249،250.

[2] أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص 246.

[3] أحمد عادل: المرجع السابق، ص 288.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 170.

5 أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص 246.

وهذه الصفة يمكن أن تقول غالبة على جل أسواق العراق، وهـذا التشابه ربما يأتي إما بالتأثير، فتتأثر الأسواق بالسوق المثالية التـي تعطـي مثالا عن نظامها وجمالها ونظافتها، وتكون محل الإقتداء مثل هذه السوق أي "الكرخ" أو أن السلطة المحلية هي التي تؤثر فتعرض نموذجا معينا لها، وإما أن يأتي ذلك عن طريق التنافس بين المناطق والأنحاء و المدن، مع العلم أنه كان يقام عند كل باب سوقا ترتبط شهرتها باسم تلك الباب مثل باب الكـرخ، أو باب الشام، والتي يقول عنها اليعقوبي:" والسوق المعروفة بـسوق الـشام وهي سوق عظيمة، فيها جميع التجارات والبياعات، ممتدة ذات اليمين وذات الشمال آهلة عامرة الشوارع والدروب".[1]

وأما الحي التجاري الرئيسي في الجـانب الشرقي من بغـداد فهو: " باب الطاق " في طرف الجسم المركزي، ومنه يتفـرع سـوقان: " سـوق الأساكفة " و " سوق الطيب " حيث تباع العطور والزهور، ووراء هذه السوق تقع سوق الطعام وفيها محلات للخبازين والقصابين.[2]

و لقد لعبت المجاري المائية أيضا في ترقية التبادل التجـاري فـي المنطقة، وكانت حركة الملاحة كبيرة على نهر دجلة الذي يمر على بغـداد، فكانت البضائع تنحدر من أرمينية إلى الموصل ثم تكون محطتها الرئيـسية ببغداد.[3]

---

[1] أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص 248.

[2] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 134.

[3] آدم متز: المرجع السابق، ص 809.

كما تصعد إلى بغداد عبر المجاري المائية أيضا بضائع و منتجات البصرة، واسط و البطائح [1] و سلع الهند على المراكب، وقد عدد لنا المغربي هذه السلع: " وأرخص ما فيها التمر الذي يجلب من البصرة والأرز وقصب السكر الذي يجلب من البطائح، وجهات واسط فيها التفاح الواسطي، والعنب الرازقي، والنارنج القروي والليمون البعقوبي، والورق البغدادي والأقلام الواسطية وتصعد إليها المراكب ببضائع الهند في دجلة".[2]

و كانت بغداد في عهودها المزدهرة تشبه مدينة البندقية بإيطاليا، وذلك لأنها كانت تظهر وكأنها عائمة في النهر، والناس تغدو وتروح في قواربهم في حيوية ونشاط وصخب، وكانت السفن التي تنقل البضائع تقف عند أسواق عديدة، وقد يصل عدد هذه السفن أحيانا ثلاثين ألفا، ويقدر كسب ملاحيها من جراء نقلهم للناس والبضائع كل يوم بتسعين ألف درهم.[3]

و مهما تكلمنا عن بغداد وأسواقها و حيويتها، فلا نستطيع إن نفيها حقها والمهم هنا هو أن تجار كل بضاعة كانت لهم سوق خاصة بهم، وأن القسم الغربي من بغداد كان أحسن في التجارة من القسم الشرقي وأن بغداد في مجملها عاصمة العراق التجارية وإليها تجلب البضائع من أنحاء العالم.[4]

---

[1] البطائح الأراضي المنخفضة تشبه المستنقعات والتي يرمي الفرات إليها فضلاته وتقع أمام الكوفة وتسمى كذلك بطائح االكوفة، (أنظر ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 156).

[2] ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 158.

[3] آدم متز: المرجع السابق، ص 809.

[4] عبد العزيزالدوري: المرجع السابق، ص 134.

و هذا يصدقه قول اليعقوبي:"فإنه يحمل إليها من الهند و السند والصين والتبت والترك و الديلم و الخزر[1] و الحبشة وسائر البلدان حتى تكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها، ويكون مع ذلك أوجد وأمكن، حتى كأنها سيقت إليها خيرات الدنيا، وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت بها بركات العالم".[2]

و نختم كلاما عن بغداد بهذه المقولة الحسنة: " الدنيا بادية وبغداد حاضرتها".[3]

و المهم هنا أن هذين النموذجين الرائعين للمدن التجارية الإسلامية وأسواقها وخاصة على مستوى بلاد الراقدين يؤدي بنا بأن نقول: أن أكثر هذه المدن وأسواقها نجاحا هي التي يعرف كيف يستغل أهلها موقعها وخاصة إذا كان موقعها استراتيجيا في الاتصال مع غيرهم من الأمم للاستفادة من خبراتها ومعارفها وتبادل المنافع معها، هذا من جهة ومن جهة أخرى حسن التسيير والتنظيم، وهذا على كل لا يأتي إلا بالصرامة في اتخاذ الإجراءات وتطبيق القانون مع استغلال القدرات والإمكانيات والخيرات التي تزخر بها المنطقة، وعدم فرض قيود اقتصادية على التجارة خاصة.

و بالتالي فإن استغلال الفرص: الاقتصادية وتوظيفها توظيفا حسنا يؤدي حتما إلى الازدهار والرفاهية. فاستغلال التبادل التجاري بين العراق والهند، وفر لأسواق العراق فرص العمل والنشاط والكسب لأفراد المجتمع

---

[1] تقع بلاد الخزر شمال بحر الخزر، (أنظر : سراج الدين بن الوردي، المصدر السابق، ص151).

[2] أحمد اليعقوبي: المصدر السابق، ص 234.

[3] الحافظ ابن كثير: المصدر السابق، ص 102.

فصارت هناك ديناميكية اقتصادية في المدن التجارية، فكانت أكثر الـــشوارع عمرانا وأغناها هي التي يتجر الناس فيها في البضائع الغالية الثمن كالمعادن النفيسة والذهب والفضة ومواد الترف بمختلف أشكالها.[1]

II) الأوزان و المكـــاييـــل:

تعتبر الأوزان و المكاييل أساس المعاملات التجارية و الاقتصادية بين الناس، و رمزًا للعدالة و الإنصاف بينهم، و بما أن المسلمين جاؤوا برسالة واضحة المعالم و الأهداف، و التي من ضمن أهدافها تحقيق هذه العدالة في كل مناحي الحياة حتى في الأوزان و المكاييل، فقد حرص الحكام المسلمون في مختلف العهود حمايتها من كل أساليب الغش و التطفيف واضعين نصب أعينهم النهي الصريح الذي جاء به القرآن الكريم ضمن سورة سميت باسم المطففين الذين يطففون في المكاييل و الموازين و التي حملت الوعيد الشديد لهم.

لذلك، فقد عرفت المجتمعات الإسلامية عدد معتبرا من أصناف الأوزان و المكاييل الدقيقة و المدروسة، فكان الصاع و المد و المكوك. و لقد انتشرت في شتى البقاع الإسلامية و خاصة في شبه الجزيرة و ما حولها، فقد أوردها لنا المقدسي مبّينا و شارحا لكل واحد منها قائلا:« و مكاييل هذا الإقليم الصاع والمد والمكوك، فالمد ربع الصاع، والصاع ثلث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، المستعمل منها يزن خمسة أرطال وثلثاً. و سمعت

[1] حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ط 1، الزهراء للإعلام العربي القاهرة 1307-1987م، ص 294.

الفقيه أبا عبد الله بدمشق يقول لما حج أبو يوسف ودخل المدينة رجع عن شيئين إلى مذهبهم أحدهما الأذان قبل الفجر، والثاني تقدير الصاع.

و أما الصاع الذي قدره عمر بمشهد الصحابة وكان يكفر به إيمانه فهو ثمانية أرطال، إلا أن سعيد بن العاصي رده إلى خمسة وثلث، إلا ترى إلى قول الراجز:

و جاءنا مجوعاً سعيد ... ينقص في الصاع ولا يزيد

و لهم بالمراكب صاعان يعطون بأحدهما جرايات الملاحين ويتعاملون بالكبير. وأرطالهم بمكة هو المن المعروف في جميع بلاد الإسلام غير أنهم يسمونه رطلاً، ورطل يثرب إلى قرح مائتا درهم، ورطل اليمن بغدادي، ولعمان المن، وبقية الإقليم بغدادي، ولهم البهار وهو ثلاثمائة رطل».[1]

لذلك، فقد اِصْطُلِح أهل كل إقليم و بلد في المعاملة على أرطال تتفاضل في الزيادة و النقصان.[2]

لكن بعض الدراسات أشارت إلى أنّ الرطل تختلف قيمة وزنه من منطقة إلى أخرى، ففي مكة كان يساوي 120 درهم، بينما كان يساوي 130 ببغداد و600 بدمشق و 800 بالقدس.[3]

---

[1] البشاري المقدسي،المصدر السابق، ص ص 98،99.

[2] عبد الرحمان بن النصر الشيزري، المصدر السابق، ص15.

[3] Aly Mazahéri: op.cit, p211.

III) المبـــــادلات التجـــــارية:

كما ذكرنا آنفا في مقدمة عرضنا أن التجارة العربيـــة الإســـلامية، كانت في القرن الرابع الهجري مظهرا من مظاهر أبهة الإسلام، بحيث كـــان التوسع في الطلب على الاستهلاك ناجم عن نشوء مدن ضخمة ذات حاجـــات كثيرة الإلحاح، سواء من حيث الكمية أو النوعية بـــسبب ارتفـــاع مـــستوى المعيشة، ولكن أيضا بوجود استهلاك مترف، ناتج عـــن مطالـــب القـــصور الملكية والطبقات الغنية.

فمن الأولى أن نعمل على إبراز قائمة السلع والبـــضائع التجاريـــة الخاصة بأماكن إنتاجها أو استهلاكها، ودلك بتحديد أهم الصادرات والواردات بالنسبة للعراق مع الهند.

1) الـــــــواردات:

كانت السلع الهندية كثيرة الاستهلاك والرواج فـــي كـــل الـــبلاد العربية، كانت تباع وتشترى في كل الأسواق،[1] لأنها كانت متنوعة ومتوفرة بكثرة، نظرا للتقارب الجغرافي الموجود بين المنطقتين، أما البضائع الصينية فكانت ذات إقبال كبير هي أيضا، نظرا لندرتها، كالحرير والورق وغيرهما.

و من أهم السلع والبضائع التي كانت العراق تستوردها من الهنـــد: فمن السند تجلب أمتعة هامة، لا تقل أهمية عن أمتعة الهند لا سيما وأن هـــدا الإقليم معروف بخيراته كما جاء على لسان المقدسي: « هذا إقلـــيم الـــذهب و التجارات والعقاقير والآلات والخيرات و الأرزاز والعاجيات، به رخـــص،

[1] المبارك فوري: المرجع السابق، ص21.

وسعة نخيل وتمرات، وعدل وإنصاف، وسياسات، و به خصائص وفوائد و بضاعات، ومنافع ومفاخر، ومتاجر وصناعات ».[1]

و أهم ما يستورد من هده المنطقة وخاصة من مدينة المنصورة، كما يذكر المقدسي: « ومن المنصورة النعال الكنباتية النفيسة، ومنه تحمل الفيلة والعاج والأشياء الرفيعة والعقاقير النافعة ».[2]

و من الهند تستورد بضائع متنوعة وكثيرة، منها ما ذكره الجاحظ: « يجلب من الهند البيور والنمور والفيلة وجلود النمور والياقوت الأحمر والصندل الأبيض والأبنوس وجوز الهند ».[3]

كما يجلب منها التوابل و الأفاويه والفلفل والحجارة الكريمة والعاج،[4] والمنسوجات و القطنيات والمجوهرات الكريمة والعطور و النباتات الطيبة.[5]

و كان خشب "التيك" إحدى أهم الواردات مند الأزمنة القديمة، وكان يستعمل في الغالب لبناء البيوت والسفن، كما كان الحديد الخام والسيوف الهندية مما يستورد أيضا من الهند بكميات معتبرة.

---

[1] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 474.

[2] نفسه، ص 481.

[3] أبو عثمان الجاحظ: التبصر بالتجارة، المجمع العلمي بدمشق، 1351 هـ ـ 1932 م، ص20.

[4] إدوارد بروي المرجع السابق ، ج3، 192 ـ 193.

[5] جاك رسلر: المرجع السابق ص، 134.

و كانت الهند تصدر للبلاد العربية وخاصة العراق الفضة وغيرها من المعادن والألماس، وقرون وحيد القرن، وكان مادة ثمينة مرغوبـا فيهـا لأنه يدخل في صناعة القلائد وغيرها من الحلي التي تباع بأسعار باهظة.
و كان ملوك الهند يصنعون من القرن سكاكين كانوا يستعملونها في اكتشاف السم في الطعام ودلك بوضع السكين فيه.[1]

و من المواد التي كان يطمع فيها العاج وأصناف مختلفة من الطيب والتوابل، وكان ساحل " ملابار" مشهورا بالفلفل، وكانـت تجـارة العـرب الأساسية في هده المادة وفي حب الهال والقرفة والكافور وخـشب الـصندل وخشب "الصبرة"، كما لا ننس الفواكه المتنوعة كـ" المانجـة " والبرتقـال والحامض وجوز الهند وفاكهة "الجامان"، وغير من الفواكه المعروفة جيـدا عند العرب.[2]

و أخيرا، فان الطاووس كان من الطيور التي يستوردها العرب من الهند، إضافة إلى الموصلين الناعم والأقمشة القطنية والنيلة وأصناف مختلفة من مواد الصباغة.

هذه عموما أهم واردات الهند التي كانت تجلب إلى العراق وإلـى جل البلاد العربية والتي كانت لها رواج كبيـر فـي أسـواقها ومراكزهـا التجارية.

---

[1] السيد مقبول: المرجع السابق، ص 126 ـــ 127.
[2] تفسه، ص 127.

2) الصـــــادرات:

و كان مما يصدره العرب إلى الهند بصفة خاصة وإلـــى الــشرق الأقصى بصفة عامة محصورا في بعض المواد: كالبخور والخيول والتمر،[1] كما كانوا ينقلون إليها الحرشفيات القشرية، والنحاس، ويبيعــون منتوجــات مصنعة، وزجاجيات ومجوهرات، وكبريتات، وأقمــشة كتابيــة، وعطــور، وفواكه وخضار، وبشكل أخص الجياد التي كانت تجارتها رائجة ورابحة في أسواق الهند والصين، ففي كل عام كانت تنقل عشرات الألوف من الجياد من سيراف إلي ســاحل« كروماندیل»،[2] حيث كانت تبــاع للهنــادكة،[3] ولقــد حدد الجاحظ ما تنتجه أرض العرب فــقــال: « ومـــن أرض العــرب الخــيل العــراب والــنعام، و نــجائب الإبــل و القنــى لــصنع الرماح»،[4] ثم قــال: « ومـــن الـــيمن الـــبرود و الأدم والزعفــران والجواميس والعقيق و الكندر والخطر و الورس ».[5]

و كانت سواحل عمان مشهورة باللآلئ والإســفنج، ويجلــب مــن الموصل: « السنور والمسوح و الدراج و السماني »،[6] وكانت الزجاجــات المتصفة بالأبهة والفخامة المصنوعة بلاد الشام ومصر والعراق، والملونــة

---

[1] السيد مقبول: المرجع السابق، ، ص 128.

[2] كروماندیل: ساحلى الهند الشرقي، (أنظر نعيم زكي: المرجع السابق، ص 174).

[3] جاك رسلر: المرجع السابق، ص 134.

[4] أبو عثمان الجاحظ: المصدر السابق ص ص، 21 ــــ 22

[5] نفسه، ص 22.

[6] أبو عثمان الجاحظ: المصدر السابق، ص 25.

و المذهبة تصدر إلى الصين، والتي كانت ترسل في مقابل ذلك البورسـلان (أي القيشاني).[1]

و هكذا، فقد استطاع العالم الإسـلامي برمتـه أن يـنظم جيّـدا أعراف التجارة وآدابها و أساليبها التقنية، ليصبح هذا التنظيم البارع نموذجـا يقتدى به. لكن، و بما أنّ التجارة الإسلامية تعتمـد بـشكل أساسـي علـى المبادلات التجارية الخارجية، حيث يتوقف نجاح هذه الأخيرة أساسًـا علـى مدى معرفة شبكة نقلها عبر الطرق البرية أو البحرية و محطّاتِهما، و علـى نجاعة وسائل النقل المستعملة فيها.

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص ص 246 ـــ 247.

فــصل رابع:
النقـــــل التجــــاري

المبحث الأول: النقــــل التجـــــاري البحــــري؛
المبحث الثاني: النــــقل التجـــــاري الــــــبري؛

يشكل النقل التجاري الشريان الرئيسي للحركـــة التجاريـــة وعليـــه يتوقف النشاط التجاري، وخاصة فيما يتعلق بالتجارة الخارجية برية كانت أم بحرية.

و لذلك فقد سهرت الدولة الإسلامية على تـــوفير وضـــمان النقـــل التجاري وذلك من خلال تطوير وتوسيع شبكة المواصلات البريـــة وتـــوفير وتحسين وسائل النقل البحرية، وضمان أمنها، فـــشقت الطـــرق فـــي البـــر[1] و حفرت الآبار، وأنشأت النزل والمضايف، وصهاريج الماء فـــي الطـــرق ليستقي منها المسافرون والتجار ودوابهم.[2]

كما شجعت الملاحة البحرية، وذلك بتوفير السفن وصيانتها وإقامة الورشات لإصلاحها وتنظيفها من الرواسب والشوائب المتعلقة بها بعد كـــل رحلة، كما عمدت إلى توفير الأمن في الطرقات وتأمين العمليات التجاريـــة وسنأتي إلى ذكر ذلك خلال هذه المباحث.

المبحث الأول: النقـــــل التجــــــــاري البحـــــري.

يعتبر النقل البحري أكثر نشاطا ونجاعة وحيوية من النقل البـــري بالنسبة للتجارة العربية والإسلامية مع العالم الخارجي البعيد كالهند والـــصين وغيرهما، وكان المحيط الهندي هو الأفق التجاري لها، بحيث كـــان يمثـــل الميدان التقليدي الذي كانت تنشط فوقه الملاحة العربية والفارسية منذ القدم.[3]

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 144.

[2] ويل ديورانت: المرجع السابق، ص 109.

[3] موريس لومبارد: المرجع السابق، 289 ـــ290.

و ابتداء من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي، أصبح المحيط الهندي تحت هيمنة البحارة العرب والمسلمين، كما كانت هذه الفتـــرة عهدا ذهبيا لتوسع التجارة الإسلامية على ضفاف وسواحل وجـــزر المحـــيط الهندي حتى أبواب الصين، ولقد ارتكز هذا التوسع علـــى جاليـــات عربيـــة وإسلامية مقيمة في كل مكان وعلى سفن إسلامية مصنوعة من خشب التك.[1]

و لقد اعتمد العرب في ملاحتهم على مراكـــب صـــغيرة بالنـــسبة للملاحة الساحلية، بينما استعملوا المراكب والسفن الضخمة بعرض البحـــر، حيث كانت مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي تبنى بطريقة خاصة، نظرا لاختلافهما مع البحار الأخرى من ناحية تكوينهما الجيولـــوجي و المنـــاخي، ونتيجة لذلك فان تلك السفن صنعت بطريقة تتلاءم مع تلك البحار ولقد ذكـــر بعض الرحالة كيفية صنع تلك السفن: » وهي مخيطة بأمراس[2] **مـــن** القنبار، وهو قشر جوز النرجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ــ أي يصبح علـــى شـــكل خيوط، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب، و يخللونها بدســـر[3] مـــن عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء المراكب على هذه الصفة، سقوها بالسمن والعسل أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ».[4]

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص290 ــ 291.

[2] أمراس: مفردها مرسة، أي بمعنى الحبل، (أنظر جمال الدين محمد بن منظور: المصدر الســـابق، ج 6، ص 216).

[3] دسر: مفردها دسار أي بمعنى خيط من ليف يشد به الألواح، (أنظر جمال الدين محمد بن منظور، المرجع السابق، ج5، ص 255).

[4] أبو الحسن بن جبير: المصدر السابق، ص 40.

و كانت مراكب البصرة مشحمة بالشحم و النورة،[1] وكانت المراكب التي تذهب إلى الصين كبيرة جدا، وكان العرب ينتظرون الرياح الموسمية حتى يقومون برحلاتهم التجارية البحرية، والتي تشجعهم كثيرا وتساعدهم على الملاحة[2] والتي هي بمثابة الضوء الأخضر لانطلاق حملتهم التجارية البحرية صوب الهند والصين.

و كان جل ملاحي المحيط الهندي عراقيين أو سيرافيين أو عمانيين، ويظهر أنهم كانوا يسترشدون بخرائط أثناء رحلاتهم،[3] كما أنهم لازالوا حتى القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) يستعينون بالشمس والقمر والنجوم لتوجيه سفنهم لأنهم لم يعرفوا بعد البوصلة، دون أن ننسى استعانتهم بالحمام الزاجل للاتصال و التأكد من الطريق.[4]

بالنسبة للصينيين، فقد عرف عهد أسرة "سونغ" تطورًا هامًا في الملاحة البحرية الصينية، و كان للصين في هذه الفترة سفن كثيرة تجوب المحيط الهندي، و لم تكن للصين سفن في الخليج فحسب و إنّما كانت قواربها تصل إلى البحر الأحمر و ساحل إفريقيا الشرقي.

---

[1] نورة: (أو الهناء)، من الحجر الذي يحرق ويسوى منه الكلس والنؤور دخان الشحم، (أنظر جمال الدين محمد بن منظور، المصدر السابق، ج14، ص55).

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 289.

[3] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 146.

[4] نفسه.

كما كانت القوارب الصينية تستخدم من طرف التجـــار الأجانـــب لاسيما و أن قانون المواصلات البحرية الذي أسّسته أسرة "سونغ" يسمح تحت طائلة من الشروط استخدام الأجانب للقوارب الصينية. [1]

و يكمن السبب الرئيسي وراء استخدام الأجانب للقوارب الــصينية و الاستعانة بخبرات الصينيين في مجال الملاحة البحرية، في جودة مراكبهم التي عرفت صناعتها آنذاك تطورا كبيرًا لدرجة يستحيل الاستغناء عنها فـــي البحار الكبرى و خاصة بحر الصين الذي قال فيه ابن بطوطة:« لا يُسافَرُ فيه إلاّ بمراكب الصين».[2] ضف إلى ذلك تجربتهم الكبيرة و رسوخ قدمهم فـــي تقنية الملاحة.

و مراكب الصينيين ثلاثة أنواع: الكبار منها تسمّى الجنوك واحـــد، و الصغار و اسم أحدها الكَكَم، يديرونها حسب دوران الرياح، و يتبـــع كـــل مركب كبير منها ثلاثة قوارب: النصفي و الثلثي و الربعي و لا تصنع هـــذه المراكب إلاّ في مدينة "زيتون" بالصين.[2]

كانت السفينة الشراعية الصينية تستطيع أن تحمل حتّى خمسمائة أو ستمائة شخص بالإضافة إلى بضائع يزيد وزنها عن خمسمائة أو ستمائة طن و ذلك في عهد أسرة "سونج". و لقد وصف أحد الكتاب عاصر هذه الأســـرة السفينة الشراعية الصناعية أنها تشبه قاعدة كبيرة. دون أن ننسى مهـــارتهم

---

[1] ذانج هو: المرجع السابق، ص67.

[2] محمد بن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص 437.

[2] نفسه، ص438.

الفائقة في رصد مواقع النجوم (أو بما يسمى الملاحة الفلكية) لتحديد موضـــع السفينة و تسمّى هذه العملية بمهارة سحب النجوم.

و قد أدت هذه التطـــورات الكبيـــرة إلـــى ازدهـــار المواصـــلات و الاتصالات بين الصين و العرب منذ عهد أسرة سونغ.[1]

لذلك، لم تكن التجارة العربية لتنجح وتصل إلى ما وصلت إليه في القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي)، لولا معرفة أولئك التجـــار العـــرب معرفة دقيقة بالطرق والمسالك البحرية و استفادتهم من تجارب نظرائهم من الأمم الأخرى الذين سبقوهم إلى مجال الملاحة البحرية، ولم يكونوا ليواصلوا تلك الرحلات التجارية الشاقة لولا خوضهم مغامرات السفر إلى المجهـــول، فاكتسبوا هم بدورهم تجارب دوّنوها في كتبهم أو مذكرات أســـفارهم التـــي و صفوا من خلالها الأقاليم و البلدان التي مروا بها بشكل مفصّل و دقيق.

لكن، ليس ثمّة مناطق أثـــارت فـــضولهم و جـــذبت انتبـــاههم و تركيزهم مثل المحطات البحرية دون المناطق الأخرى، لأهميتها الكبـــرى في التواصل الحضاري و الاقتصادي بين الأمم، فذكروا بالتفاصيل كل هـــذه المحطات و لو كانت صغيرة و فترات توقفهم عندها واستراحتهم بها تجديـــدا لنشاطهم واستجماعا لقواهم، وكانت تلك المحطات في غالب الأحيان عبـــارة عن موانئ تجارية، إذ تعتبر في حد ذاتها مراكز تجارية يـــتم مـــن خلالهـــا التبادل التجاري بين مختلف التجار الغادين والـــرائحين مـــن وإلـــى الهنـــد

[1] ذانج هو : المرجع السابق، ص ص 29،30.

والصين، ولذلك ارتأينا أن نذكر بعض تلك المراكز والمحطات ثم نعرج إلى ذكر الطرق الرابطة بينها من العراق حتى الهند:

1- المحطــات التجــارية البحريــة:

نحاول أن نرصد هنا أهم المراكز والمحطات التجارية التي كانت تعكس التبادل التجاري الحي و المباشر بين منطقتي العالم الإسلامي و الشرق الأقصى بشقيه الهندي والصيني، ولقد تعمدنا إغفال ذكر العديد من المحطات التجارية الثانوية و الصغيرة لكثرتها أو الواقعة في الجناح الغربي من العــالم الإسلامي التي ليس لها علاقة مباشرة، بل ركزنا علــى المحطــات المهمــة الواقعة في واجهته الشرقية باعتبارها محطات إقــلاع أو اســتقبال مباشــرة و حقيقية من و إلى الشرق الأقصى.

و لقد كانت هذه المحطات موانئ للسفن بمختلف أشكالها وجنسياتها، وكانت تحمل إليها من كل الأرجاء والأنحــاء الــسلع والبــضائع المختلفــة والمتنوعة، والتحف النادرة، وبالتالي أصبحت تلك المحطات كمراكز كبيــرة للتبادل التجاري، الشيء الذي جلب سكان تلك الضواحي للاســتقرار حولهــا وتشكيل تجمعات سكانية بها، لتصبح في يوم من الأيام مدنا تجارية، فأنشأت الأسواق وشيدت المباني والفنادق التي أصبحت ملاذا لأرباب السفن والتجار ونزلا لهم ابتغاء للراحة والاسترخاء بعد طول السفر و وعثائه، الشيء الذي أعطى ديناميكية جديدة لهذه المراكز والمحطات.

و كانت سيراف وعمان والبصرة من أكبر هـذه المحطـات فـي الجانب الشرقي من العالم الإسلامي المطلة على المحيط الهندي،[1] بالإضافة إلى محطات أخرى لا تقل أهمية عنها.

نحاول الآن أن نعرج على أهم هذه المحطات للتعرف عليها و ذكر الدور الذي لعبته في التبادل التجاري بين المسلمين و نظرائهم فـي الـصين و الهند:

1ــ الأبلـــــــــــة:

تقع إلى الشمال من رأس الخليج الفارسـي عنـد مـصب دجلـة والفرات، وقد شيدت قبل البصرة وتكمن أهميتها في كونها مخـرج تجـارة العراق إلى الخليج الفارسي، كما أنها الميناء الرئيسي للبصرة وتقع عند ملتقى أهم طرق التجارة من إيران والعراق وبلاد العرب، و يعتبر أيضا في وقـت من الأوقات ميناء العراق الرئيسي إلى الخليج الفارسـي، بـسبب صـعوبة الملاحة عند مصب الرافدين، وتوجد بها جالية يهودية تشتغل فـي التجـارة، كما يوجد بها وكالات وفنادق للتجار[2] وهذا وجه من أوجه اهتمام الدولة هناك بالتجارة والسهر على رعاية أحوال التجار وحل مشاكلهم وتـذليل الـصعاب أمامهم، فمن صور ذلك الاهتمام أيضا، اهتمامها بالملاحة التجارية وحمايتها وتأمين تنقل السفن من وإلى المرافئ فأنشأت الفنارات العالية لهدايـة الـسفن ليلا وخاصة الآتية من عمان و سيراف.[3]

---

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 847.

[2] نعيم زكي: المرجع السابق، ص 123.

[3] نفسه ، ص123.

و لقد أصبحت الأبلة لأهميتها التجارية مدينة كبيرة تضاهي البصرة التي هي من رحمها، وهو ما يشير إليه المقدسي بقوله: « و الأبلة على دجلة عند فم نهر البصرة من قبل الشمال، أعلى القرية عامرة كبيرة، أرفــق مــن البصرة وأرحب ».[1]

و لم تكن شهرة الأبلة محلية أو إقليمية فحسب، بل أصــبحت ذات شهرة عالمية حيث يصفها بعضهم: « البصرة القديمــة علــى قناتهــا هــي مانشستر الجزء الجنوبي من أرض الجزيرة، ولكــن الأبلــة منهــا بمثابــة ليفربول»[2] و السبب في ذلك كما قال:« يبدو أن السفن البحرية القديمة لم تكن تستطيع بلوغها، فكانت ترسو في الأبلة، فكانت البصرة مدينة جديــدة بناهــا العرب ولكن الأبلة هي أبولوجوس القديمة التي أعاد تأسيسها كسرى أرشدير وظلت قائمة حتى العصور الإسلامية ».[3]

و كانت الأبلة (أبولوم Abulum في الكتابات الآكادية و أبولوجــوس Apologus في اليونانية) في عصر السبئيين سوقًا تجاريــة هامــة، و كانــت تصدّر إلى اليمن اللّؤلؤ و التمور و الذهب و العبيد، و ظلــت قائمــة حتّــى ظهور الإسلام. و كانت من الموانئ التي ترتبط تجاريًا مع الهند و الصين[4].

---

[1] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 103.

[2] جورج فوضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مطابع الكتاب العربي القاهرة، بدون تاريخ، ص 205.

[3] نفسه، 206.

[4] عبد العزيز سالم: بحوث إسلامية في التاريخ و و الحضارة و الآثار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1411هــ-1991م، ص 172.

و نظرًا لأهميتها الاقتصادية و الإستراتيجية، حافظت الأبلة على مكانتها عبر التاريخ حتى العهد الإسلامي. و برغم مكانة البصرة الكبيرة، إلاّ أنها تستمد أهمّيتها و حيويتها من الأبلة، فإذا كانت البصرة "مانشستر" أرض الجزيـــرة كما قـــال "فوضلو" فإن الأبلة كانت منها بمثابة "ليفربول".[1]

ثم يواصل كلامه عن الأبلة مبرزا خلاله دورها و مكانتها قائلا: « فعلى الرغم من أن البصرة كانت مركزا تجاريا، يبدو أن السفن لم تكن تستطيع بلوغها، فكانت ترسو في الأبلة».[2]

فالأبلة إذًا ميناء على شط العرب وإليها كانت السفن الوافــدة مـــن الهند والسند، وقد كانت من أعظم موانئ فارس شانا، وكانت تقوم على الضفة اليمن من دلتا دجلة شرقي البصرة وعلى الجانب الــشمالي للقنـــاة الكبيـــرة المعروفة، بنهر الأبلة، وتبعد الأبلـــة عن البصرة بأربعة فراســـخ (أي مـــا يعادل اثنين و عشرين كيلومتر)،[3] لكن ابن بطوطة يرى بأن المسافة بينهمـــا تقدر بعشرة أميال،[4] ويمكن أن نفسر هذا الاختلاف على أنّه منطقي باعتبـــار أنّ الطريق التي سلكها ابن بطوطة ليست بالضرورة هي نفسها الآن ،هذا من جهة، و من جهة أخرى، غالبًا ما يكون الطريق القديم أقصر مـــن الطريـــق المعاصر لكون هذا الأخير الذي تسلكه وسائل نقل معاصرة لا يمكـــن لهـــا السير في نفس الطريق القديم وعر المسلك و المختصر طبعًا و الذي تـــسلكه دواب متخصصة، بل حتّى هي أيضًا تجد أحيانا صعوبة في السير في بعض

---

[1] آدم متز المرجع السابق، ص 205.

[2] نفسه، ص 206.

[3] أحمد عادل: الطريق إلى المدائن، دار النفائس، ط3، بيروت، بدون تاريخ، ص 212.

[4] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص 144.

المسالك الوعرة، برغم صغر حجمها بالنسبة للسيارة المعاصرة، فكيف بهـذه الأخيرة.

و يذكر ابن بطوطة أيضًا بأنّ بين الأبلة و البصرة طريـق مـائي نهري و الذي يعتبر بمثابة قناة اتصال و ربط هامة بينهما و شريانا اقتصاديا حقيقيا يتم من خلاله تنقل الأشخاص و شـحن مختلـف الـسلع و البـضائع بواسطة قوارب خاصة، أو يتم عرض هذه البضائع أحيانًا على جانبي القنـاة النهرية.[1]

و كان نهر الأبلة الطريق المائي الرئيسي الذي يتصل بالبصرة ثم يسير جنوبي شرقيها إلى دجلة ثم عبدان ثم البحر، وكانـت نـواحي الأبلـة وضواحيها كلها بساتين.[2]

فبالرغم من صغر هذه المدينة إلاّ أنها كمـا يـصفها الإدريـسي: «حسنة الديار واسعة العمارة متسلسلة بالبساتين و الضياع عامرة بالنـاس و أهلها مياسر و عندهم خصب من العيش و رفاهة و دعة و من أسفل الأبلـة المفتح و المذار و على ضفة دجلة و هي مدن متقاربة القدر متشابهة العظـم عامرة بالأسواق و التجارات، و الأبلة أكبر منها خَلْقاً و أعنى أهلاً و أوسـع عمارة»[3].

---

[1] محمد ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم اللواتي الصنهاجي ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، دار الشرق العربي بيروت ، ج 1، ص 144.

2 أحمد عادل، المصدر السابق، ص 213.

[3] أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1409 هـ-1989م، مج 1، ص 384.

2 ـ سيـــــراف:

سيراف مدينة من مدن سابور من بلاد فارس، تقع علـــى ســـاحل البحر الفارسي[1] إذ تعتبر من المدن التجارية الكبيرة، فهي الفرضة العظيمـــة لفارس رغم كونها فقيرة من ناحية الموارد الطبيعية، فلا زرع فيها وضـــرع ولكنها من أغنى بلاد فارس.[2]

و لذلك، كانت سيراف في العهد الوسيط أعظم مينا لفارس، و كانت مركزا ذا أهمية دولية لتجميع و توزيـــع العطـــور و الأفاويـــه و التوابـــل و الخشب الرفيع، و استطاع تجارها أن ينشئوا شبكة حقيقة تابعة لهم عبـــر المدن الساحلية الإيرانية.[3]

يوجد بسيراف عدد كبير من التجار من مختلف الأجناس، كمـــا أن أهلها مولعون بكسب المال واستجلابه على أي وجه ممكن، وهم أكثر الناس تغربا و ترحالا، حتى أن الواحد منهم يتجول عشرين عاما لا يرجع إلى أهله ولا يكترث بمن خلفه.[4]

و لقد بلغت سيراف مبلغا عظيما في التجارة، الشيء الـــذي جعـــل منها منافسا للبصرة في الغنى والثروة[5] فكانت تزخر بما يقع عليها من أمتعة البحر من العود والكافور والجواهر والخيزران والعاج والأبنـــوس والفلفـــل

---

[1] محمد الحميري : المصدر السابق، ص 333.

[2] نفسه، ص 331.

[3] إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 168.

[4] محمد الحميري: المصدر السابق ، ص 333.

[5] جورج فوضلو: المرجع السابق، ص 207.

والصندل وسائر الطيب والأدوية والتوابل التي يكثر طلبها من جميع فارس والعالم بأكمله[1] حتى أضحى أهلها أيسر أهل فارس، فمنهم من جمع الثروة الكبيرة من تجارة البحر، حيث توصل أحدهم إلى جمع مال يقدر بألف ألف درهم من هذه التجارة،[2] الشيء الذي ساهم مساهمة جليلة في ازدهار هذه المدينة إلى أن وصلت إلي درجة كبيرة من الترف، فمن سور ذلك: دور الترف الذي كان يقيم بها تجارها أو أصحاب سفنها وكانت مبنية من طوابق من خشب الساج المستورد من الهند، وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق أفريقيا.[3]

و لقد عرف مرفأ سيراف نشاطا كبيرا على مدى خمسمائة عام ونيف، وكان لسيراف أطول أسطول تجاري، وكان فيه ملاحون وتجار ذوو خبرة واسعة، حيث كان لهؤلاء التجار اعتمادات كبيرة وكانت سنداتهم تصرف في كل مكان، إلا أن زلزالا ضرب هذه المدينة في نهاية القرن العاشر (القرن الرابع الهجري) سنة 978 م، فأقام سكانها في جزيرة كيش على الصخور الواقعة مقابل المدينة.[4]

و لكن يبقى دورها التجاري الريادي الفعال خالدا مسجلا في التاريخ بأحرف من ذهب، حيث كانت لؤلؤة الخليج الفارسي، فكانت بلا منازع من أكبر أسواق الخليج الفارسي حتى أواخر العصور الوسطى، فكان لقربها من الأسواق العربية ذات موقع بالغ الأهمية، لذلك فقد تركزت فيها

---

[1] أبو إسحاق الإصطخري: المصدر السابق، ص 92.

[2] نفسه، ص 92.

[3] جورج فوضلو: المرجع السابق، ص 207.

[4] جاك رسلر: المرجع السابق، ص 136.

السلع الغربية أكثر من أي مركز تجاري آخر على الخليج الفارسي، وتصلها السفن التجارية من الصين والهند واليمن ومسقط كما يصلها تجار شرق البحر المتوسط والعراق وإيران، لذا كانت عبارة عن نقطة اتصال مهمة لتبادل السلع الشرقية والغربية.[1]

3 ـ قيش (كيش):

و تدعى أيضا قيس، فهي جزيرة قرب الساحل الشرقي للخليج الفارسي وبينها وبين الساحل ممر بحري عرضه تسعة أميال بحرية ويحتكر حاكمها التجارة لصالحه وحسابه وأسطوله.[2]

و كان ميناء كيش من أبرز الموانئ في الخليج الفارسي، حيث كان ينافس سيراف في الزعامة التجارية، وخاصة في بداية أفول نجم سيراف بعد الزلزال الذي ضربها سنة 978م، حيث سرعان ما صارت كيش مرفأ من الطراز الأول، وكأنها جمهورية تجارية لها مالكها كالبندقية و جينوى.[3]

كما أن أسواقها من أكثر أسواق الخليج ازدحاما بالتجارة من الهند والصين، وفارس والعراق والشام، لسهولة العيش فيها، إذ أن أرضها خصبة وماؤها وفير عكس سيراف، وتفوق باقي المدن والموانئ في تجارة العبيد المستوردين من شرق أفريقيا.[4]

---

[1] نعيم زكي: المرجع السابق، ص ص 120،121.

[2] نفسه، ص ص 121 ، 122.

[3] جاك رسلر: المرجع السابق، ص 136.

[4] نعيم زكي: المرجع السابق، ص 122.

و من خصائص كيش أيضًا، أنها أصبحت مركزا مهما و مميزا لبيع و شراء و مقايضة ضروب السلع كالحرير و الكتان و القطن و القنب و القماش و الحنطة و الشعير و الدخن و الأرز و سائر أنواع الحبوب و البقول و يأتيها تجار الهند بالعطور و التوابل. بينما اقتصر نشاط أغلب تجارها كوسطاء و دلاّلين بين هذا العدد الهائل من التجار الوافدين عليها.[1]

و باعتبارها جزيرة في عرض البحر، فقد أعطانا ياقوت الحمـــوي بطاقة صورية وصفية موجزة عنها فقال:« كأنها عـــروس البحـــر، لحـــسن منظرها وجمالها الذي يأخذ بألباب التجار والمسافرين، فكانت بساتينها تـــزين الأفـــق، وعماراتها جيدة وجميلة، فكانت عن جدارة محاط السفن الغاديـــة والرائحة فهي مرفأ لمراكب الهند وبر فارس وفيها أسواق وخيرات».[2]

4 - عمـــــــان:

تعتبر عمان كما جاء في معجم البلدان:«اسم كورة[3] عربية علـــى ساحل بحر اليمن والهند »،[4] بحيث تحتل القسم الجنوبي الشرقي مـــن شـــبه الجزيرة العربية،[5] وتقع بالضبط عند فم بحر فارس (الخليج العربي) مـــن جهة بحر الهند،[6] وتحيط بها المياه من الشمال،[1] وسميت بعمان نسبة إلـــى

---

[1] بنيامين الرابي الأندلسي: المصدر السابق، ص ص339،338.

[2] ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج 4، ص 422.

[3] الكـــورة: هي الصقع أو البقعة التي تتجمع فيها القرى والمحـــال و جمعهـــا كُـــوَر، (أنظـــر المعجـــم الوسيط،المرجع السابق، ج1، ص 804).

[4] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 150.

[5] عبد العزيز عثمان مع محمد التقي: جغرافية الوطن العربي، مكتبة الربيع، حلب، سوريا، ص 318.

[6] ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص 118.

عمان بن سنان بن إبراهيم، كان أول من اختطها،[2] وأكثر أهلها كما يذكر الحموي: « خوارج إباضية »،[3] وهي بلدة تجارية أيضا تضاهي البصرة من حيث التبادل التجاري، كما أنها المرفأ الكبير للسفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى، وخاصة الصين لأنه استنادا إلى ما ذكره الرحالة سليمان التاجر أن: « أكثر السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان».[4]

و تمتاز عمان بكثرة الخيرات وخاصة الثروات الفلاحية، ويصفها الإصطخري بأنها: « كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك ».[5]

و النخل بها متميزة عن غيرها، فهناك بالبصرة نخلة يقال لها (العمانية)، فلا يزال طعمها وأكلها طوال السنة.[6]

و كانت لتوسطها بين فارس والهند والحبشة تتجمع بها بضائع هذه الممالك الثلاث،[7] وفي أسواقها كان يجري التبادل بين بضائع فارس والهند

---

[1] عبد العزيز عثمان مع محمد التقي: المرجع السابق، ص 318.

[2] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 412.

[3] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 150.

[4] أبو بكر بن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، دار الكتاب اللبناني، طبع في مدينة ليدن المحروسة، مطبع بريل 1302هـ ـ1885م ص 11.

[5] أبو إسحاق الإصطخري: المصدر السابق، ص 27.

[6] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 252.

[7] نفسه، ص256.

والحبشة واليمن والحجاز والشام، فيحمل تجار كل بلد منها واليها البضائع فيتبادلون فيها السلع فيما بينهم.[1]

كما أن بها حركة تجارية دائمة و دؤوبة بينها وبين البلدان القريبة منها عن طريق البحر، كيف لا وهي فرضة الصين، كما يصفها الحموي مبديا في نفس الوقت عن نشاطها التجاري: « وتحمل من سيراف الأمتعة إليها والحمولة في قوارب».[2]

و لكم شهرة عمان إنما تعلقت بمدنها التجارية الساحلية التي يقع على عاتقها التبادل التجاري الخارجي، فمن أبرز هذه المدن: مسقط و صحار، حيث كانتا محطتي السفن الغادية والرائحة إلى الهند للتزود بالماء ثم تمخر المحيط الهندي مباشرة إلى جنوب ملابار.[3]

أ ــ مسقط:

هي مدينة ساحلية، تقع في طريق عمان على البحر، يمر عليها من أراد بلاد الهند والصين، فيسير مع الشمال تلقاء الجنوب حتى يصير إليها وهي بين جبلين، و هي مرفأ السفن التي تستقي من آبارها المياه العذبة.[4]

فرغم أهمية مسقط، والتي تعتبر من أشهر بلاد عمان ومن موانئها العظيمة على المستوى العربي ولكن ربما لا تكون في مستوى مدينة صحار

---

[1] سعيد الأفغاني: المرجع السابق ، ص 257.

[2] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 413.

[3] جورج فوضلو: المرجع السابق، ص ص 208 ــ 209.

[4] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 559.

من حيث الأهمية، فهذه الأخير تعد من المدن التجارية الهامة ليس على الصعيد العربي فحسب، بل على المستوى العالمي آنذاك، فهي المدينة المشهورة على ألسنة التجار.

ب ــ صحــار:

لقد كانت صحار من أعمر بلاد العرب وأغناها و أطفحها بالمتاجر،[1] فهي قصبة عمان، كما جاء في مسالك الممالك: « و قصبتها ــ أي عمان ــ صحار، وهي على البحر، وقصد الركاب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار».[2]

فصحار إذاً، مدينة ساحلية تقع على ساحل عمان وهي: « مدينة كبيرة بأرض عمان، وهي قصبة عمان وهي على ساحل البحر مقدارها فرسخ في فرسخ ».[3]

و لقد ظهر اسم صحار أول ما ظهر في التاريخ سنة 8 هـ (629م ــ 630م) عندما سلم عمرو بن العاص السلمي وأبو زيد الأنصاري مبعوثا النبي صلى الله عليه وسلم كتابه إلى أميري البلدة جعفر وعبد (أو عباد)، وقد قبلا ما عرضه محمد صلى الله عليه وسلم عليهما وأسلما، وظل عمرو بن العاص مقيما بها.[4]

---

[1] سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 261.

[2] أبو إسحاق الإصطخري: المصدر السابق، ص 27.

[3] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 355.

[4] دائرة المعارف الإسلامية، ، ج 14، ص 146.

و كانت العرب تقيم السوق العامة في صحار من عاشر رجب إلى الخامس عشر بعد انفضاض سوق حباشة،[1] كان ذلك في الجاهلية، فقد كانت بها تجارات واسعة تجلب إلى مختلف أقطار الجزيرة العربية.[2]

و لم تكن صحار من الأسواق الموسمية مثل عكاظ، بقدر ما كانت سوقا تجارية محضة لما حولها ولمن يقصدها، فأكثر من يقصدها التاجر البعيد.[3]

إلا أن هذه البلدة ظلت كباقي مناطق عمان لا تتصل بالخلافة الإسلامية، إلا اتصالا شكليا، وبقي على تلك الحال، حتى غزى عمان الحجاج بن يوسف، فضمها إلى العراق، وكان ذلك سنة 751م، إلا أنها لم تلبث أن استقلت بنفسها، ليصبح بعد ذلك « الجلندي» بن مسعود الأزدي إماما على هذه البلاد.[4]

و ما إن حل القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي)، حتى كانت صحار قد ارتقت رقيا كبيرا وعدت أهم بلدة في عمان وأجمل البلدان على الساحل الفارسي.[5]

---

[1] تقام هذه السوق (أي حباشة) في ديار بارق، على ست أميال من مكة إلى جهة اليمن، (أنظر سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 258).

[2] نفسه ، ص 262.

[3] نفسه، ص 263.

[4] دائرة المعارف الإسلامية: ج 14، ص 147.

[5] نفسها.

و لقد كانت في هذه الفترة من أكبر العواصم: الاقتصادية وبالتـــالي فهي: « قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم أجل منه، عـــامر، آهــل، حسن الطيب، نزه، ذو يسار، وتجار وفواكه وخيرات أســـرى مـــن زبيـــد[1] و صنعاء، أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر، دورهم من الآجـــر و الساج شاهقة ».[2]

كما أنها كما يذكر المقدسي: « دهليز الـــصين وخزانـــة الـــشرق والعراق و مغوثة اليمن ».[3]

و في كل سنة كانت صحار تكتض بالتجار الوافدين عليها من كـــل حدب وصوب، فينقلون إليها أنواعا شتى من البضائع ولذلك تـــذكر بعـــض المصادر: « ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد ما لا يحـــصى عـــددهم، واليها تجلب جميع بضائع اليمن، ويتجهز منها بأنواع التجارات».[4]

و كانت أسواقها تفيض بخيراتها ومنتجاتهـــا الفلاحيـــة، ويـــضيف الحميري قائلا « وأحوال أهلها واسعة و بها نخيل والموز والرمان والسفرجل وكثير من الثمار الطيبة »،[5] حتى غدت صحار كما يقول: « مجتمع التجار، ومنها يتجهز لكل بلدة من بلاد الهند والصين ».[6]

[1] زبيد: مدينة ساحلية تقع باليمن بين صنعاء وعدن، أنظر: محمد الحميري: المصدر السابق، ص 248.
[2] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 92.
[3] نفسه.
[4] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 355.
[5] نفسه، ص 356.
[6] نفسه.

و كانت أسواق صحار تمتلئ بالسلع من كل صنف ولـــون، حتـــى غدت مخزن السلع الواردة من الصين ومركز التجارة مع الشرق.[1]

و كان التجار من جميع أنحاء العالم يلتقون فيها وكان ميناؤها دائما مزدحما بالسفن الغاديـــة والرائحة، كما كانت دائمة الاتصال باليمن والصين، حيث تتزود الرحلات إليها بمؤونتها من صحار.[2]

و نستخلص من ذلك كله، أن صحار احتفظت بحيويتها وشـــبابها، منذ الجاهلية، وظلت كذلك في العهد الإسلامي، ولم تفقد مكانتها التجارية كما حصل لعكاظ وحضر موت وغيرها من المدن التجارية العربية.

5- عـــــدن:

تقع هذه المدينة العظيمة على مقربة من باب المندب شمالا و هي فرضة بلاد اليمن،[3] فهي من المراسي الهامة لهذه البلاد على ساحل البحـــر الأعظم، تحف بها الجبال و لا مدخل إليها إلا من جانب واحد، و في الضفة المقابلة من البحر تقع بلاد الزنج و التي تبعد عنها حوالي مسيرة أربعة أيام[4].

و نظرا لموقعها الاستراتيجي و أهميتها الاقتصادية، فقد كانت عدن قبلة التجار و خاصة العرب، فكانت بالنسبة لهم مصدرًا للثراء، فقـــد ذكـــر المقدسي أنّ أحد الوعاظ حذره من فتنة عدن فمن جملة ما قاله لــــه:« وقـــد

[1] دائرة المعارف الإسلامية: ج 14، ص 147.

[2] نفسها.

[3] إبن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 100.

[4] سراج الدين ابن الوردي: المصدر السابق، ص 77.

قصدت بلاداً قد غرت كثيراً من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة وأخشى إذا أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة وآخر بكندر فرجع بمثله كافوراً، طلبت نفسك التكاثر».[1]

و قد اشتهرت عدن على ألسنة التجار تأتي إليها المراكب التجارية العظيمة من كنباية و تانة و كولم و قاليقوط و منجور و فنكور و سندابور و غيرها من المدن و الموانئ التجارية الهندية و الصينية.[2] و تجلب إليها من هذه الأقاليم سلع غالية كالحرير و السيوف و الكيمخت و المسك و العود و السروج و الأمتعة و الأهليجات و العطريات و الطيب و العاج و الأبنوس و الحلل و الثياب الحسنة والقصدير و الرصاص و اللؤلؤ و الحجارة الثمينة و الزباد و العنبر و غيرها من الأشياء التي لا تحصى.[3]

غير أن مرسى عدن غير مأمون عند هيجان البحر بحكم قربه من باب المندب الذي تتداخل عنده البحار.[4]

6- الديبل:

مدينة ساحلية مشهورة تقع في خليج السند، على مقربة من مصب نهر[1] مهران،[2] ذكرت في التاريخ الساماني، وقد حاز العرب إبان غزوتهم

---

[1] البشاري المقدسي المصدر السابق، 98.

[2] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق ، ج 1، ص 193.

[3] سراج الدين ابن الوردي: المصدر السابق، ص 77.

[4] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 100.

الأولى للهند عام 164 هـ نصرا عند ديبل ليستولي عليها في الأخير محمد بن القاسم[3] سنة 934 م، ولقد وصفها الرحالة المسلمون في كتبهم، وكان لبعضهم معرفة خاصة بهذه المدينة.[4]

و ليس من اليسير تعيين موقع ديبل الحقيقي على الرغم من جميع الإشارات الواردة عنها في كتب الجغرافيا والرحالة، ذلك أن نهر السند قد غير مجراه وقد يكون الاسم القديم لهذه المدينة قد أطلق على أماكن أخرى، في أزمنة متأخرة، ولا يمكن أن نأكد أن الديبل هي كراتشي أو تيته أو لاهوري بندر، ولكن يعتقد بأنها تقع « قرب كراتشي الحديثة».[5]

و مهما يكن فان ديبل مدينة ساحلية كما يقول المقدسي: « ديبل بحرية »،[6] فهي ذات طابع تجاري، ويصنفها السيد مقبول ضمن المراكز التجارية الهامة[7] في العالم، لأنها تعتبر محطة السند التجارية الأولى، رغم أنها تبدو من الناحية الزراعية ثقيلة، حيث يذكر الإصطخري بأنها: « متجر

---

[1] مهران: هو نهر السند الأعظم، يقطع أرض السند والهند ويظهر على توافره بالملتان، (أنظر محمد الحميري: المصدر السابق ص552).

[2] سعيد المغربي: المصدر السابق، ص ص 119 و 131.

[3] هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل، كلفه الحجاج بن يوسف بغزو السند أيام الوليد بن عبد الملك (أنظر: أبو الحسن البلاذري: المصدر السابق، ص424).

[4] دائرة المعارف الإسلامية، ج9، ص 358.

[5] السيد مقبول: المرجع السابق، ص 122.

[6] البشاري المقدسي: المصدر السابق، 479.

[7] السيد مقبول: المرجع السابق، 122.

عظيم و فرضة هذه البلاد[1] وغيرها، و زروعهم مباخس، وليس لهم كثير شجر ولا نخيل، وهو بلد قشف، وأن مقامهم التجارة ».[2]

و نلاحظ هنا بأن أهالي هذه المنطقة مشهورون بالتجارة وهذا ما يؤكده المقدسي هو الآخر فيقول: « كلهم تجار، كلاهم سندي عربي وهي فرضة الكورة كثيرة الدخل».[3]

و نستنتج من خلال كلامه ما يوحي بأن هناك ترابط وثيق بين العرب وسكان المنطقة بقوله « سندي عربي»، وأن المصطلحات التجارية العربية غزت ديبل، وهذا ما يرمي إليه مقبول: « ومن الصعب الحكم على مدى تغلغل التجارة العربية في داخل الهند، إلا أن الدلائل أجمعها تنتهي إلى القول بأن التجارة كانت مقصورة على المنطقة الساحلية، وجنوبي شبه الجزيرة وبالطبع فإنها شملت السند ».[4]

و ديبل هي من المراكز الرئيسية في السند وهي القاعدة الأولى التي يعتمد عليها العرب، للانطلاق والتوغل إلى داخل الهند، وكانوا يتبادلون فيها البضائع مع التجار الهنود الذين كانوا يجلبون بضائعهم من داخل الهند أو من المدن المجاورة.[5]

---

[1] أي بلاد السند.

[2] أبو إسحاق الإصطخري: المصدر السابق، ص 104.

[3] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 479.

[4] السيد مقبول: المرجع السابق، ص 122.

[5] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 147.

و يعتبر "متز" ديبل من المرافئ الكبيرة في المملكة الإسلامية، فهي فرضة كرمان الواقعة على مصب نهر السند فهي تلي من حيث الأهمية عدن و سيراف وعمان، فهي والبصرة سيان.[1]

و تشتهر "ديبل" كما يذكر المغربي: « بالمتاع الديبلي »[2] الذي يجلب منها إلى البلاد العربية، وعلى هذا الأساس كان لديبل مكانة لا يستهان بها، لدى التجار العرب والمسلمين لاسيما وهي المحطة الأولى لهم كما ذكرنا آنفا للانطلاق نحو الهند والصين، أو للتوغل في الأراضي الهندية.

7 - المنصورة:

وهي أيضا مدينة ساحلية، تقع: « في بلاد السند، وهي على معظم نهر مهران، يحيط بها ذراع منه من الجانب الغربي، ومقداره في الطول نحو ميل في عرض ميل».[3]

و المنصورة أيضا: « هي قصبة السند ومصر و مصر الإقليم تكون مثل دمشق، بناؤهم خشب وطين والجامع من حجر وآجر مثل جامع

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 847.

[2] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 119.

[3] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 549.

عمان على سواري ساج، لها أربعة أبواب: باب البحر وباب طوران[1] وباب سندان،[2] باب الملتان ولهم نهر يحوط بالبلد ».[3]

كما أنها من المدن العظام التي بناها أبو جعفر المنصور ولذلك يقال أن اسمها مشتق منه، وقد جاء في ذلك: « وقد بنى أبو جعفر المنصور أربع مدن وقال أنها لا تخرب أبدا، إحداهما بغداد في العراق وهذه المنصورة في السند، و المصيصة بالشام، والرافضة بأرض الجزيرة ».[4]

و كما ذكرنا آنفا أنه لما ضعف نفوذ الخلفاء في السند في أواخر القرن الثامن الميلادي، أنشأ في هذا الظرف حاكمان عربيان ولايتين مستقلتين وهما الملتان والمنصورة حيث أصبح الحكم فيها متوارثا، وجل كتب الرحالة والجغرافيين تشير إلى أن حاكمهما كان من قريش.

و في زمن المسعودي الذي عاش في القرن الرابع الهجري فقد أخبرنا هذا الأخير بأن الذي كان يحكمها هو واحد من سلالة قريش الذي ورث هو بدوره الحكم أبا عن جد، فقال: « صاحب مملكة المنصورة رجل من قريش من هبار بن الأسود، والملك في هؤلاء وملك صاحب الملتان متوارثان قديما من صدر الإسلام ».[5]

---

[1] طوران: من قرى هرات، وهي مدينة صغيرة من أرض السند، (أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة و النشر 1976هـ ـــ1975 ـــ، ج 4، ص 47.

[2] سندان: بينها وبين ديبل والمنصورة عشرة مراحل، (أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 266).

[3] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 479.

[4] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 549.

[5] أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص99.

و يمتاز جو المنصورة كما يذكر لنا الإصطخري بالحرارة، ولذلك كان بها النخيل وأنواع أخرى من الفواكه التي أنتجت بفعل ذلك المناخ فقال: « وهي مدينة حارة بها نخيل وليس لهم عنب ولا تفاح ولا كمثري ولا جوز، ولـــهم قصب السكـــر، وبأرضهم ثمرة على قدر التفـــاح تـــسمى الليمونـــة، حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ تسمى الأنيج، تقارب طعم الخوخ ».[1]

و لكن رغم حرارتها، فخيراتها كثيرة ومدنها عـــامرة، وأســـواقها ملأى كما جاء في بعض المصـــادر: « وفي المنصـــورة هذه بـــشر كثيـــر، وتجار ميـــاسيـــر وماشية و زروع وحدائق وبساتين ... و التجـــــار بهـــا كثيرون والأسواق بها قائمة والأرزاق دائرة »،[2] وكما يذكر المقدســـي عـــن جوهـــا: « والهواء لين و الشـــتاء هين والأمطار كثيرة ».[3]

و أهل المنصـــورة كثير، جلهم من عرب قريش كما يقـــول ابـــن حوقل: « وأهلها مسلمـــون من قريـــش من ولد هبـــار بن الأسود، وقد غلب عليها أجـــداده، و ســـاســـوهم سيـــاسة أوجبـــت رغبـــة الرعيـــــة فـــيهم و إيثـــارهم على من سواهم ».[4]

أما عن خُـــلُق أهلها فهم ذوو مروءة وحسن خلق، وكـــرم وعلـــم ودين وهي خصـــال عربية إسلامية أصيلة، حيث يذكر المقدسي: « أهـــــل

---

[1] أبو إسحاق الإصطخري: المصدر السابق، ص 103.

[2] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 549.

[3] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 479.

[4] أبو القاسم بن حوقل: المصدر السابق، ص 277.

لبــاقة ولهم مروة،[1] و للإسلام عندهم طراوة ... ولهــم ذكــــاء، وفطنــة ومعروف وصدقــة... وحسن أخــلاق».[2]

و أما الجنس الآخر غير العربي، فهو في الغالب يغلب عليه الكفر كما يصفهم المقدسي: « الغالب علــيهم الكفــر، خــرب الأطــراف، قليــل الأشراف».[3]

و يذكــر أيضا أن سكــان المنصورة كثيــري العــــدد بقولــه: « وأهلــه كثيــرو العدد ».[4]

و نظرا لهذه الميزات، نشطت الحركة التجارية بها، كما تذكر لنــا بعض المصادر السابقة حتى أصبحت تكتض بالتجار، حيــث جــــاء فــي أحــدها: « والتجار بها كثيرون».[5]

فهي أول وآخر بلد تجاري، كيف لا وهي قصبة السند وقاعــدتها،[6] فالاستثمار التجاري فيها مفيد، كما يذكر المقدسي:« و التجارات ثم مفيدة».[7] ونظرا لغلبة العنصر العربي عليها، لا نستبعد أنها كانت ذا علاقة تجارية مع التجار العرب لا سيما وأنهم كانوا يترددون على سواحلها.

---

[1] مروة: معناها مروءة.

[2] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 479.

[3] نفسه، ص 479.

[4] نفسه ، ص360.

[5] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 549.

[6] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 133.

[7] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 479.

8 - المولتـــان (المنتان):

مدينة ممتدة نحو الشرق، مائلة قليلا نحو الشمال ممـــا يلـــي بـــلاد فارس ولكنها ليست مدينة ساحلية كالمنصورة، فهي بعيدة عن البحر، ولكنها تتصل به عن طريق نهر السند، الذي يغديها ليشكا عندها فرعا منـــه يـــدعى نهر مهران، إذ يقول بن رسته في هذا الصدد: « والملتان الذي ينشق به نهر مهران مثل دجلة وأكبر».[1]

فالملتان والمنصورة إذا، تقعان في خط نهري واحد، ويبـــدو هـــذا واضحا من خلال ما قاله الحميري: «مهران هو نهر السند الأعظم ... يقال أنه يخـــرج مـــن جـــبل الـــذي يخرج منه نهر جيجون،[2] فيقطع أرض الهند والسند ويظهر عـــلى تـــوافره بـــناحية الملتان ثم يمر على المنصورة ».[3]

والملتان كذلك ثغر من ثغور الإسلام مما يلي السند،[4] و لقد ظلت منذ أن فتحها محمد بن القاسم في عهد الوليد بن عبد الملك مقاطعـــة تابعـــة للخلافة الإسلامية لقول ياقوت:« فالهند منذ فتوح الوليد بن عبد الملك، و هذه البلاد منذ ذلك الوقت بيد المسلمين إلى الآن».[5]

---

[1] أحمد بن رسته: المصدر السابق، ص 155.

[2] نهر جيجون: ينحدر من جبال الباميان، بضواحي كابلستان، (أنظر غبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص162).

[3] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 562.

[4] نفسه، ص 464.

[5] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص228.

و نستطيع القول أنها حاليا وبالتسمية المعاصـــرة تقــع فـــي أرض باكستان والمهم أنها تقع على ضفاف نهر السند، فهي مثل المنصورة أو دونها في الكبر، إذ يذكر بن حوقل أنها: « نحو المنصورة في الكبر»،[1] و المقدسي كذلك يرى أنها: «مثل المنصورة »،[2] غير أن الإصطخري يرى غير ذلــك فهي صغيرة جدا بالنسبة للمنصورة، حيث قال: « فهي مدينة نحــو نــصف المنصورة».[3]

إلا أنهم جميعا، متفقون على أنها تدعى فرج البيت[4] وأنها عظيمة الشأن، نظرا لكونها قبلة الحجاج الهنود، لقول الحموي: « و بها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها و يتقرب إلى الصنم كل عام بمال عظــيم »،[5] ويذكر بن حوقل العلــة فــي ذلك: « و بها الصنم الأعظم للهند الــذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر أصقاعها، وتعظمه، ويتقرب إلـــى هــذا الصنم في كل سنة بمــال عظيــم، فينفــق على بيــت الــصنم و سدنتــــه والمعتكفيــن منه ».[6]

على أن هذه المدينة اشتق اسمها من اسم هذا الصنم الــذي يــدعى الملتان، ولــذلك، يذكــر بن حوقل:« وسميــت الملتان باسم الصنم، والصنم اسمه الملتان »، ثم يصف موضع الصنم قائلا: « ومكان هذا الــصنم فــي

---

[1] أبو القاسم ابن حوقل: المصدر السابق، ص 278.

[2] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 480.

[3] أبو إسحاق الإصطخري: المصدر السابق، ص 103.

[4] أبو القاسم ابن حوقل: المصدر السابق، ص 278.

[5] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 227.

[6] أبو القاسم ابن حوقل: المصدر السابق، ص 278.

قصر مبني في أعمر موضع سوق الملتان بين سوق العجين ... وفي وسط هذا القصر قبة والصنم فيه ».[1]

و بعض أهل الملتان في الحقيقة عرب، مثل المنصورة، وهذا ما أقره بن رسته: « و بالملتان قوم يزعمون أنهم من ولد سامة بن لؤي يقال لهم بنو منبه، وهم الملوك على الهند فيها، وهم يدعون لأمير المؤمنين »،[2] كما أن حاكمها أيضا منهم، ويخبرنا المسعودي عن هذا: « و صاحب مملكة الملتان رجل من قريش من ولد سامة بن لؤي ».[3] ونظرا لمكانة الملتان في نفوس الهنود والصينيين، فإنها أصبحن محط أموالهم وتجارتهم، حتى أن حكومة الملتان العربية، جل أموالها كان مصدرها الصنم، وجاء في ذلك: « وكان صاحبها من ولد سامة بن لؤي، وهو ذو جيوش ومنعة وأكثر ماله من الصنم المعروف بالملتان يقصده السند والهند من أقصى بلدانهم بنذور الأموال وأنواع الجواهر والطيب، ويحج إليه الألوف، ويحمل إليه العود القماري ».[4]

و هذه الميزة جعلتها تتصدر مدن السند من الناحية:الاقتصادية، وباعتبارها محجا للهنود، فهي كذلك تعتبر قبلة للتجار العرب والمسلمين وإلى هذا يشير المسعودي بعبارة وجيزة: « والقوافل منه إلى خراسان متصلة»،[5]

[1] أبو القاسم ابن حوقل: المصدر السابق، ص 278.

[2] أحمد ابن رسته: المصدر السابق، ص 135.

[3] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص99.

[4] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 464.

[5] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص 99.

أي أن تلك القوافل التجارية متتابعة ومتوالية ومترددة بين الملتان وخراســان نظرا لحاجة بعضهما إلى البعض الآخر من حيث التبادل التجاري.

و لعل وقوعها في منطقة حدودية بين الهند وفــارس جعلهــا ذات أهمية تجارية كبيرة، باعتباره محطة الطرق التجارية البرية، التي تربط الهند والسند بفارس والمشرق العربي، كما إنها محط القوافــل التجــــارية التــي ذكرها المسعودي الآتية من الأراضي العربية، وخراسان التي ذكرهــا، إنما هي محطة تجارية فارسية للقوافل العربية المتجهة نحو الــشرق الأقــصى، وكان العرب يتبادلون مع التجار الهنود بالسند، وعلى وجه الخصوص الملتان باعتباره كما قلنا مركزا تجاريا بريا هاما بها،[1] أم لعل المعاملة الحسنة التي كان يتلقاها العرب دون غيرهم من الأجانب من طرف أهالي المنطقة، هــي التي جلبت هؤلاء التجار العرب إليها، و المقدسي الذي أغرته هذه الخــصال والخلال الحميدة النابعة من العمق الإيماني الإسلامي وليدة الأصل العربي، إذ يقول: « ولا يكذبون في بيع ولا يبخسون في كيل ولا يخسرون فــي وزن، يحبون الغرباء وأكثرهم العرب ».[2]

أو ربما اجتذبهم الحكم العادل فيها، مع وجــود الــنعم الكثيــرة و التجارات المفيدة والمربحة كما جاء على لسان المقدسي: « والخير بها كثير، و التجارات حسنة والنعم ظاهرة والسلاطين عادلة».[3]

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 147.

[2] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 480.

[3] نفسه ، ص360.

كما أن بضائعها رخيصة وأسعارها منخفضة رغم الخيرات الكثيرة والأشياء الثمينة التي تنتجها إذ يقول: « رخيصة الأسعار ».[1]

و المهم أن التبادل التجاري بين العرب والهنود، كان قائما بالمنطقة حتى القرن الرابع الهجري وذلك ما لمسناه من الرحالة السابق ذكرهم، مثـــل المسعودي و المقدسي اللذين عاصرا هذا القرن.

9 ــ ملابار (مليبار):

و هي بلاد ساحلية شاسعة تقع في الجانب الغربي من شبه الجزيرة الهندية[2] وهي المشهورة في الكتب الجغرافية ببلاد الفلفل،[3] و طولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم،[4] و لقد ارتبطت هذه المنطقة ارتباطا وثيقا ببلاد العرب، منذ أقدم العصور بفضل موانئها وتوافد العـــرب عليها وتبادل البضائـــع التجارية بين تجار بلادها وبلاد العرب.[5]

و كان من أهم موانئها صيمور (CHAUL) الحالية، والتي تقع فـــي الجنوب الغربي منها،[6] و هي كما يصفها الحموي: « ملاصقة للسند قـــرب الديبل و هي من عمل ملك من ملكهم يقال له البلهرا »[7] وتعد من المراكـــز

[1] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 480.
[2] نعيم زكي: المرجع السابق، ص166.
[3] ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 105.
[4] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص 432.
[5] إسماعيل الندوي: المرجع السابق، ج1، ص43.
[6] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص105.
[7] ياقوت الحموي: المصدر السابق،ج 3، ص 440.

المهمة لدى العرب، حيث كان بها في زمن المسعودي مستعمرة تحتوي على حوالي عشرة آلاف من نازحين جدد من البصرة وبغداد و غيرهما من المناطق العربية، وكان بها أيضا تجار كبار.[1]

كما تشتهر بلاد الملابار بميناء آخر وهو " كولم ملي " أو " كولم تلي"، الذي كان كما يقول الندوي: « مقصد التجار العرب سواء أكان للتجارة مع أهل ملابار أو لتزويد السفن العربية بما تحتاج إليها من مؤن خلال رحلاتها الطويلة إلى الصين ».[2]

و نظرا لأهميته الاقتصادية، أصبح هذا الميناء مع مرور السنين ومع تدفق التجار عليه من مختلف الأجناس وخاصة العرب منهم، من أحسن مدن الملابار و أسواقها من أحسن الأسواق.[3]

كما تعتبر قاليقوط (كاليكوت) من أهم مدن الملابار الساحلية، و مرساها من أعظم مراسي وموانئ العالم، و كان أغلب من يقصدها أهل الصين و جاوة و سيلان و أهل اليمن و فارس، و بها يجتمع تجار الآفاق.[4]

كلكتا حاليا هي من أهم المرافئ الهندية الشرقية على خليج عند دلتا نهر الغانج، و هي عاصمة البنغال الغربي وهي من أكبر مدن الهند و به العديد من المساجد و الآثار الإسلامية.[1]

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 149.

[2] إسماعيل الندوي: المرجع السابق، ص 43.

[3] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص 440.

[4] نفسه، ج2، ص 437.

و هناك مدينة أخرى لا تقل أهمية عن تلك المدن التجارية الكبيرة التابعة لبلاد الملابار، و هي مدينة "منجرور"، و تقع على خور عظيم، يسمى خور الدنب (بضم الدال المهمل و سكون النون)، ينزل بها معظم تجار اليمن و فارس، و قد كان بها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة.[2]

و لذلك، فبحكم الامتداد التاريخي و الجغرافي بين الملابار و بلاد العرب، و قدم العلاقات بينهما، فقد نشأت نوع من الرابطة التكاملية بينهما التي لا يمكن لأجيالهما المتعاقبة الاستغناء عنها.

لهذا الصدد، فأهل الملابار بالنسبة للعرب حليف استراتيجي لا يمكن التفريط فيه لأن بلادهم تشكل أهم مصدر لثرائهم أو استثمار أموالهم فيها، كما أصبح لساحل ملابار أهمية اقتصادية كبرى للعرب، لأنه كان يمدهم بما يلزمهم من الخشب الساج الذي كان يستخدم في بناء السفن.

و في مقابل ذلك، كان سكان ملابار « يجنون أرباحا كثيرة، وكان ملوكها يحصلون على رسوم الموانئ ».[3]

و هكذا، فقد كان لتوافد القوافل العربية على هذه المنطقة أثر بالغ في نشوء جاليات لها عبر أنحاء سواحل غرب الهند، ثم زادت الروابط بينهم

---

[1] يحي شامي: المرجع السابق، ص355.

[2] نفسه، ص 434.

[3] إسماعيل الندوي: المرجع السابق، ص 43.

وبين الملوك لدرجة أن الملوك منحوهم الحرية التامة في نشر تعاليم الإسلام واحترموا حتى أولئك الذين أسلموا من أهالي ملابار.[1]

و بتردد العرب المسلمين على مدن الملابـــار انتعــشت ونــشطت الحركة التجارية بها، وازدادا الترابط بينها وبين المدن العربية، حتى أصبحوا هم سادت التجارة في السلع التي تجلب من هذه المنطقة، باعتبـــار أراضـــيها ذات المناخ الموسمي، فالإنتاج الوفير بها من التوابل،[2] بحيث أصـــبح لـــدى العرب وكالات خاصة بتسويقها إلي الخـــارج، وتقـــوم الوكـــالات الأجنبيـــة بتسويقها وتصديرها إلي الخارج ومن هذه الوكالات وكالات الجاليات العربية الذين يكونون خمس سكان الموانئ،[3] كما أن لهذه الجاليات العربية دور في التبادل التجاري فالمتاجر المعينة للبحر الأحمر كان ينقلها العرب والمصريون في مراكبهم ن وقد كان هؤلاء يعيشون من تلك الموانئ باعتبارهم رعايــــا الحكام المحليين بل بـــاعتبـــارهم أصحاب امتيازات خاصة.[4]

و قد كان العرب منذ عهد عتيد يحتكرون التبادل التجـــاري بـــين ملابار والعالم الغربي بما فيه أوروبا عن طريق تلـــك الوكـــالات، فكـــانوا يراسلون التجار في مصر وأوربا ولهم وكـــلاء فـــي الخليــــج الفارســـي، وسواحل بلاد العرب وشرق إفريقيا، ولقد وطنوا أقدامهم في مـــدن ومـــوانئ ســـاحل ملابار منذ أمد طويل.[5]

---

[1] إسماعيل الندوي: المرجع السابق، ص 43.

[2] نعيم زكي: المرجع السابق، 166.

[3] نفسه.

[4] السيد مقبول: المرجع السابق، ص 130.

[5] نعيم زكي: المرجع السابق، ص 166.

بمعنى أنهم منذ أن استقرت جالياتهم منذ العهود الإسلامية الأولـــى التي سبق وأن أشرنا إليها كانوا هم الوكلاء الرئيسيين لهذه التجارة.[1]

10- سرنديـــــب (سيلان):

جزيرة جاء ذكرها في بعض كتب الرحالة كالمسعودي والبيرونـــي وغيرهما باسم: " سرنديب"،[2] غير أن البعض الآخــر فــضل تــســميتها " بسيلان" مبررين ذلك، بأن تسمية سرنديب إنما تطلق على موضع معين فـــي جزيرة سيلان حسب قول ياقوت: «بها ســرنديب »،[3] ومعنـــى ســـرنديب «جزائر الذهب».[4]

و تقع سرنديب في جنوب شرق الجزيرة الهندية، في شرقي مدينة "بلبق" التي تقع في جنوب رأسها[5] المقوس، الذي يشبه تقريبا رأس الرجـــاء الصالح بأفريقيا، ويطلق على سرنديب في العصر الحالي اسم « سيريلانكا». و يزعم البعض أن في هذه الجزيرة يقع الجبل الذي هــبط عليـــه آدم عليـــه السلام من الجنة، ولذلك جاء في نخبة الدهر:« وجزيرة ســـرنديب بجنـــوب

[1] السيد مقبول: المرجع السابق، ص 131.

[2] المسعودي: المصدر السابق، ص 152.

[3] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3 ص 298.

[4] أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مطبوعات دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1373هـــ ـــ 1958م، ص 169.

[5] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص ص 85 و 86.

البحر يحيط بها ألف و مائة ميل يشقها جبل الراهون وهو الذي هبط عليه آدم عليه السلام وهو متصل في البحر ».[1]

و تتوسط سرنديب بين الهند والصين حيث ذكر ياقوت بأنها: « متوسطة بين الهند والصين »،[2] و نظرا لطيبتها وعظمتها سكنها خليط من الأجناس فهي متعددة الجنسيات والديانات حيث يقول الدمشقي: « ومدينة سرنديب يسكنها مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وكفرة لا ينقادون لملة، ولكل طائفة حاكم لا يبغي بعضهم على بعض، وكلهم راجعون إلي ملك المسلمين يسوسهم ويجمع كلمتهم »،[3] و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها المسلمون بتلك الجزيرة.

و تشتهر سرنديب بمعدن الذهب، حيث يذكر المسعودي أن بها: « معادن الذهب كثيرة »،[4] كما توجد بها بضائع متنوعة ونفيسة لا تقدر بثمن، ولقد جاء: « وفيها عقاقير كثيرة لا توجد في غيرها من الدار صيني وزهرة بقم، وقيل أن فيها معادن الجوهر»،[5] كما توجد فيها كما يذكر الدمشقي: « وبالجزيرة شجر القرنفل».[6]

---

[1] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الطالب الأنصاري الدمشقي: نخبة الدهر، مطبعة بريل، ليدن المحروسة، 1923م، ص 160

[2] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 218.

[3] شمس الدين الدمشقي: المصدر السابق، ص 160.

[4] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص 152.

[5] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 212.

[6] شمس الدين الدمشقي: المصدر السابق، ص 160.

و لقد تجاوزت التجارة الإسلامية جميع سواحل الهند حتى وصلت إلى سيلان الرأس الجنوبي للهند،[1] حيث تألق بها التجار المسلمون فصارت سرنديب من أبرز المحطات التجارية التي تحط بها وتعتمد عليها السفن التجارية الآتية من شبه الجزيرة العربية ومن العراق.

11- خانقو(كانتون):

تعتبر "خانقو" (كانتون) البوابة التي يعبر منها من أراد التوجه إلى الصين عن طريق البحر[2]، فهي مدينة جليلة تقع على نهر عظيم يدعى "خمدان" في الجانب الشرقي من الصين،[3] وهي كما يذكر "المسعودي":« مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب في بحر الصين، و بين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة ».[4]

كما تعتبر الميناء الأكبر في الصين منذ أمد بعيد و التي كانت تشتهر باسم: «المرقى الأعظم من مراقي الصين ».[5]

و تدعى كانتون حالياً قوانغزهو (Guangzhou) أو قونغ- تشو(Kouang-tcheou) و هي ميناء الصين برأس قوانغدونغ

---

[1] JOURNAL ASIATIQUE, AOUT SEPTEMBRE 1846, p150.
[2] ذانج هو: المرجع السابق ج6، ص14.
[3] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 122.
[4] أبو الحسن المسعودي:المصدر السابق، ص138.
[5] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 211.

(Guangdong) عند مصب نهر كزي–جيانغ (Xi Jiang)[1]، و هي أقدم مركز تجاري بالصين كانت له علاقات تجارية واسعة مع الهند و العالم الإسلامي.[2]

و لقد أصبحت "خانقو" مرصدًا كبيرا للتجار العرب الذين اتخذوا منها « قاعدة لعملياتهم التجارية»،[3] حيث أصبحت السفن التجارية العربية كثيرة التردد على مدينة "خـــانقو" عن طريق نهرها الأعظم، فيقول "المسعودي" في شأن ذلك: « تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة و سيراف و عمان و مدن الهند، و جزائر الزابج[4] و الصنف و غيرها من الممالك بالأمتعة و الجهاز و تقرب مدينة خانقو».[5]

أنشأ هؤلاء العرب مواصلات منتظمة بين مراكزهم على الخلـــيج الفارسي و مراكزهم الجديدة في جنوب شرقي آسيا، فانتقل هذا النشاط بعـــد ذلك إلى البحر الأحمر الذي اتصلوا من حلاله مباشـــرة بمـــوانئ الـــصين، وارتكز نشاطهم على الموانئ الكبيرة و التي تعتبر "خانقو" أكبرها.[6]

و كان بخانقو كما هو الحـــال بـــسرنديب خلـــيط مـــن الأجنـــاس و الديانات المتعايشة فيما بينها في سلم و سلام، و نلمس ذلك من خلال مـــا

---

[1] كزي– جيانغ (Xi Jiang) أو سي—كيانغ (Si-kiang) و هو نـــهر كبير بالصين طولـــه 2000 كلم ينتهي بدلتا التي أنشئت عنده مدينة كانتون (أنظر:.A-Kondo et Kondratiev : op.cit, vol 1, p 661).

[2] Ibid, vol2, p 1647.

[3] نعيم زكي: المرجع السابق، ص 162.

[4] هي جزيرة في أقص بلاد الهند وراء بحر الهركند عند حدود الصين (أنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 3، ص124).

[5] أبو الحسن المسعودي:المصدر السابق، ص 138.

[6] نعيم زكي: المرجع السابق، ص 162.

نقله بعض الرحالة: «فيها خلائق من الناس مسلمون و نصارى و يهود و مجوس و غير ذلك من أهل الصين».[1] حيث بلغ عدد أولئك الأجانب في القرن التاسع الميلادي في خانقو وحدها مائة و عشرين ألف نسمة، و هذا في الواقع عدد ضخم.[2]

و لهذا، أصبحت "خانقو" بالنسبة للتجار العرب مركزا مهما لهم، و التي كان لهم الدور الكبير فيها. و بالموازاة معهم، كان التجار الفارسيين إلى جانبهم يتقاسمون معهم هذا الدور الحيوي، فقد كانا يمثلان وجهين لعملة واحدة، لدرجة أنه لا يذكر فيها تاجر عربي إلا و ذكر تاجر فارسي معه، و يدعم ذلك قول المروزي:« و على أحد جانبيه (أي النهر[3]) أسواق التجار الغرباء، و على جانبه الآخر أسواق أهل المدينة، و أكثر من يقصدهم التجار الفرس و العرب، و الفرس يركبون إليهم من سيراف، و العرب من البصرة»،[4] حتى باتا يشكلان معا إحدى أكبر التكتلات التجارية بها.

و كانت أسواق خانقو تزخر بالبضائع النفيسة كالحرير و المسك و العود و السروج و السمور و الدار الصيني و الأبنوس و خشب الصندل و الكافور و الخيزران و مختلف أنواع الأفاويه.[5]

---

[1] أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص 162.

[2] ذانج هو: المرجع السابق، ج6، ص 15.

[3] يقصد بذلك نهر حمدان الذي تقع على ضفافه مدينة "خانقو"، (أنظر الصفحة السابقة).

[4] شرف الزمان المروزي: المصدر السابق، ص10.

[5] نعيم زكي: المرجع السابق: المرجع السابق، ص 162.

و كان الملك لا يأخذ من أمتعة التجار إلا العشر،[1] فلم يزل ملتزمـــا بأخذ تلك النسبة دون أن يزيد أو ينقص فيها، مما يشير إلى التــزام الملــك بتعهداته، بل و أكثر من ذلك، فقد عرف عن أهالي هذه البلدة الطيبة ســواء كانوا حكاما أو محكومين بالوفاء و الأمانة و صدق الحديث و هذا ما نستشفه من قول المروزي: «و كان لأهل هذه المدينة وفاء و أمانة و صدق لهجة».[2]

12- خمـــــدان:

تقع هذه المدينة الكبيرة عند مصب النهر الكبير الذي سميت باسمه "نهر خمدان" و هو من أعظم أنهار الصين، و عنده يختلط البحران العظيمان البحر الهندي و البحر المحيط (المحيط الهندي و المحيط الهــادي)، و علـــى ضفافه الشرقية و الغربية تمتد هذه المدينة المترامية الأطراف، و هـــي مـــن أشهر مدن الصين خلف خط الاستواء.[3]

و لقد اعتبرت هذه المدينة من أهم المحطات التجارية ســواء مـــن الناحية البحرية أو عن طريق النهر ذاته و التي تتصل من خلاله بمدن كبيرة أخرى مثل "خانقو" التي تقع هي أيضا على نفس النهر.[4]

---

[1] شرف الزمان المروزي: المصدر السابق، ص10.

[2] نفسه، ص 5.

[3] ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 88.

[4] شرف الزمان المروزي: المصدر السابق، ص 10.

13- كوانشو أو تيشوا نتشو (زيتون):

"كوانشو"[1] و يسميها البعض "تيشوا نتشو" هي إسم مدينة كان يطلق على ميناء "تسي تون"[2] أو كما وردت على لسان كما من "ابن بطوطة" و "ابن سعيد المغربي" باسم "زيتون"[3] من طرف التجار الأجانب و هو اسم معروف حتى الآن و مشتق من أشجار الزيتون التي تزخر بها شوارعها التي زرعت خلال الفترة الممتدة بين 944 و 662 ميلادية تحت إشراف حاكمها الذي كان يدعى "ليوكونج كسياو"، بحيث تقع عند مصب نهر "جن جبانج" أو كما يسميه "المغربي" بنهر "زيتون"[4] . و يبدو أن التجار العرب هم الذين أطلقوا هذه على الميناء باعتبار الكلمة ذات أصل عربي لفظا و معنى.

لذلك، كانت بحكم هذا الموقع الاستراتيجي ميناءً طبيعيًا ممتازًا. ثمّ تطورت تدريجيًا لتصبح ميناءً مزدهرًا ترسو فيه السفن التجارية، كما تم إنشاء مكتب ملاحظة الملاحة التجارية رسميًا في هذا سنة 1087 ميلادية، و قد قامت حكومة سونغ الثامنة بإنشاء هذا المكتب.

كان معظم التجار الأجانب يجتمعون في عهد أسرة سونغ في كل من كانتون و كوانشو، و كانوا كلهم من التجار العرب الذين كانوا من أغنى التجار على الإطلاق.[5]

---

[1] ذاتج هو: المرجع السابق، ص35

[2] أنظر: فهمي هويدي، المرجع السابق، ص 52.

[3] أنظر: محمد ابن بطوطة: المصدر السابق، 486 و ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص121.

[4] أنظر : ابن سعيد المغربي: المصدر نفسه، ص121،

[5] ذانج هو: المرجع السابق، ص35.

14- لوقيـــــن:

تقع مدينة لوقين عند خليج بحري على نهر يحمل نفس الاسم و هو رابع أنهار الصين و هي مشهورة بين فرض (الحواضر الكبرى) الـــصين، و في شرقيها يقع نهر خمدان الأعظم الذي تقع في نهايته مدينة خانقو.[1]

و تعتبر لوقين من أول مراقي الصين تبعد عن الـــصنف[2] ثـــلاث مراحل، و بها كان يطرز الديباج و الحرير الصيني و منها يخرج إلى جميع الجهات و بها يعمل الغضار الصيني، و منها يُتَجَهَّز أيضًا إلى سائر الـــبلاد المتصلة و المتباعدة و بها أرز و حبوب و نارجيل و قصب و لباس أهلهـــا الفوط و هم يجالسون التجار و يداخلون الناس.[3]

15-خانجو (هانجشو):

تقع هذه المدينة على الساحل في الجانب الشرقي من الصين شمال زيتون و تقدر المسافة التي:«بينها و بين خـــانقو ثمانيـــة أيـــام».[4] و يقـــدر الإدريسي الذي يسميها "خانفو" المسافة بينها و بين مدينة لوقين مسيرة أربعة أيّام في البحر و عشرين في البر، و هي من أعظم مراقي الصين تقـــع فـــي خليج تدخل منه السفن مسافة شهرين حتى تصل إلى باجة.[5] و تعتبر خـــانجو

---

[1] ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، 122.

[2] بينها و بين جزيرة قمار مسيرة ثلاثة أيام و بها العود الصنفي (أنظر: أبوالقاسم ابن خرداذبة : المسالك و الممالك ، تقديم فهرست الدكتور محزوم، ط2، دار إحياء التراث العربي بيروت، بدون تاريخ ، ص66)

[3] الشريف الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص 84.

[4] محمد الحميري: المصدر السابق، ص 164.

[5] هي مدينة البغبوغ ملك الصين بأجمعها و إلى مدينته ينتهي مسافر و بلاد الغرب الشريف الإدريسي:المصدر السابق، مج 1، ص84 .

مملكة كبيرة ذات فيلة كثيرة و أجناد و أسلحة و أهلها يأكلون الأرز و الألبان و النارجيل و قصب السكر.[1]

فهانجشو (Hangchow) كانت عاصمة أسرة سونج، و بحلــول عــام 1275م أصبحت أكبر و أغنى مدينة في العالم في غاية الرفاهيــة و الروعــة و الجمال مليئة بالثقافة تنبض بالحياة و النشاط.[2] فقد وفرت هــذه المدينــة لصغار الموظفين و التجار الأجانب و الشعب العامل ألوانًا من مرافق التسلية و المتعة، فانتشرت فيها كثير من المطاعم المتخصصة في ألوان شــتى مــن الأطباق المحلية، و كانت الأسواق ليست حكرا عل التجارة فقط بــل كانــت أماكن ترفيه و تسلية.[3]

و تعتبر هذه المدينة ذات أهمية كبرى بالــصين باعتبارهــا مــن المراقي العظام التي ترقى إليها السفن التجارية العالمية الكبــرى، و يعــرف ميناؤها عند العرب باسم "كينساي" أو "كنيسيا"،[4] وإليه ينتهي التجار العــرب، و مع أنها ليست كبيرة، إلا أنها تعد كمركز تسويق لنهــر "يــانج ســي"، إذ تتواجد بها مراكز و وكالات تجارية للمسلمين كتلــك الموجــودة بخــانقو،[5] و التي نشأت بموجبها علاقات اقتصادية بينهما وخاصة في المجال التجاري، حيث استمرت إلى غاية نهاية القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) .

---

[1] الشريف الإدريسي:المصدر السابق، مج 1، ص84 .

[2] (أنظر: .A-Kondo et Kondratiev : op.cit, vol 1,p736)

[3] كاڤين رايلي: المرجع السابق، ص ص217-219.

[4] نعيم زكي: المرجع السابق، ص 164.

[5] نفسه.

و لذلك، فقد بذلت الحكومة الصينية جهدا كبيرا لتنشيط التجارة الخارجية، و بذلت كل ما في وسعها لاستقطاب التجار الأجانب و تحفيزهم على استثمار أموالهم في هذا المجال داخل الصين بصفة عامة و في هذه المدينة على وجه الخصوص، فأرسلت بذلك وفدا إلى الخارج ليقنع التجار الأجانب بالمجيء إلى الصين، و منحت لهم إجازات خاصة لاستيراد البضائع، و أنشأت الحكومة سنة 389هـ/999م دوائر للتجارة البحرية في "هانجشو" (خانجو) بناء على طلب التجار الأجانب و تسهيلا لمعاملاتهم.[1]

و على هذا الأساس، لعب الغرب الدور الأساسي من بين التجار الأجانب الذين كانوا يتاجرون مع الصين، و الذين عاملتهم الحكومة الصينية معاملة جيدة و متميزة.[2]

16- كله بار(كله):

كان اسمها الحقيقي "كله" كما هو مذكور في جلّ الكتب الجغرافية و تسمى أيضًا "الملايو"و "ملقة"، هذه كلها أسماء لما يعرف بماليزيا اليوم.[3] و هي عبارة عن لسان ممتد في المحيط الهندي متصل بشبه جزيرة ملاير من الناحية الشمالية الشرقية،[4] أو كما يسميها الإدريسي "ملاي" (يقصد بها شبه جزيرة الملايو) و ذكر أن المسافة بينها و بين جزيرة الصنف مسيرة اثني عشر يومًا بين جزائر و جبال شارعة في البحر و هذه الجزيرة معترضة من المغرب إلى المشرق، و في جهة الشمال معترضة اعتراضًا مؤديًا إلى أن تمس ساحل الصين و هي أطول الجزائر قطرًا و أكثرها عمارة و أخصبها

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 148.

[2] نفسه.

[3] شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص 105.

[4] ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص108.

جبالاً و أوسعها مملكة و أنفعها تجارة.[1] و يبدو حسب هذه التسمية و الأوصاف الدقيقة التي وصفت بها من طرف الرحالة و موقعها الجغرافي الذي حددوه لنا أنها هي ماليزيا الحالية بالرغم من أنهم نسبوها إلى بلاد الهند. فحسب ابن الفقيه الهمذاني هي: « مملكة "الزابج" متيامنة عن على بلاد الهند. و لباسهم الفوط»،[2] أما أبا دلف حينما بيّن لنا طريق العودة من الصين ذكر أن أوّل بلاد حطّ بها بعد الصين قبالة الهند هي "كله" وقال أنها منتهى مسير المراكب فلا يكاد يتجاوزها أحد إلاّ غرق.[3] و حينما نتأمل موقعها الذي حدّده لنا ابن خرداذبة، و ذلك بجمع مسافات المسالك البحرية بين الجزر ابتداءً من سرنديب اتجاه اليمين حتى هذه البلاد و المقدرة بأكثر من عشرين يومًا،[4] لأدركنا فعلاً بأنها هي "ماليزيا". غير أنّ محقق رسالة أبي دلف يؤكّد "كله بار" هي ليست كل ماليزيا و إنّما هي بالتحديد عاصمتها "كوالا لمبور"، و إذا أمعنا النظر في الكلمتين نجد أوجه تشابه بينهما و متقاربتان من حيث النطق، و ربما يكون هذا الاحتمال أقرب إلى الصواب.

و لمّا زار أبو دلف هذه البلاد انبهر لجمالها وعظمة بنائها قائلاً: « فلمّا وصلتُ إليها رأيتها منيعة، عالية السور، كثيرة البساتين، غزيرة الماء، و وجدت بها معدنًا للرصاص القلعي لا يكون إلاّ في قلعتها من سائر الدنيا، و في هذه القلعة تضرب السيوف المعروفة بالقلعية و هي الهندية العتيقة »،[5] ثم يضيف واصفًا إيّاها و أحوال أهلها: « و بينها و بين الصين ثلاثمائة

---

[1] الشريف الإدريسي: المصدر السابق، ص 91.

[2] ابن الفقيه الهمذاني: المصدر السابق:ص12.

[3] بن المهلهل أبو دلف: المصدر السابق:ص 59.

[4] أبو القاسم بن خرداذبة: المصدر السابق:ص 66.

[5] بن المهلهل أبو دلف: المصدر السابق:ص 59.

فرسخ، و حولها مدن و رساتيق[1] و قرى، و لهم أحكام و حبوس و جنايات، و أكلهم البر و التمور، و بقولهم كلها تباع وزنًا، و أرغفة خبزهم تباعُ عَددًا و لا حمّامات لهم، بل لهم أعين حارّة يغتسلون فيها، و درهمهم يـــزن ثلثـــي درهمنا و يعرف بالفهزي، و لهم فلوس يتعاملون بها».[2]

هذه هي أهم المحطات التجارية البحرية التي تربط الطرق البحرية الممتدة بين العالم الإسلامي و الشرق الأقصى بأقسامه الثلاثة:الهنـــد، الـــسند و الصين، إلا أننا تغاضينا عن ذكر باقي المحطات نظرا لوجـــود عـــدد لا يحصى منها و التي لا يتسع بنا المقام هنا لذكرها، بل نكتفي بأهمها و التي لها علاقة مباشرة مع موضوع المبادلات التجارية بين العالمين المـــذكورين آنفا، سواء كانت هذه المحطات محطات إقلاع أو استقبال أو واصلة بينهمـــا عبر شبكة الطرق البحرية الممتدة بينهما.

2 - المسالك و الطرق البحرية:

و بحكم قرب المسافة بين قلـــب الخلافـــة الإســـلامية (العـــراق) والأراضي الهندية، كانت التجارة البحرية بينهما نشيطة،[3] وكانت البـــصرة تمثل المنطلق الرئيسي للطرق التجارية البحرية بالنسبة لهذه المنطقة، فيمتـــد أولها إلى الهند والصين بينما يدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية إلـــى البحر الأحمر إلى شرقي إفريقيا، ولما كان الخليج ضحلا، عند مصب دجلـــة العوراء، فقد أنشأ منار في البحر، تسترشد به السفن القادمة إلى البصرة.

[1] رستاق كلمة فارسية معرب رزتاق و هو السواد و القرى جمع رزداقات و رزاديق، (أنظر: بطرس البستاني، المصدر السابق، ص 332).

[2] بن المهلهل أبو دلف: المصدر السابق،ص 60.

[3] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 289.

و كان التجار العراقيون إذا أرادوا أن يرتحلوا إلى الشرق الأقصى وعلى وجه الخصوص الهند، انطلقوا بسفنهم من البصرة، فيمرون في طريقهم بمسقط ثم ديبل، وأحيانا يمرون على المنصورة، ومنها إلى كلم ملي، الميناء الرئيسي لمنطقة الملابار، ومنه إلى سرنديب ثم إلى خليج البنغال إلى الناكبالوس[1] (وهي جزيرة من جزر النيوكوبار)، ثم كله بار(في مالقا)، ومنها إلى جزيرة تيومه (سومطره)، ثم إلى الصنف (كمبوديا حاليا)، ثم إلى صندرفولات،[2] وفي الأخير يصلون إلى خانقو (كانتون) وهو ميناء الصين العظيم.[3]

وضع بن خرداذبة في كتابه "المسالك والممالك" دليلا للمسافرين، وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من البصرة مصب دجلة عند الأبلة، ويصل إلى بلاد الهند والصين حيث يقول: « فمن البصرة إلى جزيرة خارك[4] خمسون فرسخا ... ثم إلى جزيرة كيس[5]... ثم إلى جزيرة ابن كاوان[6]... ومن جزيرة بن كاوان إلى أرموز[7]... ثم إلى ثارا مسيرة سبعة

---

[1] الناجبالوس: تقع شرق سرنديب على مسيرة عشرة أيام اتجاه كله، (أنظر بن خرداذبة :المصدر السابق، ص62 و ما بعدها).

[2] صندرفلات:جزيرة بينها وبين الصنف مسيرة عشرة أيام وبينها وبين الصين مسيرة شهر، (أنظر أبو بكر ابن الفقيه: المصدر السابق ص12.).

[3] عبد العزيز الدوري الدور ي: المرجع السابق، ص 147.

[4] خاراك: فهي على أربعة فراسخ في البحر، فهي بين البصرة والبحرين، (أنظر محمد الحميري، المصدر السابق، ص 212).

[5] كيس: أو كيش أو قيس، تقع على ساحل فارس في بحر عمان، (أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 422).

[6] ابن كاوان: جزيرة صغيرة، تقع بين سيراف وعمان، (أنظر أبو بكر ابن الفقيه: المصدر السابق، ص11).

[7] أرموز: يقصد بها هرمز، وهي الميناء الرئيسي في الخليج الفارسي وفرضة كرمان، (أنظر نعيم زكي: المرجع السابق، ص 112).

أيام، وهي الحد بين فارس والسند، ومن ثارا إلى الديبل مسيرة ثمانية أيـــام، ومن الديبل إلى مصب مهران نـــهر السنـــد في الـــبحر فرسخان، ومـــــن مـــهران إلى أوتـــكين، وهي أول أرض الهند مسيرة أربعة أيام، ومـــــــنها إلى سندان[1] و مـــن سندان إلى مـــلي مسيرة خمسة أيـــام ومنها إلى بلـــين ... ومن أخذ من بلين[2] إلى سرنديب فهو مسيـــرة يوم ...وبعـــد ســـرنديب جزيـــرة الرامني[3] ».[4]

هذا باختصار فالطريق من البصرة إلى أقصى الهند، ولقد حرصنا على نذكر أهم المحطات البحرية دون غيرها نظرا لكثرتها ولـــيس بإمكاننـــا سردها بكاملها في موضوعنا لا سيما وأنها تستدعي التعليق الكبير عليها. فهذا الطريق كما يبدوا، يسلكه الهنود والصينيون على السواء، لأنه إلى هـــذا الحد هو طريق واحد بالنسبة لهم، وأما ما بعده فإنه يسلكه من أراد الـــذهاب إلى الصين.

و أما المسلك الثاني، إذا كانت انطلاقة السفن التجارية من عمـــان سواء من مسقط أو صحار، فإذا أرادت أن تذهب إلى السند حطت في الديبل، وأما إذا أرادت الهند فإنها مباشرة تتجه نحو كولم ملي، الذي يعتبر المينـــاء الرئيسي للهند كما ذكرنا، فمن أراد الاتجاه نحو أقصى الهند أو الصين فمـــا

---

[1] سندان: مدينة مشهورة ملاصقة للسند، بينها وبين الديبل والمنصورة نحو عشرة مراحل، (أنظر يـــاقوت الحموي : المصدر السابق، ج3، ص ص 266 ـــ 267).

[2] بلين: على حسب موقعها القريب من سرنديب أقصى الهند، فهي:((بلبق))، شمال سرنديب، (أنظر ابن سعيد المغربي المصدر السابق،ص85).

[3] الرامني: والمشهور بالكركدن والجواميس التي لا أذناب لها، وفيها جبال الزابج، (أنظر أبو القاسم بن عبد الله :المصدر السابق، ص 65).

[4] أبوالقاسم ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص ص 62 وما بعدها.

عليه إلا أن يتبع الطريق المذكور آنفا، وإما السفن التي تأتى من صنعاء و زبيد وعدن فإنها تمر مباشرة إلى كولم ملي، وهذه الأخيرة هي المحطة الرئيسية للسفن المتجهة نحو الهند، و بها يأخذ التجار راحتهم بعد طول سفر وعناء وإنها تتحاشى الوقوف عند جزيرة سقطرى رغم أهميتها بالنسبة لهذه السفن باعتبارها أول محطة بحرية في الطريق إلى الهند ولكن وجود القرصان بها الذين يقطعون الطريق، حال دون ذلك.[1]

و لقد حاول " متز" أن يعطينا صورة مصغرة عن هذا الطريق،[2] ليطلعنا من خلاله على الزمن الذي يستغرقه التجار من مسقط كآخر نقطة عربية تغادرها سفنهم إلى أقصى نقطة في الساحل الصيني فيقول: « ومن ذلك كله، نعلم أن الناس كانوا يسيرون بحذاء ساحل الهند أو يتجهزون من مسقط إلى ميناء كولام (كويلون) رأسا، وذلك في نحو شهر ثم يواصلون سيرهم جاعلين جزيرة سرنديب إلى يمينهم، ويقصدون جزائر نيوكوبار على مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشرة يوما من جزيرة سرنديب، ومن ثم إلى مدينة كدا في ملقى (ملكا)، وهي على مسيرة نحو شهر من كويلون، ومن هناك يقصدون جاوا، وجزيرة ماهيت (مايط) ... ثم يسيرون خمسة عشرة يوما، حتى يصلوا كمبوديا، ومنها إلى ... الصين ».[3]

إلاّ أنّ الهمذاني يعطينا خريطة الطريق البحري المؤدي إلى الصين ابتداءً من "كولم ملي" بقوله: «ثمّ تختطف السفينة من كولم ملي إلى بحر

---

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 847.

[2] لمزيد من التوضيح حول هذه الطرق أنظر الشكل 1.

[3] آدم متز: المرجع السابق، ص 847.

الهركند[1] فإذا جاوزه صار إلى موضع يقال كله بار[2]...ثمّ تختطف السفينة إلى موضع يقال له تيومة و المسافة إليها عشرة أيّام بها ماء عذب...ثم يختطف إلى موضع يقال له الصنف ثمّ إلى موضع يقال له صندرفولات و هي جزيرة في البحر و المسيرة إليها عشرة أيّام ثمّ إلى موضع يقال صنج إلى أبواب الصين و هي جبال في البحر بين كلّ جبلين فرجة تمرّ فيها السفن ثمّ إلى الصين و من صندرفولات إلى الصين مسافة شهر».[3]

و كان المسافر يسير مع ساحل الصين وحده شهرين،[4] بمعنى أن هذه الرحلة كانت تستغرق بأكملها ما يقارب خمسة أشهر، وهذه المدة أقل بكثير من المدة التي يستغرقها المسافر في البر.

ـ مصاعب الطرق البحرية:

و أما عن المشاكل التي كانت تعترض طريق التجار العرب أثناء سفرهم في البحر، فالمشكل الأول يتمثل في هيجان البحر، وخاصة بحر الهند (المحيط الهندي)، والناس لا يركبونه عند هيجانه وظلمته.

و أما المشكل الثاني فهو تعرض سفن أولئك التجار إلى النهب من طرف القرصان الذين شوهوا سمعة السواحل العربية، وكان عشهم سقطرى[5] ففي القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي) لم يكن الناس

[1] يمتد هذا البحر من كولم ملي و كله بار (أنظر: ابن الفقيه الهمذاني: المصدر السابق، ص12).

[2] كله بار هي ما يعرف حاليا باسم ماليزيا(أنظر: شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص 105).

[3] ابن الفقيه الهمذاني: المصدر السابق، ص12.

[4] آدم متز، المصدر السابق، ص 847.

[5] سقطرى: جزيرة في المحيط الهندي على الجانب الشرقي لخليج عدن، (أنظر دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص 470).

يجرؤون على السفر في البحر من غير حماية، فإذا أرادوا ذلك فلا يزالــون في رعب خلال رحلتهم حتى يتجاوزوا تلك الجزيرة.[1]

و كان هؤلاء القرصان يسمون بالميد أو الكيرج،[2] وكانوا كما يقول فوضلو: « يغيرون في بوارجهم في أرجاء فسيحة مــن المحــيط الهنــدي، وكانوا يبلغون أحيانا مصب دجلة والجزء الجنوبي والبحر الأحمر وســواحل سيلان، وكانت سقطرى من أوكارهم ».[3]

إلاّ أنّه بالرغم من ذلك تبقى السرقة في الهند جريمة لا تغتفر، و يذكر بزرك: « و السرقة عند الهند عظيمة، فإذا سرق الهندي قتله الملك إن كان الهندي و ضيعا أو لا مال له، و إن كان له مال أخذ الملك ماله بأسره أو غرمه غرامة عظيمة، و كذلك إذا اشترى شيئًا مسروقًا بعد علمه بذلك غرم الغرامةً العظيمة، و مجازاة السرقة عندهم القتل. و إن سرق مسلم ببلاد الهند ردَّ حكمه إلى (الهنرمن) المسلمين ليعمل فيه بما يوجبه حكم الإسلام، و (الهنرمن) هو مثل القاضي في بلاد الإسلام و لا يكون الهنرمن إلاّ من المسلمين».[4]

هذا باختصار كل ما يتعلق بالطرق البحرية، إنما حاولنا اختصارها بقدر الإمكان نظرا لتشعبها وكثرة أسماء المواقع والجزر والمحطات البحرية حيث يتعذر علينا سردها كلها في موضوعنا هذا.

---

[1] آدم متز: المرجع السابق، ص 847.

[2] جورج فوضلو: المرجع السابق، ص 209.

[3] نفسه، ص ص 209 و 210.

[4] نفسه،ص152.

المبحث الثاني: النقل البري:

يعتبر النقل البري من المواصلات التي لا يستهان بها في المبادلات التجارية بين العراق والهند بحيث تشكل الطرق والمحطات البرية أساسا بالتبادل التجاري بين المنطقتين ولقد شكل النقل البري الشريان الرئيسي لهذا النوع من المبادلات حيث أنه اختص في تجارة بعض المواد والسلع من بينها الحرير ولقد أطلق هذا الأخير على طريق خاص به.

أولا : المحطات البرية:

و لا يمكن استكمال هذا السفر دون التوقف عند المحطات التي أنشأت خصيصا كمراكز عبور، وكان المسافرون يتزودون فيها خاصة بالمياه الصالحة للشرب، ثم بأمور يحتاجونها في سفرهم، ربما لا يجدونها في مناطق أخرى ونظرا لأهمية هذه المحطات، أردت أن أعطي لمحة خفيفة عنها لكي تكون الصورة كاملة وواضحة، ومن أهم هذه المحطات البرية والتي بواسطتها نستطيع أن نتصور هذا الطريق هي:

1. محطة الري:

كانت تسمى قديمًا "راغا Ragha"، و هي مدينة تقع في بلاد الجبال لا زالت أطلالها تُرَى على بُعد خمسة أميال تقريبًا جنوب شرقي طهران بين جبال البورز[1]، و ترجع الأهمية الجغرافية لهذه المدينة إلى وقوعها ضمن

---

[1] هي جبال تفصل إيران عن جنوبي بحر الخزر(قزوين)، أنظر:حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 388.

المنطقة الخصبة بين الجبال و الصحراء، و هي المنطقة التي كانت منذ أقـدم العصور طريق المواصلات بين غرن إيران و شرقها.[1]

و كانت مدينة الري أيضًا أكبر مستودع للبضائع علـى طريـق ذهاب القوافل وإيابها باتجاه خراسان وبغداد ونحو فارس، ولقد لعبت المدينـة دورا متفوقا في القرن الثامن إلى الحادي عشر، وكان يقصدها التجار الروس (الصقالبة)[2] والاسكنديناڤيين، ويجلبون إليها بضائع هامة كالسيوف والفـراء،[3] و نسنطيع أن قول بأنّها مفترق هام للطرق البرية بالرغم من أن بن خرداذبـة لم يشر إليها حينما ذكر مسلك التجار الروس عند حملهم لتجارتهم على ظهور الإبل من جرجان إلى بغداد،[4] حيث يستحيل التنقل من جرجان إلى بغداد دون المرور على الري باعتبارها محطة برية إستراتيجية، بل حتى المسلمين ذاتهم استعملوا هذه الطريق للوصول إلى شبكة الأنهار الروسية.[5]

2. خراسان:

تقع خراسان على مقربة من مدينة الـري، وهـي تـضم بعـض السلاسل الجبلية التي تتصل بكتلة البورز، ولكنها أقل من هذه الكتلة من حيث

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية، ، ج10، ص285.

[2] تطلق تسمية الصقالبة (مفردها صقلب أو صقلبي أو صقلابي)على الجنس السلافي أو السلاف، حيث كان الجغرافيون العرب يطلقونها على تلك الشعوب التي كانت تسكن الأراضي المجاورة لبلاد الخزر الممتدة بين القسطنطنية و بلاد البلغار، أنظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، م.ت.هوتسما، ت.و.أرنولد، ر.باسيت، ر.هارتمان، إعداد و تحرير: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس ط1، مركز الشارقة للابداع الفكري، الشارقة 1418هـ_ 1998م،ج21، ص6549).

[3] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 150.

[4] أبو القاسم ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص132.

[5] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 301.

الارتفاع،[1] وتعتبر خراسان من المناطق الإستراتيجية بحيث تقع على الممـــر الرئيسي لطريق الحرير الطويل(والذي يعتبر كذلك طريق الغزوات الكبيـــر القادمة من الشرق والذي سلكته جحافل المغول والترك)، وهي ثغر من ثغور إيران والذي من خلاله تتم حماية إيران من الناحية الـــشرقية، مثلمـــا تقـــوم أذربيجان بحمايتها من الغرب، وفيها كذلك كانت القاعـــدة الأولـــى للـــدعوة العباسية التي دعمها جيش خراساني.[2]

و تحت الجبال المذكورة تنتشر عدة مدن تحيط بها واحـــات غنيـــة بمزروعات متنوعة مثل القطن والأرز وكذلك الحبوب.

من أهم مدنها: نيسابور، مرو، بلخ، ترمذ.[3] غير ابن بطوطة ذكـــر أربع مدن و قسمها إلى قسمين، اثنتان عامرتان و هما: هـــراة و نيـــسابور، و اثنتان أخريتان خربتان، و هما: بلخ و مرو.[4] و لقد كانت نيسابور قاعـــدة خراسان في أيام بني طاهر، ويقول لها العجم شاور، وكانت مقصدا للتجـــار، لأنها كانت باب إيران الشرقية، ولهذا توطدت منزلتها كمدينة تجارية كبيـــرة، وخاصة بعد تدهور بغداد في القرن الحادي عـــشر، إذ أصـــبحت نيـــسابور عاصمة أسرة ملوك السلاجقة[5] ذات الأهمية :الاقتصادية الكبيرة.[6]

---

[1] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 150.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 52.

[3] نفسه، ص 53.

[4] نفسه،ص296.

[5] أسرة من أمراء الترك حكمت أقاليم مترامية الأطراف في آسيا الوسطى و الصغرى و شيء من بلاد العرب من القرن11 إلى القرن13، (أنظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج18، ص5705.)

[6] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 54.

و أما بلخ فقد كانت قاعدة خراسان في أيام الأكاسرة وقاعدة بنـــي صفار في الإسلام، وتقع في شرقي خراسان،[1] وكانت تمر بها الطرق التجارية بين إيران والهند.[2]

و أما مرو قاعدة خراسان في أيام السلجوقيين وفي صدر الإســلام وكانت مشتهرة بالقطن وتصنع فيها الثياب المروية،[3] و مرو عبارة عن واحة في قلب الصحراء ومحطة هامة على طريق القوافل بين إيران وبلاد أكسوس اتجاه بخارى و سمرقند،[4] ويضيف لومبارد مدينة أخرى يعدهـــا أيـــضا ضمـــن المدن الرئيسية لخراسان نظرا لأهميتها التجارية، وهي مدينة هـــراة والتي يسميها إسكندرية آسيا، وتقع على نهر هاري رود الذي ينحدر من جبال هندكوش جنوبي مرو، وتعتبر هذه المنطقة مصدرا هاما للمعـــادن وخاصـــة الحديد، الذي كانت تصنع منه عدة أدوات وعلى وجه الخـــصوص الأســـلحة لغرض التصدير.[5]

3. سجستان

هي مقاطعة كبيرة بينها و بين هراة عشرة أيام و ثمانون فرسخاً و هي جنوبي هراة،[6] تقع جنوب جبال هندكوش حيث يمرّ الطريـــق الـــذي يربط عاصمة هذه البلاد قندهار بهراة و مرو و بلخ، فقندهار التـــي ترويهـــا

---

[1] ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص174.

[2] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص55.

[3] ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 174.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص55.

[5] نفسه، ص ص 57 ــ 58.

[6] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 190.

مياه الجبال هي نقطة انطلاق الطريق الذي يتصل بالهند باتجاه الجنوب الشرقي، وتعتبر سجستان منطقة خصبة صالحة للزراعة، بحيث تزخر المساحات الكبرى المحيطة بالأودية، وخاصة عند مستنقع هامون بمزروعات هامة كالقمح، حتى أنّ هذه المنطقة تعد مطمورة البلاد الشرقيّة هذا كما تشكل مراعيها الفسيحة مرتعا لتربيّة الأنعام.[1]

و تمتاز سجستان أيضًا، برياحها الشديدة التي لا تسكن، فتم استغلالها من طرف الأهالي كطاقة هائلة لتحريك طواحينهم التي تطحن لهم حبوبهم.[2] كما يشتهر عن أراضيها الواسعة بأنّها منبت النخيل.[3]

4. مُكْـرَان:

سميت بمُكْرَان نسبة إلى مكران بن فارك بن سام بن نوح عليه السلام، فكان أول من سكنها و هي مقاطعة واسعة تشمل على مدن و قرى، يحدها من الغرب كَرْمَان و من الشمال سجستان و من الشرق الهند و من الجنوب البحر (المحيط الهندي)،[4] أي أنها تقع في أقصى الجنوب من إيران، على الجهة اليسرى من بحر عمان،[5] وهي بلاد صحراوية، صعبة الاجتياز تنتشر بها سلسلة من الجبال القليلة الممرات و التي تحجب المنطقة عن البحر

---

[1] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص58.

[2] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 190.

[3] البشاري المقدسي: المصدر السابق، ص 397.

[4] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 179.

[5] موريس لومبارد: المرجع السابق ، ص59.

و الذي توجد على ساحله مجموعة من موانئ الصيد، وهي في حـــد ذاتهـــا محطات بحرية للسفن التي تتردد بين الخليج العربي و الهند.[1]

5. كرمـــــان:

هي إقليم واسع يقع بين فارس و مكران[2]. تتربع مساحتها على ثمانين فرسخا في مثلها و يحدها في الشرق أرض مكران، و فـــي الغـــرب أرض فـــارس و في الشمال مفازة خراسان و سجـــستان و في الجنوب بحر فارس.[3]

تشتهر بزرعها و نخيلها الناذر و سجادها الفاخر الذي يصنع مـــن أجود الصوف، و عباءاتهم المشهورة من النوع الجيد المصنوعة مـــن وبـــر الجمال.[4]

و أمـــا فرضـــتها في بـــحر فارس هي المشهـــورة علـــى ألـــسن المسافرين بمدينة "هرمز"، وتقع في شرقي "قيس" و هي عبارة عن مـــضيق يفصل فارس عن عمـــــــــــان،[5] وهي مدينة ساحلية بحرية كانت تـــسمى "موزستان"[6] أو "مرسى الهند و السند" و منها تحمـــل الـــسلع الهنديـــة إلـــى

---

[1] نفسه.

[2] سراج الدين بن الوردي: المصدر السابق، ص 58.

[3] محمد الحميري: المصدر السابق، ص491.

[4] يحي الشامي: موسوعة المدن الإسلامية، ط1، دار الفكر العربي بيروت 1993م، ص280.

[5] إبن سعيد المغربي: المصدر السابق،ص 132.

[6] محمد ابن بطوطة: المصدر السابق،ص 209.

العراقيين و فارس و خراسان[1] و ترسو عليها سفن الهند التي كانـت تحمـل التجارة لكرمان و سجستان.[2]

و لقد اشـتهرت كـرمان بـتجارتها ومراكزها التجارية كما يقول الحميري: « و بها الأسواق كثيرة عـامر بالنـاس و أهلها ميـاسير ذوو أموال كثـيرة ».[3]

و لهذا تعد ذات أهمية تجارة كبيرة، خاصة أنهـا تحتـوى علـى واحات تقوم فيها مزروعات شتى مثل الأرز والحناء والنيلة، كما أنها تحتوي على عدّة أماكن لاستخراج المعادن المختلفة، كالحديد و الرصاص و النحاس، و بها مراكز تحتوي هذه المعادن وتصنيعها، و ورشات للصناعة الحرفيـة، كمراكز النسيج التي تعتمد على أصواف قطعان الأنعام المختلفة.[4]

6. فـارس:

هي أرض الفرس و بلاد الحضارات القديمة ذات المدن العظيمـة و الأقاليم المتعددة، و هي دون نهر جيحون،[5] و تقع فارس في الضفّة المقابلة لبلد البحرين في بحر العجم يحدّها من الجنوب الشرقي بلاد السند و الهنـد، و من الشمال الشرقي سلسلة جبال الهمالايا ومـن الـشمال بحـر الخـزر (قزوين)، و بلاد ما وراء النهر، و من الغرب العراق بحيث تؤلـف جبـال

[1] نفسه،

[2] نعيم زكي: المرجع السابق،ص118.

[3] محمد الحميري: المصدر السابق، ص ص 491-492.

[4] موريس لومبارد: المرجع السابق،ص60.

[5] سراج الدين ابن الوردي: المصدر السابق، ص 58.

فارس امتداد الجبال زاغروس[1] القليلة الارتفاع، التي تتخلّلها أودية قـصيرة المدى و أشهر موانئها على بحر فارس، ميناء كيش (قيس) و سيراف. فبشكل عام فان فارس منطقة زراعية ورعوية بالدرجة الأولـى نظـرا لخـصوبة أراضيها، ثم أنها بعد ذلك منطقة إستراتيجية بالتبادل التجاري فهي إذا من أهم المحطات التجارية البرية المنتشرة على الطرق البرية بين العراق والهند.

ثانيا : المسالك والطرق التجارية البرية:

أ- الطرق التجارية العامة:

و لقد كان الطريق البري إلى الشرق الأقـصى خلافـا للطريـق البحري طويلا وشاقا ومملا، كما أنه في الحقيقة ليس طريقًا واحدًا و إنما له عدة اتجاهات أو تفريعات و هذا لاعتبارات عديدة منها أن كل طائفـة مـن التجار لها مسالكها الخاصة بها، إلاّ أنها سرعان ما تلتقي عند نقاط تقاطع أو تشابك ، و نلاحظ ذلك من خلال المـدن المـشهورة التـي يحطـون بهـا و يتخذونها كمعالم يهتدون بها إلى الطريق أو محطات للتـزود فيهـا بمـا يحتاجونه لاستكمال أسفارهم.

و كانت الجمال أهم وسائل النقل، وتستعمل الجمازات أو الجمـال السريعة للسفر السريع، وكان التجار يستفيدون من كتب المسالك في معرفـة الطرق غير أنهم يعتمدون أكثر على الإدلاء.[2]

---

[1] تعد هذه المرتفعات امتدادًا لمرتفعات شرق الأناضول وتمتد في غرب إيران لمسافة 225 كلم، (أنظر: جغرافية الدول الإسلامية لعلي محمد هارون، دار الفكر العربي، مدينة نصر القاهرة 1426هـ-2005م، ص94).

[2] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 150.

كانت القوافل محملة ببضائع الهند والصين الثمينــة تنطلــق مــن الناحية الغربية للصين ثم فرغانة[1] و بلاد ما وراء النهر وتخترق إيران ثــم العراق ثم بلاد الشام ثم تكمل طريقها إلى آسيا الوسطى وأوربــا[2] و هنــاك طريق بري آخر وهو الذي ذكره القلقشندي: «فمن أراد طريق البر إلى السند والهند جاز هذا البحر (الخليج العربي) إلى هرمز، إلى مدينة كرمان، ومنها إلى السند ثم إلي الهند ثم الصين ».[3]

غير أن خرداذبة يصف لنا طريقًا كان يــسلكه التجــار الــصقالبة الروس الآتون إلى دمشق الذين ينتقلون منها إلى الكوفة ثم يتجهون إلى بغداد، فينزلون إلى البصرة ليكملوا بعد ذلك طريقهم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثــم إلى كرمان ثم إلى السند، ثم إلى الهند، ثم إلى الصين.

و ربما سلكوا طريقًا آخر خلف رومية (روما) ببلاد الصقالبة ثــم إلى خليج الخزر[4] ثم جرجان[5] ثم إلى بلخ و ما وراء النهر ثم إلى التغزغــز[6]

---

[1] فرغانة: مدينة تقع في شرق جمهورية أوزباكستان حاليا بآسيا الوسطى، و تبعد حوالي 300كلم شــرقي مدينة طشقند ، (أنظر عبد الكريم العفيفي: المرجع السابق، ص 359).

[2] حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القــاهرة، 1307هــــــ ــــ 1987م، ص395.

[3]أبو العبّاس أحمد بن علي القلشقندي: صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعــة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ج5، ص 86.

[4] كان يطلق إسم بحر الخزر على بحر قزوين، (أنظر عند الله إبراهيم، عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين، مج1، صدارات المجمع الثقافي أبو ظبي 1422هـــ-2001م، ص228).

[5] جرجان مدينة إيرانية تقع بين شاهرود و بندرشاه الواقعة على بحر قزوين و هي مدينة إسلامية عريقة كانت من أعظم مدن طبرستان و خراسان ، (أنظر يحيى شامي، المرجع السابق، ص151).

[6] أرض التغزغز و هي بين التبت و الصين و سكانها أتراك (أنظر: سراج الدين بن الوردي: المصدر السابق، ص62)

و أخيرًا إلى بلاد الصين [1]

ب- طريق الحرير:

يقصد بطريق الحرير الطريق التجاري المزدهر قديما الممتد من تشانغان (شيان حاليا)[2] إلى شرق مقاطعة قانسو[3] و ممر يانغقوان إلى شينجاينغ،[4]. ثم إلى آسيا الوسطى و غرب آسيا و أوربا. و قد سمي بهذا الإسم لأن الحرير الصيني كان ينقل عبره، و قد تغيرت هذه الطريق عدة مرات مع تقلبات التاريخ و أصبحت له عدة خطوط ، إذ لم تقتصر البضائع التي حملت عبره على الحرير، و من ثم فإن طريق هو اسم عام للمواصلات البرية بين الصين و الغرب، و من هنا أخذ مكانة هامة في تاريخ الحضارة البشرية.[5]

ينقسم جزء من طريق الحرير داخل الصين إلى ثلاث أجزاء: الجزء الشرقي من تشانغان إلى قانسو، الجزء الأوسط خشي، و الجزء الغربي في حدود شينجيانج فتح هذا الطريق في فترة الأسرة هان الغربية قبل ألفي سنة. لقد سافر الرحالة الكبير تشانغ تشيان عدة مرات إلى المناطق

---

[1] أبو القاسم ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص 132.

[2] هي العاصمة القديمة للإمبراطورية الصبنبة تقع على سهل "الواي-هو" (wei-ho) فيما بين نهر و جبال تسينغ شان و هي مدينة مسورة فيها العديد من المعالم و المواقع الأثرية و هي مشهورة بصناعة القطن، (أنظر: جودة حسنيين جودة، المرجع السابق، ص 118)

[3] هو ممر استراتيجي بري على هيئة دهليز بين الجبال في الشمال الغربي للصين الذي يؤدي إلى بوابة جيد الطبيعية، (أنظر جودة حسن جودة، المرجع السابق،89).

[4] تقع هذه المدينة عند تقاطع القناة الكبرى grand canal مع نهر اليانجسي، أنظر: (جودة حسنيين جودة، المرجع السابق، ص117).

[5] تشينغ بينغ: المرجع السابق، ص ص 141،142.

الواقعة غرب الصين كمبعوث لإمبراطوريته متحملا المشقات و المتاعب، حتى أقنع كثيرا من المدن و الدويلات الصغيرة هناك بالانضمام إلى أسرة هان، فأصبح هذا الطريق التجاري الذي يخترق آسيا و أوربا سهلا. في فترة أسرة تانغ، شهدت هذه الطريق ازدهارا لا مثيل له، و دفع التنمية الاقتصادية على جانبيه، فظهرت مع ازدهاره كثير من المدن و البلدان الجديدة، مثل مدينة ووي و تشانغايه و جيوتشيوان و دونهوانغ في ممر خشي بمقاطعة قانسو، كان كلها ذات أسواق مزدهرة و التعداد سكاني كبير.

لعب طريق الحرير دورا هاما في التبادلات العلمية و الاقتصادية بين الصين و الغرب، فعنه انتقل الحرير و الأدوات اليشمية و الحديدية و الأعمال الحرفية و الخوخ و المشمش و البرقوق و طرق زراعتها وتربية دودة القز و تعدين الحديد و صناعة الورق، بينما دخل القطن و العنب و البلسم و الرمان و الجوز و السمسم و البطيخ و غيرها من المحاصيل الزراعية، و كذا الزجاج و الأقمشة الصوفية من الغرب إلى الصين.

كما دخلت البوذية الهندية الصين عبر هذا الطريق و تركت آثارا عميقة في الثقافة الصينية.

استمر طريق الحرير بعد أسرة هان أكثر من ألف (1000) عام، أبدعت خلاله مختلف القوميات الغربية و الصينية في بناء حضارة باهرة على هذا الطريق ما زالت آثارها حية شاهدة عليها حتى اليوم، منها الكهوف الحجرية المشهورة ككهوف موقاو بدونهوانغ و كهوف معبد بينغلينغ بيونغجينغ و كهوف جبل ميجي بقانسو، و غيرها من المواقع الأثرية التي

تحوي معالم أثرية كبيرة شاهدة على تلك الحضارات العملاقة التي مرت عبر هذا الطريق، كالجداريات الضخمة و تماثيل بوذا العملاقة.[1]

لكن هذا الطريق بدأ يتدهور بعد فترة أسرة تانغ ذلك لأن مركز ثقل الاقتصاد الصيني بدأ ينتقل إلى الجنوب مع ازدهار المواصلات البحرية، إلى جانب ذلك أدت الغزوات المنغولية الغربية في فترة أسرة إيوان إلى تخريب ثقافة و اقتصاد آسيا الوسطى مما أدّى إلى هجران طريق الحرير تدريجيا.[2]

فخلال الفترات الناصعة من الحكم العباسي بالمشرق كان طريق خراسان المعروف بطريق "الحرير" ينطلق من بغداد شمالا نحو الري ثم ينحرف شرقا إلى نيسابور ثم يستمر نحو مرو و من مرو يتجه نحو بخارى، ومنها إلى سمرقند ثم إلى فرغانة، إلى أن يصل إلى شمال الصين عبر منطقة[3] التبت،[4] و خراسان تعتبر مفترق الطرق الذي يتشعب إلى عدة فروع: فرع يتجه نحو فرغانة، وفرع آخر يمر على أرض أفغانستان باتجاه الصين، وفرع ثالث يتجه نحو الجنوب إلى السند عبر قندهار ثم الملتان فالديبل وأخيرًا الهند،[5]

غير أن طريق الحرير تبقى آثاره شاهدة على أنه كان مسارا يفيض بحياة الخلائق و متنفسا لهم و لمدنهم المتحركة في قوافلهم التي كانت تملأ

---

[1] تشينغ بينغ: المرجع السابق: ص ص142-144.

[2] نفسه، 145.

[3] التبت: مملكة متميزة من جبال الصين، فهي متاخمة لبلاد الصين، وتشرف على الهند وخراسان وتركستان، (أنظر أبو الحسن المسعودي: المصدر السابق، ص157).

[4] جاك رسلر: المرجع السابق، تعريب الدكتور خليل أحمد خليل، ط1، منشورات عويدات، بيروت 1993م، ص 133.

[5] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص 287 وما بعدها.

آفاقه و الدالة على التزاوج بين الحـــضارات الكبيـــرة المختلفـــة و تـــتلاقح الثقافات المتعددة فيما بينها.

لذلك، فإن طريق الحرير ليس مجرد جغرافيا، وليس مجرد تـــاريخ وليس مجرد آثار موغلة في القدم، فقد صار طريق الحرير مفهوماً يحيل إلى هوية. و تتحد هذه الهوية بالاختلاف والالتقاء والتباين والتعايش والسلام.

فهو إذًا، الطريق الذي تلتقي فيه شعوب مختلفة و أعراق متباينـــة و يتم فيه التبادل التجاري و الثقافي معا، كما أنه الطريق الذي تـــشتبك فيـــه الجغرافيا بالتاريخ، فأثبت للناس أن الـــسلام هـــو الممـــر الآمـــن لانتعـــاش الحضارات، فآثاره تقول بأن جميع الحضارات مرت من هنا.

ــ مصاعب الطرق البرية:

هذه على العموم الطرق البرية التي تربط العراق بالهند، مع محطاتها البرية، ولكن ما ينبغي أن نصل إليه، هو أن التجارة البرية مع الشرق الأقصى بما فيها الهند و الصين كانت ضئيلة، إذ أن الرحلة كانت شاقة و طويلة، وكثيرا ما كانت تتعرض لمخاطر متنوعة منـــها غـــارات اللصوص و قطاع الطرق و يتم خلالها ابتزاز التجار أو تهديـــدهم بالقتـــل فهناك مثلاً في بعض النواحي بالهند كما يذكـــر لنا بزرك بن شهريار:« لصوص يجيء منهم جماعة من بلد إلى بلد فيعبثون على التجار الموسرين إمّا غريب أو هندي فيقبضون عليه في بيته أو في

الســوق أو في الطريق، فــيجردون في وجهــه السكاكين و يقولون له أعطنا كذا و كذا و إلاّ قتلناك»[1].

ما كانت الظروف السياسية في هذه البلــدان لا تــسمح بجريــان التبادلات التجارية، وكثيرا ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق المؤديــة إلــى الصين كوسيلة للتحفظ من التسلل الأجنبي و اندساسه،[2] ولقد حدث مــثلا وأن اضطربت التجارة في طريق من الطرق التجارية بين شرق العالم الإســلامي والصين بسبب غارات التبتيين، كان ذلك في القرن **الثامن** الميلادي، مما سمح بتوقف الطريق البري.[3]

و نظرا لهذه المشاكل ومع مشقة طول الطريــق البــري، كانــت التجارة البحرية هي الأفضل، إذ يقول مقبول: « وقد كانت التجارة على مــا تشير إليه الأدلة تحمل بحرا لا برا ».[4]

---

[1] بزرك بن شهريار: المصدر السابق، ص 144.

[2] عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 152.

[3] موريس لومبارد: المرجع السابق، ص ص 68 و 69.

[4] السيد مقبول: المرجع السابق، ص115.

خاتمـــــــــة:

يجدر بنا في ختام عرضنا لموضوع تجارة المسلمين مع الهند و الصين خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، الوقوف عند أهم المحطات فيه لاستخلاص و استنباط النتائج و التي يمكن حصرها في النقاط التالية:

أوّلاً: تعتبر التجارة الرابط الوحيد الذي لا يزال يربط بين الشعوب، لذلك، فقد بقي التبادل التجاري على وجه الخصوص بين المسلميـــن و الأمتيـــن العظيمتيـــن الهنـــد و الصين صامدا خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، برغم المصاعب و العقبات المتنوعة التي كانت تعترضه كالعوامل الجغرافية و الطبيعية والأزمات و الهزات السياسية و الصدامات العسكرية و اللصوصية، حيث بقيت التجارة في العديد من الأحيان قناة الاتصال الوحيدة بين الأمم، بل إنّ ما فرقته تلك الموانع و العقبات جمعته التجارة، فكانت بحق صلة وصـــل بين الشعـــوب في الســـــلم و الحرب؛

ثانيًا: إنّ تطور و تنامي الرواج التجاري بين المسلمين و بلاد الهند و الصين الذي بلغ ذروته و أوج عطائه إنّما كان نتيجة لكثرة و تزايد متطلبات قصور الملوك و الأمراء وإلحاح أفرادها المستمر على مواد الترف و التحف الشرقية الثمينة، خاصة و أنّ العالم الإسلامي آنذاك عرف نـــشوء دويـــلات مـــستقلة و سعي كل منها بالتشبه بالدولة الأم من حيث البلاط و الحاشـــية و الأبهـــة و البذخ، و بعيدا عن حياة القصور حظيت كذلك العديـــد مـــن المجتمعـــات الإسلامية بتحسن كبير في وضـــعية أفرادهـــا المعيـــشية جـــراء الخـــدمات الاجتماعية من صحة و مسكن و تعليم و تحسن دخلهم، الشيء الذي جعـــل الكثير من التجار الذين كانوا يجنون من هذه التجارة أرباحا طائلة ويجمعون

على إثرها أموالا ضخمة يحرصون كل الحرص على جلب تلـك البـضائع الثمينة و المطلوبة، من مواطنها الأصلية البعيدة بالهند و الصين مهما كانت الصعاب و المخاطر التي سيواجهونها، تحدوهم فـي ذلـك روح المغـامرة و تحدّي المجهول، و لقد تزامن مع ذلك تطـور علـم الجغرافيـة و بدايـة استعمال البوصلة عند المسلمين، الشيء الذي شجعهم في الذهاب إلـى أبعـد نقطة في الصين و هي "الصين صين" أو ما يسمى حاليًا كوريا. و في مقابل ذلك يحرص التجار الهنود و الصينيون في مقايضة أو شراء بعض السلع من المسلمين جراء حاجة بلادهم الماسة لها و رغبة منهم كذلك في تنمية ثروتهم. فقد ساهم ذلك كله في رسم فضاء واسع للمبادلات التجاريـة علـى طـول و امتداد المحيط الهندي عبر المجال البحري ابتداءً من باب المندب مـرورا بعمان و مضيق هرمز و الديبل ثم شبه القارة الهندية فالمالاوي و جـاوة إلى غاية الصين، أما المجال البري فيمتد من شـمالي الـشام ثـم العـراق فخراسان فآسيا الوسطى إلى غاية التبت ثم الصين و الذي يشكل مجموعة من المسالك و الطرق البرية أهمها ما يسمى حاليًا طريق الحرير المشهورة التي لا زالت معالمها قائمة شامخة و شاهدة على مرور حضارات عديدة عليه إلى يوم الناس هذا، و بالتالي، فلم يكن هذا الفـضاء التجـاري الواسـع مجـالاً لازدهار التبادل التجاري و الاقتصادي أو التمثيل الدبلوماسي فحسب، بـل كان أيضًا مجالاً خصبًا للتلاقح الحضاري و التنوع الفكري و الثقافي بـين الأمم المنتمية إليه و تبادل التأثير فيما بينها؛

ثالثًا: كان العالم الإسلامي عبارة عن منطقة كبيرة للتجارة الحرة و ميـدانًا واسعًا للتكيف الاقتصادي بين الشرق و الغرب الذي لا مجال فيـه للهيمنـة الاقتصادية القطبية أو فرض منطق اقتصادي معيّن بل ترك المجال للجـودة والمنافسة الاقتصادية الحرة السليمة، و دليل ذلك عـدم احتكـار المـسلمين

للتجارة الشرقية مع الهند و الصين و إنما تركوا المجال مفتوحًا أمام طوائف عديدة من التجار من جنسيات و أديان مختلفة للتنافس النزيه فيه.

رابعًا: لقد أعطت تجارب أولئك التجار المغامرون و خبـراتهم فـي مجـال الرحلات و الأسفار الطويلة ثمارها على شكل كتابات جغرافية أو مـذكرات ثمينة فيها أوصاف دقيقة و تقارير مفصلة لبلدان نائية بعيدة و أمم و شـعوب غريبة أو مجهولة، بحيث اِعْتُبِرَتْ حينذاك بمثابة اكتشافات جديدة ثمينة فـي غاية الأهمية، اِعْتُمِدَتْ فيما بعد كمراجع موثوقة للبحث في المجال الجغرافي و الاستكشافي بالنسبة لأجيال جاءت بعدهم من الجغـرافيين و المستكـشفين و المغامرين الجدد من المسلمين و غيرهم و خاصة الأوربيين.

خامسًا: كان التجار الأثرياء المسلمون يمثلون جانبًـا هامًـا مـن جوانـب الحضارة لدورهم الحضاري الذي كانوا يؤدّونه في الحفـاظ علـى ديمومـة الدولة و حماية كيانها من الانهيار جراء الأزمات كانت التي تمر بها، حيـث كانوا يساهمون في معالجة العجز الذي كانت تعاني منه خزينة الدولـة مـن حين لآخر، و ذلك بإقراضها قروضًا لتجاوز أزماتها المالية الخانقة، ممّا مكّن البعض منهم من كسب نفوذ سياسي في الحكم، بل أن هناك من الوزراء من كانت له تجارات؛

سادسًا: ساهمت طوائف متعددة من التجار من مختلف الجنسيات و العرقيات و الأديان في ازدهار التبادل التجاري و ازدياد الرواج التجاري ضمن نفـس المجالين البري و البحري دائمًا، فكانت جاليات اليهود و النصارى بمختلـف طوائفهم من نسطورين و يعقوبيين و غيرهم، إضافة إلى الهنود و الـصينيين ثم المسلمين بجنسيهم العربي و الفارسي منتشرةً على امتداد العوالم الثلاثـة

الإسلامي و الهندي و الصيني في الحواضر الكبرى مثل بغداد و أصـــفهان و الملابار و كانتون، كما كان لها وكلاء تجــاريون متواجــدون فـــي جـــل المحطات التجارية البرية منها و البحرية. فكان أولئك التجار بمثابة وسطاء تجاريين لنقل و توزيع و ترويج المبادلات التجارية. كمـــا كـــان الاحتكـــاك متواصلا بين تلك الطوائف نتيجة التعاون و تبادل المنافع و الخبـــرات فيمـــا بينهم، بل تطورت في بعض الأحيان إلى تكوين شراكة فعلية فيما بينها، لأنه في بعض الأحيان كانت بعض الطوائف متخصصة في نوع معين من التجارة دون الآخر، لذلك كان هناك نوع من التكافل و التكامل و التعاون فيما بينها؛

<u>سابعًا</u>: كما أن تطور فن التعامل التجاري و المالي بين التجار ساهم بشكل كبير في ازدهار و ترقية التبادل التجاري، حيث بدأ تعميم استعمال الصكوك و السندات المالية و غيرها من الأوراق المالية الذي أدّى إلى اختزال العديد من العمليات التجارية الكبيرة و تسهيلها و تذليل المصاعب التي تواجهها و تفادي المخاطر التي تهدد نقل الأموال، و لم يكن تداول هذه الأوراق المالية مقتصرًا في البلاد الإسلامية بل كان تداولها أيضًا في أقصى الشرق و خاصة في الصين؛

<u>ثامنًا</u>: و أخيرًا، تعتبر الطرق و المحطات التجارية البرية منها و البحريـــة قنوات ربط حقيقية بين تلك الأمم و الشعوب التي يتم عبرها التبادل التجاري فيما بينها، فبدونها لا يتم ذلك. و نظرًا لأهميتها، انكب الخلفـــاء و الأمـــراء العباسون على تطوير وتوسيع شبكة المواصلات البرية وتـــوفير وتحـــسين وسائل النقل البحرية، وضمان أمنها، فشقت الطرق في البر و حفرت الآبار، وأنشأت النزل والمضايف، وصهاريج المـــاء فـــي الطـــرق ليـــستقي منهـــا المسافرون والتجار ودوابهم.

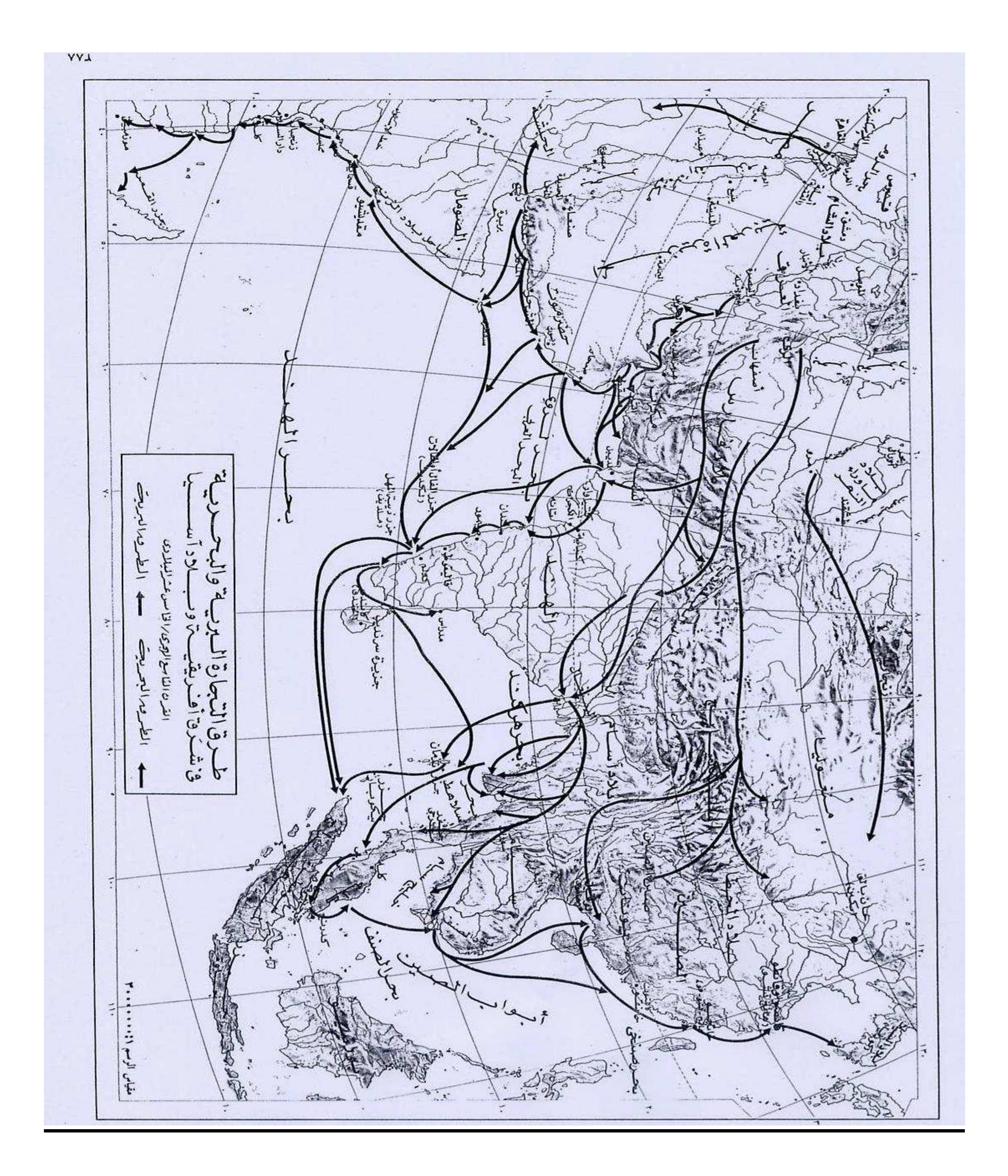
كما شجعت الملاحة البحرية، وذلك بتوفير السفن وصيانتها وإقامة الورشات لإصلاحها وتنظيفها من الرواسب والشوائب المتعلقة بها بعد كل رحلة، كمـــا عمدت إلى توفير الأمن في الطرقات وتأمين العمليات التجارية.

لذلك، فقد عرفت الطرق و المحطات التجارية الممتدة بين العالم الإســـلامي و العالمين الهندي و الصيني ديناميكية لا مثيل لها، فمن مرفأ عدن و مـــسقط و سيراف و الديبل كان يتم شحن أو تفريغ الحُمولات من و إلى الملابـــار و خانقو ثم يتم نقلها عبر طرق و محطـــات بحريـــة، فكانـــت علـــى وجـــه الخصوص السفن الإسلامية أو الصينية المشحونة بالبضائع غادية و رائحـــة بينها. كذلك الحال بالنسبة للبر كانت قوافل الجمال و الحمير المحملة بالضائع تَتْرَى على طول الطرق و بين المحطات البرية بين بلاد الإســـلام و الهنـــد و الصين.

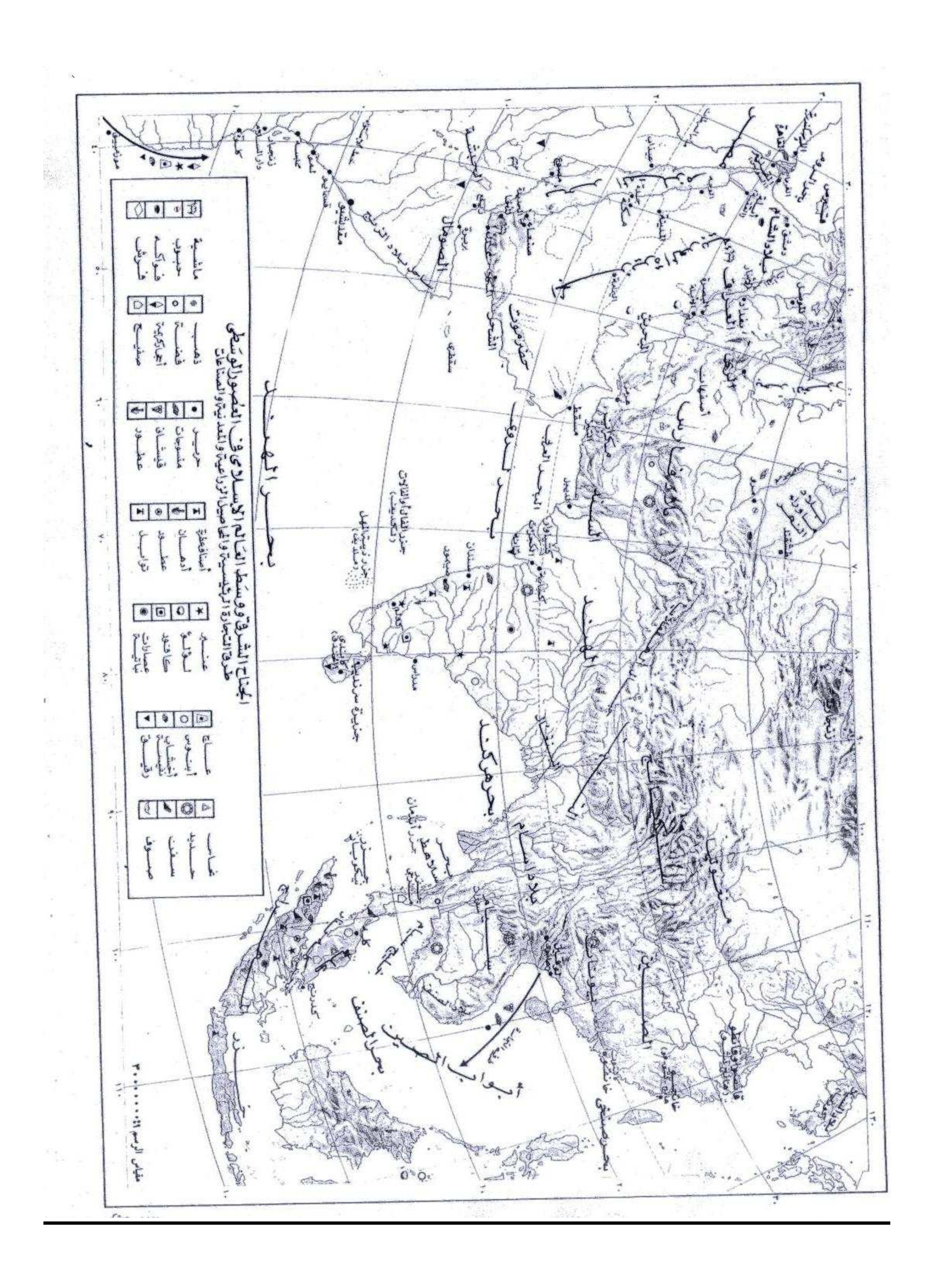
فأصبحت شبكات الطرق البرية و البحرية و محطّاتهما مجالاً واسعًا للتعارف بين الشعوب و تبادل المنافع والخبرات فيما بينها، ليس في الميدان الاقتصادي فحسب، بل حتىّ في مجالات أخرى كالثقافة و الفكـــر و العلـــوم و الفنـــون بمختلف ألوانه.

قائمة الملاحق

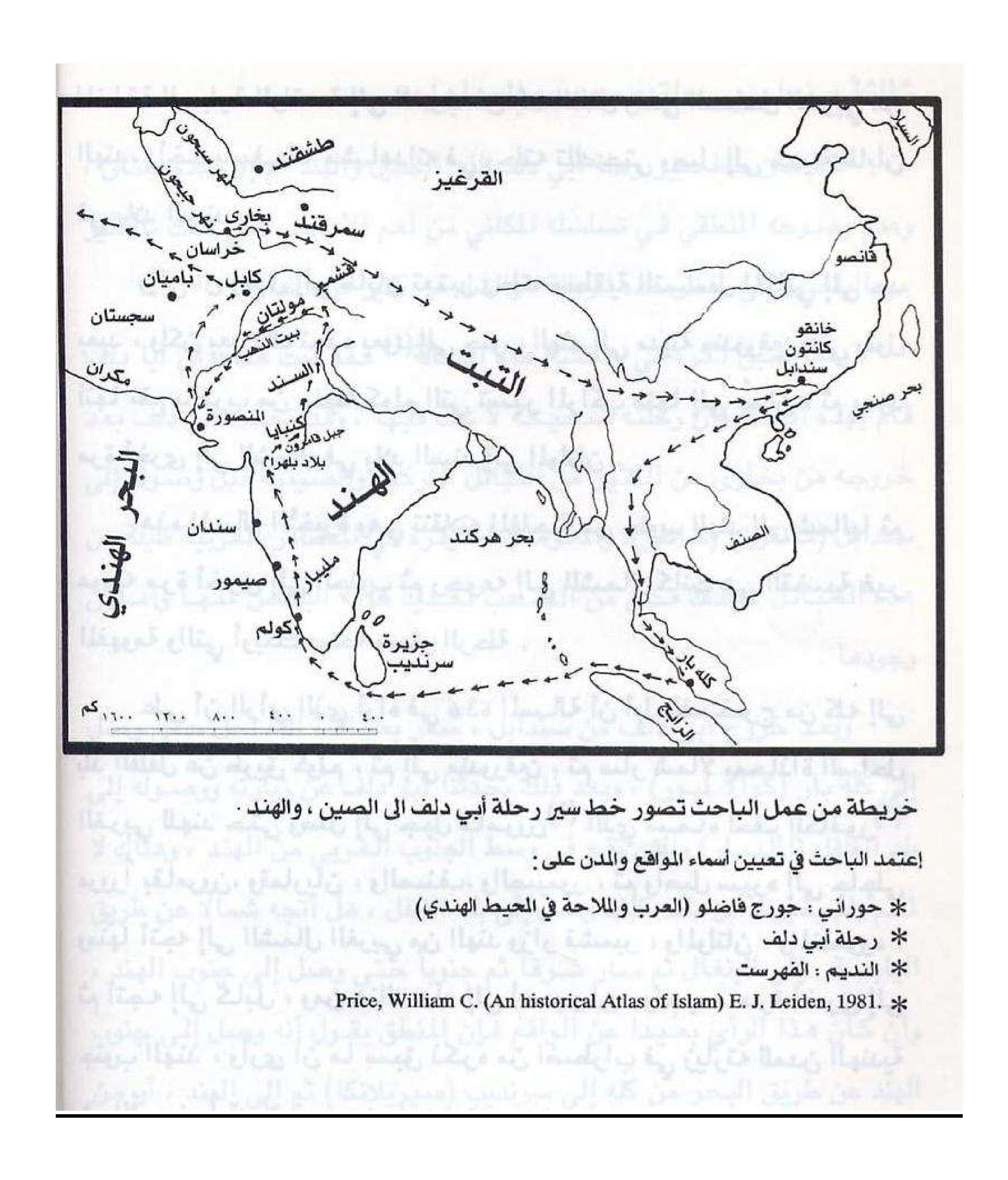
الملحق1: الخرائــط



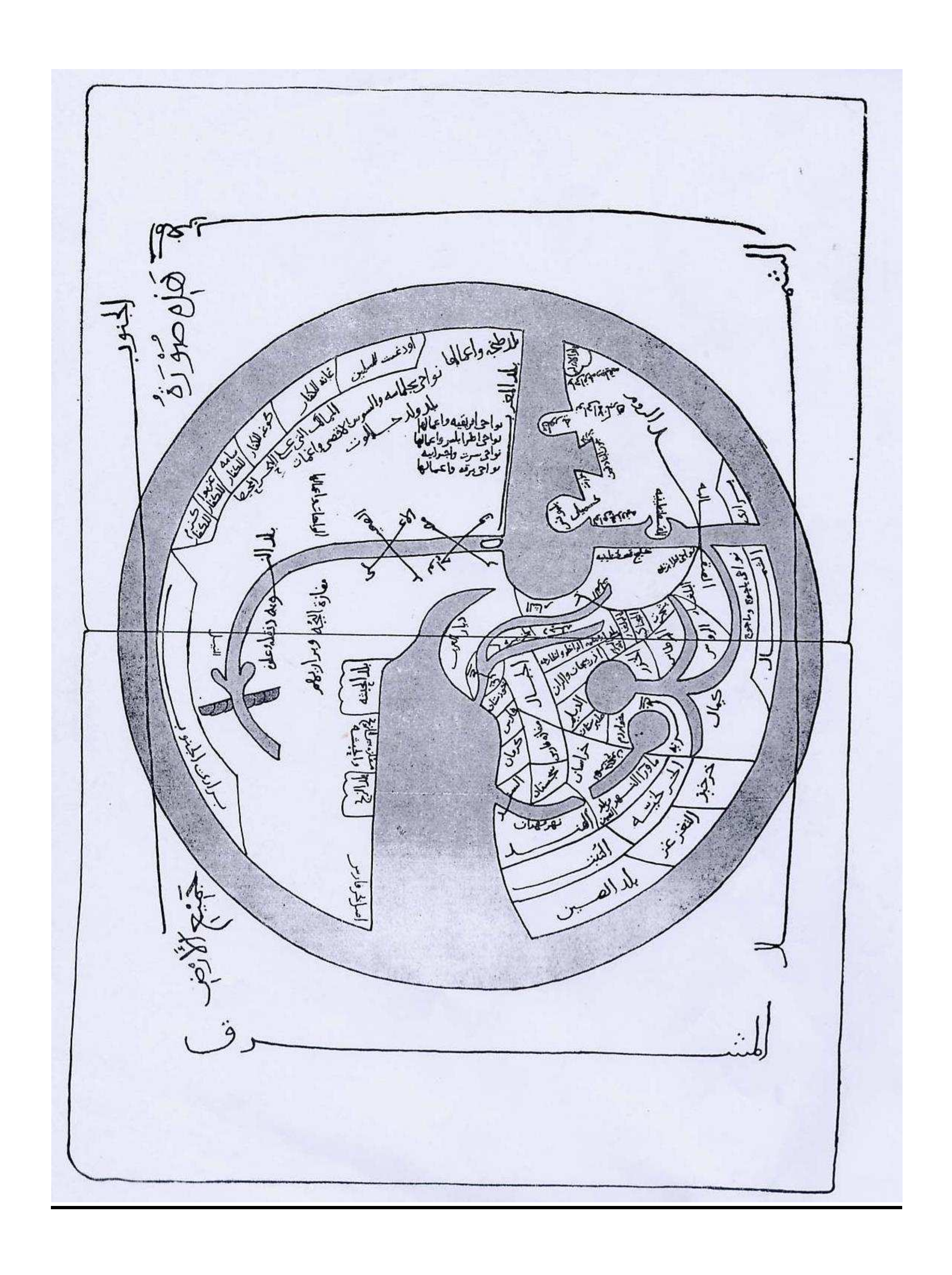
الشكل:1حسين مؤنس: المرجع السابق، الخريطة 180، ص 388.



<u>شكل: 2</u>حسين مؤنس: المرجع السابق، الخريطة 181، ص389.

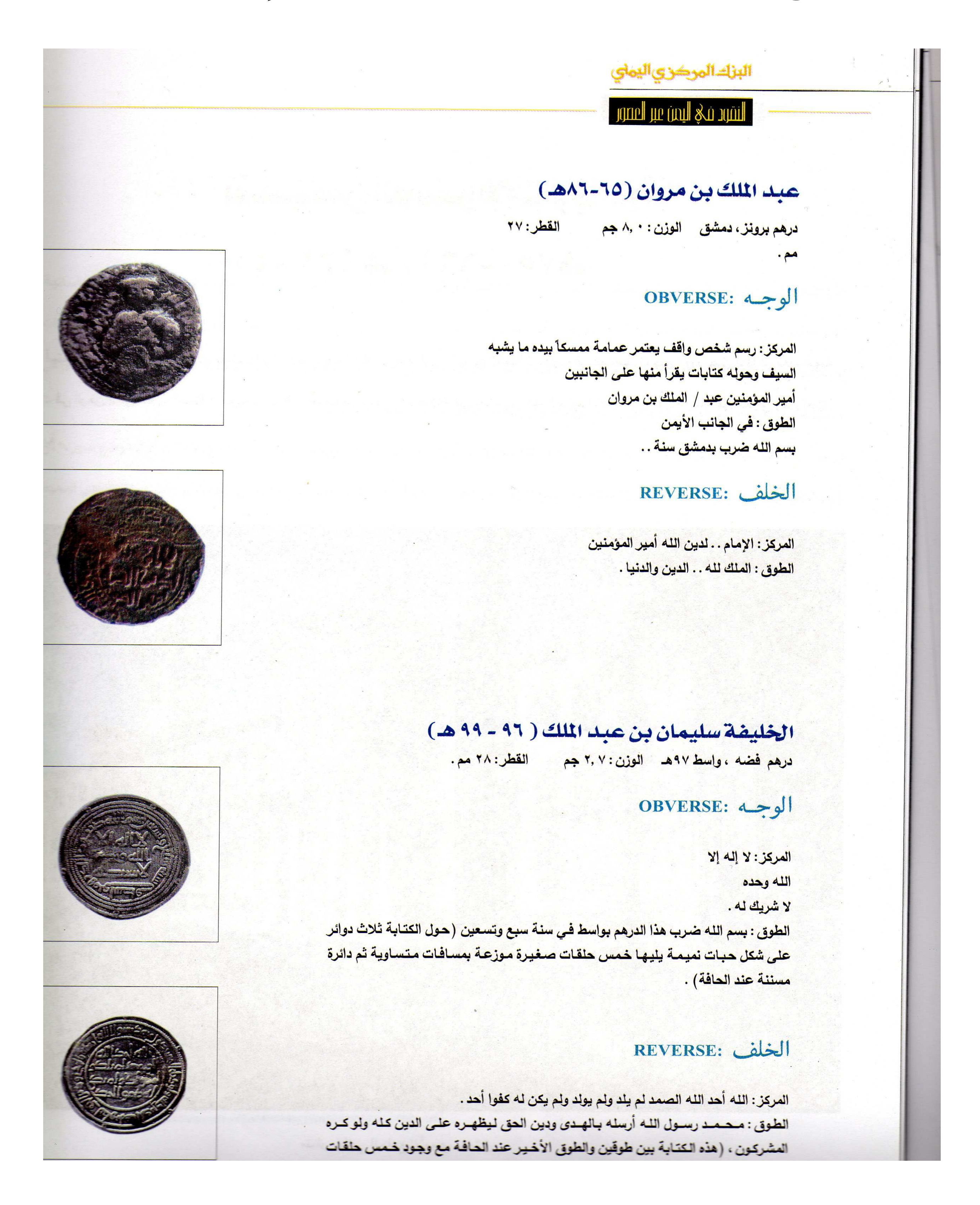


الشكل3:الخريطة أدرجها محقق كتاب الرسالة الأولى لأبي دلف مسعر بن المهلهل، ص 34.



الشكل4:هذه خريطة العالم من إنشاء و رسم أبو القاسم بن حوقل: المصدر السابق، ص16.

ملحــق2: مجموعة هامة من العملات و المسكوكات الإسلامية


البنك المركزي اليمني

النقود في اليمن عبر العصور

عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ)

درهم برونز، دمشق الوزن: ٨,٠ جم القطر: ٢٧ مم.

OBVERSE: الوجه

المركز: رسم شخص واقف يعتمر عمامة ممسكاً بيده ما يشبه السيف وحوله كتابات يقرأ منها على الجانبين

أمير المؤمنين عبد / الملك بن مروان

الطوق: في الجانب الأيمن

بسم الله ضرب بدمشق سنة ..

REVERSE: الخلف

المركز: الإمام .. لدين الله أمير المؤمنين

الطوق: الملك لله .. الدين والدنيا .

الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ)

درهم فضه ، واسط ٩٧هـ الوزن: ٢,٧ جم القطر: ٢٨ مم .

OBVERSE: الوجه

المركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له .

الطوق: بسم الله ضرب هذا الدرهم بواسط في سنة سبع وتسعين (حول الكتابة ثلاث دوائر على شكل حبات نميمة يليها خمس حلقات صغيرة موزعة بمسافات متساوية ثم دائرة مسننة عند الحافة) .

REVERSE: الخلف

المركز: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

الطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، (هذه الكتابة بين طوقين والطوق الأخير عند الحافة مع وجود خمس حلقات

الشكل:5البنك اليمني المركزي: النقود في اليمن عبر العصور، تقديم: عبد العزيز عبد الغني رئيس مجلس الشورى، مطابع شركة الصناعات المتنوعة و مواد التعبئة، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية 1426 هـ-2005م، ص 58.

أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ):

درهم فضة ، البصرة ١٤٤هـ الوزن: ٢,٨ جم القطر: ٢٨ مم .

OBVERSE: الوجـه

المركز: لا إله إلا

الله وحده

لا شريك

له

الطوق : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعة وأربعين ومائة .

الطوق الخارجي : ثلاث حلقات متجاورة موزعة في ثلاثة مواضع على أبعاد متساوية بينها ثلاثة أشكال للهلال والنجمة وكتابة غير واضحة .



REVERSE: الخلف

المركز: محمد

رسول

الله (حوله ثلاثة إطارات بخطوط صغيرة)

الطوق : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

يليه خمس حلقات بأبعاد متساوية مرتبطة بالإطار البارز عند الحافة .

أبو عبد الله محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ)

درهم فضة ، مكة ١٦٢هـ الوزن: ٢,٩ جم القطر: ٢٦ ملم .

OBVERSE: الوجـه

المركز: لا اله إلا

الله وحده

لا شريك له (حوله ثلاثة إطارات صغيرة متجاورة تتداخل فيها الكتابة يليها خمس حلقات موزعة ثم الحافة التي تبدو متآكلة أو ناقصة في بعض أجزائها) .

الطوق : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمكة سنة أثنين وستين ومئة .



REVERSE: الخلف

المركز: محمد رسول

الله مما أمر به الأمير محمد بن أمير المؤمنين

جعفر (يعلو الكتابة ثلاث نقط ودائرتان محببة)

الطوق : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

٦١

الشكل:6البنك اليمني المركزي: المرجع السابق، ص61.



هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ)

دينار ذهب، سنة ١٧٠هـ الوزن: ٣,٣جم القطر: ١٨ مم.
الكتابة على مركز الوجهين إذ يلاحظ حدوث قص على الحافة.

الوجه: OBVERSE:

لا اله إلا الله وحده لا شريك له

الخلف: REVERSE:

محمد رسول الله.

عبدالله المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ)

يتميز هذا الدينار بأن كتاباته واضحة بالخط الكوفي.
دينار ذهب، دمشق ٢٠٦هـ الوزن: ٣,٤ جم القطر: ١٩مم
الوجه والظهر بدون خطوط فاصلة.

الوجه: OBVERSE:

المركز: لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
الطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

الخلف: REVERSE:

المركز: محمد
رسول
الله
الطوق: بسم الله ضرب هذا الدينار بدمشق سنة ست ومئتين.

الشكل7:البنك اليمني المركزي: المرجع السابق، ص62.

الموفق بالله ذو الوزارتين لقب بـ طلحة أخ الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩ هـ)

درهم فضة، دمشق ٢٦٧هـ الوزن: ١,٥ جم القطر: ٢٠ مم.

OBVERSE: الوجـه

المركز: لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
الموفق بالله
الطوق الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بدمشق سنة سبع وستون ومئتين. الطوق الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.



REVERSE: الخلف

المركز: لله
محمد
رسول الله
المعتمد على الله
ذو الوزارتين
الطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)

دينار ذهب، صنعاء ٢٨٥هـ الوزن: ٣,٢ جم القطر: ٢١مم



OBVERSE: الوجـه

المركز: لله
محمد
رسول
الله
المعتضد بالله.
الطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.



REVERSE: الخلف

لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له
الطوق الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة خمس وثمانين ومائتين.
الطوق الخارجي: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

الشكل8:البنك اليمني المركزي: المرجع السابق، ص64.

المكتفي بالله (٢٨٩ - ٢٩٥هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨م)

درهم فضة، دمشق ٢٩٠هـ الوزن: ١,٨ جم القطر: ٢٥مم



OBVERSE: الوجـه

كتابه واهية

المركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

الطوق الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدرهم بدمشق سنة مائتين وتسعين

الطوق الخارجي: وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.



REVERSE: الخلف

المركز: محمد رسول الله

المكتفي بالله.

الطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢م)

دينار ذهب، صنعاء ٣٠٠هـ، الوزن: ٣,١جم القطر: ٢٠مم



OBVERSE: الوجـه

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له.

الطوق الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة ثلاثمائة.

الطوق الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.



REVERSE: الخلف

لله

محمد

رسول

الله

المقتدر بالله.

الطوق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

الشكل9:البنك اليمني المركزي: المرجع السابق، ص65.

المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) (٩٠٨ - ٩٣٢م)

درهم فضة ، دمشق ٣٠٣هـ الوزن : ٢,٤ جم القطر : ٢٨ مم .

نقص جزئي على الحافة وشرخ في الجانبين



OBVERSE: الوجـه

المركز : لله

محمد

رسول الله

المقتدر بالله

الطوق : كتابات فيها طمس في الوسط ، محمد رسول الله ... لحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .



REVERSE: الخلف

المركز : لا إله إلا

الله وحده محمد رسول الله

أبو العباس أمير المؤمنين .

الطوق الداخلي : بسم الله ضرب هذا الدرهم بدمشق سنة ثلاث وثلاثمائة .

الطوق الخارجي : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

لا اله الا الله

وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

الشكل10:البنك اليمني المركزي: المرجع السابق، ص66.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

أوّلاً: المصـــــادر:

1. ابن الأثير(أبو الحسن بن علي أبي الكرم): الكامل في التاريخ، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ.

2. الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1409 هـ-1989م.

3. الإصطخري (أبو إسحاق بن محمد الفارسي): المسالك و الممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة و الإرشاد، الإدارة العامة و الثقافة، دار القلم 1381هـ-1961م.

4. الألوسي (محمد شكري الألوسي البغدادي): بلوغ الأرب، عني بشرحه محمد بهجت الأثري، الكتب العلمية، بيروت(بدون تاريخ).

5. البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي): صحيح البخاري، ضبط و ترقيم و شرح و فهرسة و تخريج الأحاديث الدكتور مصطفى ديب البغا، نشر مشترك موفم للنشر مع دار الهدى عين مليلة، الجزائر،1992.

6. بزرك (بن شهريار الناخذة الرامهرمزي): عجائب الهند برها وبحرها و جزائرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي إصدارات المجمع الثقافي، 1421هـ- 2000م أبو ظبي.

7. ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم اللواتي الصنهاجي): رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، دار الشرق العربي بيروت (بدون تاريخ).

8. البلاذري (أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المكنّى بأبي الحسن): فتوح البلدان، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى 1350هـ-1932م.

9. البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد): تحقيق ما للهند من مقولة، مطبوعات دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1373هـ ـ 1958م.

10. الترميذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة): سنن الترميذي، ط 1، تخريج و ضبط و ترقيم صديقي جميل العطار ، دار الفكر، بيروت 1422هـ- 2004م.

11. التطيلي (بنيامين الرابي بنيامين بن بونه التطيلي النباري الأندلسي) : رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حدّد، دراسة و تقديم: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، المجمّع الثقافي، أبو ظبي الإمارات الغربية المتحدة 1423 هـ- 2002م.

12. بن تيمية تقي الدين: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن القاسم، مكتبة المعارف المغرب.

13. الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل): اللطائف و المعارف، دار المناهل للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1416 هـ ـ 1960م.

14. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: التبصر بالتجارة، المجمع العلمي بدمشق، 1351 هـ ـ 1932 م.

15. الجاحظ البصري أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر الجزائر1997 م.

16. بن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد): رحلة ابن جبير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، سلسلة "أنيس" 1988م.

17. بن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد): المنتظم في تاريخ الأمم، دراسة و تحقيق عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، راجعه و صححه، نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1415هـ-1995م.

18. ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد): جمهرة أنساب العرب، سلسلة ذخائر العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، دار المعارف بمصر، 1391هـ-1971م.

19. ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد): المحلى بالآثار، تحقيق عبد الغفار سليمان البغدادي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع 1421هـ - 2001م.

20. الحموي (أبو عبد الله ابن عبد الله ياقوت): معجم البلدان، دار بيروت للطباعة النشر، بيروت 1399 هـ ـ 1979م.

21. الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار، ط 2، مكتبة لبنان 1984م.

22. ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي): صورة الأرض، ط2، منشورات دار الحياة، بيروت(بدون تاريخ).

23. ابن خرذاذبة (أبو القاسم بن عبد الله): المسالك والممالك، تقديم وفهرست: الدكتور محزوم، ط2 دار إحياء التراث العربي(بدون تاريخ).

24. خسرو ناصر: سفر نامة، ترجمة يحي الخشاب، ط 2، دار الكتاب الجديد، بيروت 1970م.

25. بن خلدون (عبد الرحمان المغربي): المقدمة من كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط و وضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر، بيروت1421هـ- 2001م.

26. أبو دلف الخزرجي مسعر بن المهلهل: الرسالة الأولى، دراسة و تحقيق: مريزن سعيد مريزن عسيري، مركز إحياء التراث الإسلامي

بمعهد البحوث العلمية و إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة 1416هـ-1995م.

27. الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الطالب الأنصاري): نخبة الدهر، مطبعة بريل، ليدن المحروسة، 1923م.

28. أبو داود السجستاني (سليمان بن الأشعث): سنن أبي داود مع حاشية عون المعبود، عني بشرحه الحاج حسن إيراتي، دار الكتاب العربي، بيروت (بدون تاريخ).

29. الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، تحقيق و تخريج الأحاديث: شعيب الأرنؤوط، ط10، مؤسسة الرسالة، بيروت1414هـ_1994م.

30. ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة، طبع في مدينة ليدن بمطبع بريل، 1891م.

31. السرخسي (أبو بكر محمد بن أبي سهل شمس الدين): المبسوط، ط1، دار الكتب العلمية، بيرروت 1414هـ-1993م.

32. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، ط2، دار الجيل، بيروت 1415هـ - 1994م.

33. الشيزري عبد الرحمان بن النصر: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ط1، تحقيق الباز العريني، دار الثقافة، بيروت (بدون تاريخ).

34. الصنعاني (محمد بن إسماعيل الأمير اليمني المعروف بالصنعاني): سبل السلام، دار الجيل، بيروت، (بدون تاريخ).

35. الطبري ابن جرير: تاريخ الأمم و الملوك، مراجعة و تقديم و إعداد الفهارس: نواف الجراح، ط1، دار صادر، بيروت 1424هـ-2003م.

36. العسقلاني بن حجر: فتح الباري، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1406 هجرية.

37. القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، دار التراث العربي، بيروت 1965م.

38. القرماني (أحمد بن يوسف): أخبار الدول و آثار الأول في التاريخ، دراسة و تحقيق أحمد حطيط و فهمي سعد، ط1، عالم الكتب 1416هـ_1992م، بيروت.

39. القلقشندي (أبو العبّاس أحمد بن علي) : صحيح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر ، القاهرة (بدون تاريخ).

40. الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب البصري البغدادي): الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، ط2، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابلي الحلبي و أولاده بمصر 1386هـ-1966م.

41. المجيلدي: كتاب أحكام التسعير، تحقيق موسى لقبال، ط 2، الشركة الوطنية للكتاب،الجزائر 1970.

42. بن كثير (أبو الفدا الحافظ): البداية و النهاية، مكتبة المعارف، بيروت 1408هـــ - 1988م.

43. المروزي (الطيّب شرف الزمان طاهر): أبواب الصين و الهنـــد، Minorsky, The . BY / V Arabica texte (circa A.D.M 120) with an English translation and commentray Society, Rovenor, street, Royal Asiatic .London

44. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي): مروج الذهب و معادن الذهب و الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، ط 2، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1407هـــ – 1987م.

45. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي): التنبيه و الإشراف، بإشراف لجنة تحقيق التراث، دار مكتبة الهلال، بيروت 1993م.

46. مسكويه أحمد بن محمد: تجارب الأمم، عني بنسخه و تصحيحه: هــــ.ف. آمدروز بمطبعته بشركة التمدّن الصناعية بمصر المحمية سنة 1332هـــ 1914م، دار الكتاب اللّبناني، بيروت.

47. مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري): صحيح مسلـــم، بشـــرح النـــووي محيـــي بـــن زكريـــا، دار المنـــــار للطبـــاعة و النشـــر و التوزيع، القاهرة 1423هـــ–2003م.

48. ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

49. النسائي (أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي بن بحر): سنن النسائي، شرح السيوطي، حاشية السندي، دار الكتاب العربي، بيروت، (بدون تاريخ).

50. النووي (محيي الدين بن شرف): المجموع شرح المهذب، تحقيق الدكتور مطرحي دار الفكـــر للطبـــاعة و النشر 1421هـــ-2000م، بيروت.

51. الهمذاني (أبو بكر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه)، مختصر كتاب البلدان، مطبع بريل، طبع بمدينة ليدن المحروسة1302هـــ_1885م، نشر دار الكتاب اللبناني.

52. بن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب و فريدة الغرائب، ط3، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان 1991م.

53. اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن واضح): كتاب البلدان، مطبع بريل مدينة ليدن المحروسة 1891م.

ثـــانيًا:المراجـــــع

1. آرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد الحميد عابدين، و إسماعيل الخراوي، ط 4، مكتبة النهضة، القاهرة 1971م.

2. الأفغاني سعيد: أسواق العرب، ط2، دار الفكر، دمشق، 1379 هجرية ــ 1960 ميلادية.

3. بروي إدوارد: تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)، ط3، منشورات عويدات، بيروت 1994

4. تشين بينغ: جغرافية الصين، ترجمة فريدة وانغ فو، دار النشر الصينبة عبر القارات أكتوبر 1999م.

5. تشين شي: الصين، ط1، دار النجم الجديد، بكين 1993.

6. الجزيري عبد الرحمان: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، تحقيق أحمد فريد المزيدي و محمد فؤاد رشاد، المكتبة التوفيقية، القاهرة (بدون تاريخ).

7. جودة حسنين جودة: جغرافية العالم القديم الإقليمية، ط1، منشأة المعارف بالإسكندرية 1998م.

8. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ط7، دار الأندلس، بيروت 1964 م.

9.حلاق حسن: ملامح تاريخ الحضارات، الدار الجامعية، بيروت 1411هـ– 1991م.

10. حوراني جورج فوضلو : العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مطابع الكتاب العربي القاهرة، بدون تاريخ.

11. الخازن وليام: الحضارة العباسية، ط2، دار المشرق ش م م، بيروت 1992م.

12. أبو خليل لشوقي: أطلس دول العالم الإسلامي (جغرافي تاريخي اقتصادي)، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت 1419هـ1999م.

13. دراسات ألمانية حول الشرق الأوسط، ط1، تحقيق أبو جين قيرت ، تحرير و ترجمة: فؤاد ابراهيم، محمد الحجيزي، جرونت روتر، مانفرد شنايدر، ط1 المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت، 1983م.

14. دتلف نلسن وأصحابه:التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1958 م.

15. ديورنت ويل: قصة الحضارة، ترجمة أحمد بدران، ط 1 دار الجيل بيروت، 1992م.

16. رايلي كاڤين: الغرب و العالم(الحضارة من خلال موضوعات) ترجمة: عبد الوهاب محمد المسيري، هدى عبد الحميد حجازي، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية

يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت،رمضان 1405هـ - يونيو 1985م.

17. رسلر جاك: الحضارة العربية، ترجمة الدكتور خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت (بدون تاريخ).

18. الرفاعي أنور: النظم الإسلامية ، دار الفكر المعاصر، بيروت 1998م.

19. زكي نعيم: طرق التجارة الدولية، المكتبة العربية القاهرة 1393 هـ– 1973م.

20. أبو سعيد: أحكام السفر وآدابه، دار الإمام مالك، 1415هـ ـ 1995م، الجزائر.

21. سالم عبد العزيز: بحوث إسلامية في التاريخ و و الحضارة و الآثار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1411هـ-1991م.

22. سقرن تيم: رحلة السندباد، ترجمة سامي غريز، وزارة التراث القومي و الثقافة 1405هـ_1975م، سلطنة عمان.

23. سيف محمد: الحياة الاقتصادية في نجد والحجاز، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت(بدون تاريخ).

24. فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة العلمية للتأليف و النشر، القاهرة 1970.

25. عادل أحمد: الطريق إلى المدائن، دار النفائس، ط3، بيروت، بدون تاريخ.

26. عاقل نبيه: تاريخ العرب القديم، المطبعة الجديدة، دمشق (1395 هــ ــ 1396 هــ) (1975 م ــ 1976م).
27. عثمان عبد العزيز مع التقي محمد: جغرافية الوطن العربي، مكتبة الربيع، حلب، سوريا(بدون تاريخ).
28. الفقي عصام الدين عبد الرؤوف: بلاد الهند في العصر الإسلامي، ط 2، دار الفكر العربي ، القاهرة 1996 م.
29. فوري مبارك: العرب و الهند في عهد الرسالة، ترجمة إبراهيم عزّت عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1973م.
30. الكبيسي حمدان عبد المجيد: الحياة الاقتصادية و تطوّرها في المدن في عهد الازدهار الإسلامي، دار الحرية للطباعة، بغداد1988م.
31. لقبال موسى: الحسبة المذهبية، ط1 (ش، و،ن، ت) الجزائر 1981م.
32. لنتون رالف: شجرة الحضارة، تقديم محمد سويدي، "الأنيس" سلسلة العلوم الإنسانية تحت إشراف علي الكنز، موفم للنشر1990، الجزائر.
33. لوبيز روبرت: ثورة العصور الوسطى التجارية 950-1350م، ترجمة: محمود أحمد أبو صورة، مراجعة صلاح الدين حسن السوري منشورات شركة ELGA ، فاليتا- مالطا1997م.
34. متز آدم: الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، الدار التونسية للنشر، تونس 1405هــ _ 1986م.

35. المراغي أحمد، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (بدون تاريخ).

36. مقبول السيد: العلاقات العربية الهندية، ترجمة نقولا زيادة، الدار المتحدة للطباعة والنشر، 1974م.

37. الملاح رجائي مع الملاح دوروثي: عبقرية الحضارة العربية منبع الحضارة الأوربية، ترجمة: عبد الكريم محفوض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق1972م.

38. مؤنس حسين: أطلس تاريخ الإسلام، ط 1، الزهراء للإعلام العربي القاهرة 1307-1987م.

39. ميكيل أندري: الإسلام و حضارته، ترجمة زينب عبد العزيز، مراجعة كمال الدين الحناوي منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

40. الندوي محمد إسماعيل: تاريخ العلاقات بين الهند والبلاد العربية، ط 2 دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

41. هو ذانج: دراسة حول المعاملات بين الصين و العرب في العصر الوسيط، ندوة الدراسات العمانية "حصاد" ذو الحجة 1400هـ / نوفمبر 1980م، وزارة التراث القومي و الثقافة.

42. هول ريتشارد: إمبراطوريات الرياح الموسمية، ط1، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، أبو ظبي1999م.

43. هونكه زغريد: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، و كمال الدسوقي، مراجعة مارون عيسى الخوري، ط6، دار صابر بيروت 2000م.

44. هويدي فهمي: الإسلام في الصين، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت 1401هـ-1981م.

المراجع الأجنبية

1. Aly Mazahéri : La Vie Quotidienne des Musulmans au Moyen Age Xe au XIIIe siècle, Librairie HCHETTE , Paris sans date, p 195 et 196.
2. Denys Lombar: La Chine imperiale, presse universitaire de France, Paris1967.
3. Dominique Sourdel et Janine Sourdel :La civilisation de l'islam classique, collection des grandes civilisation, Arthaud, Paris 1968.
4. Vadime Ellisseff , Jean Nadou , Gaston Wiet et Philippe Wolff : Histoire de l'umanité (Moyen-age), UNESCO, Paris 1992, V3, P108).

المعاجم والموسوعات

1. البستاني بطرس: محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1993م.
2. جرجس جرجس: معجم المصطلحات الفقهية و القانونية، مراجعة القاضي أنطوان الناشف، ط 1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1996م.
3. الشامي يحيى: موسوعة المدن الإسلامية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت 1993م.

4. العفيفي عبد الحكيم: موسوعة ألف 1000 مدينة إسلامية، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصر القاهرة 1421هـ– 2000م.

5. الكيلاني: موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية لدراسات النشر، بيروت 1993م.

6. المعجم الوسيط، تأليف:إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، ط 2، دار المعارف، بيروت، بدون تاريخ.

7. بن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري): لسان العرب، ط2، دار صادر بيروت 2004م.

8. الموسوعة العربية العالمية: ترجمة بتصرف عن دائرة المعارف العالمية Woorld Book Encyclopedia، مدير الترجمة و التحرير صلاح الدين الزين الطيب، النسخة الدولية1994،مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر و التوزيع ، الرياض.

9. A-Kondo et Kondratiev : Nouveau Larousse Encyclopédie, Larousse, Paris Cedex 06 – 2003.

الدوريات و المجلات:

1. مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الرابع.

2. JOURNAL ASIATIQUE, AOUT SEPTEMBRE 1846

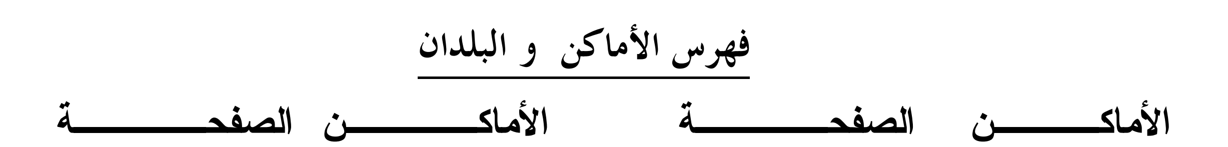

الفهـــــــــارس

فهرس المواد:

فهرس الأعلام

الأعـــلام الصفحـــة الأعـــلام الصفحـــة

الأعـــلام — الصفحـــة


فهرس الأماكن و البلدان
الأماكـــــــن الصفحـــــــــة الأماكـــــــن الصفحـــــــــة

الأماكـــــــن	الصفحـــــــة	الأماكـــــــن	الصفحـــــــة
فـــاء (ف)		- كرمان	206.204.203.202.168
- فارما		- كرومندل	142.37
- فارس	68.67	- كشمير	36

قـــاف (ق)

كــاف (ك)

لام (م)

ميــم (م)

الأماكـــــــن	الصفحـــــــة

نــون (ن)

هـــــاء(هـ)

الأماكــــــن الصفحـــــة